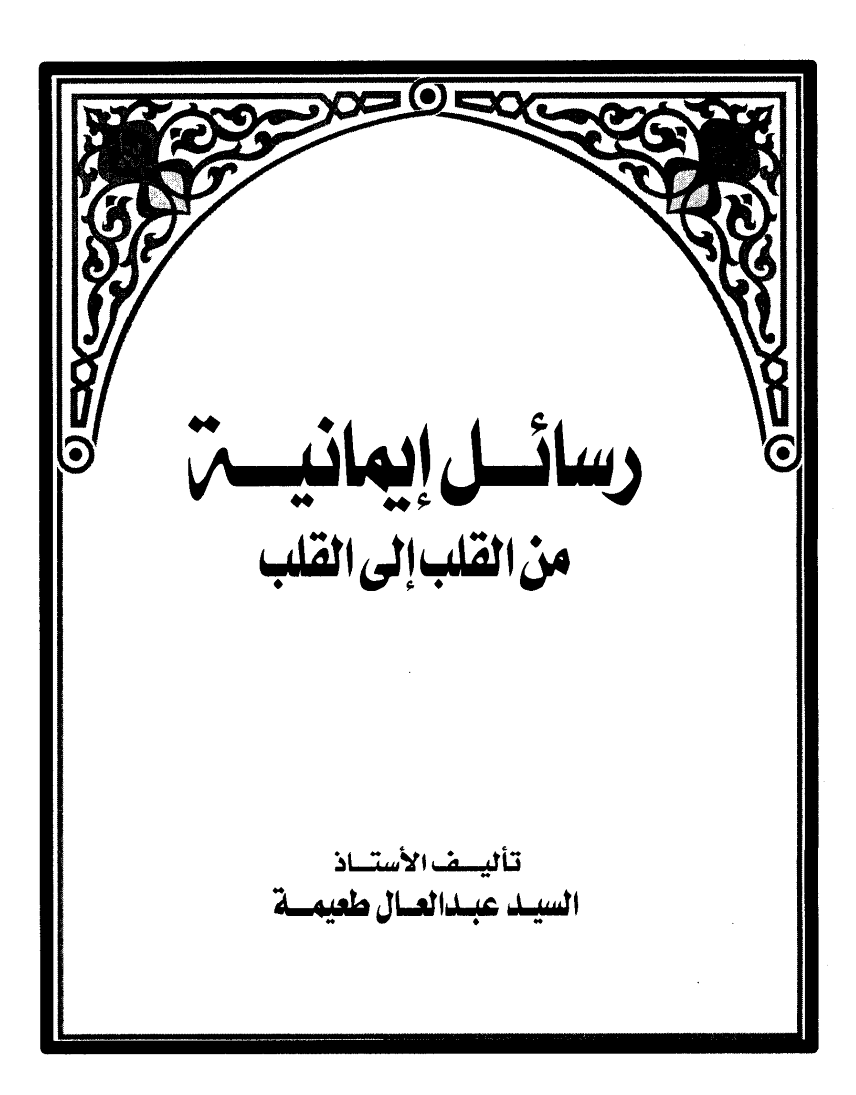


رسائل إيمانية

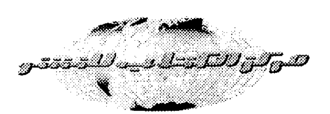
من القلب إلى القلب

تأليف الأستاذ
السيد عبدالعال طعيمة

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/١٩٧٩٦
الترقيم الدولى :
977 - 294 - 373 - 5

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م



مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠
مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس- المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨
http://www.top25books.net/bookcp.asp.
E-mail:bookcp@menanet.net

إلى والدنا الحبيب...

إلى من كـان ومـازال .... الأب والأخ - الأسـتـاذ والصـديق المعلم والقـدوة - الرفـيق والحبيب

علمتنا كيف نحب ... وكيف نخلص ... وكيف تكون الأمانة...

وكيف نكون الرجال فى كل المواقف

علمتنا الدين السمح الصحيح

كنت المحب المخلص للجـميع ... والمتـفـانى فى خدمـة أهلك وعـشيـرتك فى قـريتك (السمادة - دقهلية) .. فأحبك الجميع رغم غيابك عنا أعواما

لكن مـازالت أنوار كلمـاتك تضـىء لنا الطريق نتلمـسـهـا فى كل المواقف... فى كل الأماكن .. فى كل الأوقات ... نمشى على هداها.

نهـدى إليك كلمـاتك ... من خطبك ومـحـاضـراتك ... جـمـعناها فى هذا الكتـاب (رسائل إيمانيه من القلب إلى القلب) إبتغاء مرضاة الله ... حبا ووفاء منا إليك. بعد أن قمنا بطبع وتوزيع تفسير ابن عطيـة «المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» الذى حققـتـه أيضـا طامعين أن ينفع الله به المؤمنين ... وأن يجعل ذلك فى ميـزان حسناتك وميزان حسناتنا... ونجعله شكراً وتقرباً إلى الله عز وجل على أن وهبنا إياك أباً وأخاً ومعلماً وصديقاً وأستاذاً وحبيباً.

وأن يجعل ذلك أيضا فى ميزان حسنات والدتنا على ما بذلته من جهد وتعب ومعاونة معك فى رحلة الحياة.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أبناء المؤلف

مناجاة دعاء وتضرع إلى الله

● اللهم لك الحمد حمدا طيبا مباركا لا ينبغى إلا لجلال وجهك وعظيم سلطانك على ما أوليتنا من نعم لا تعد ولا تحصى. وعلى ما أوليتنا من نعم لا نستحقها. وعلى ماأوليتنا من نعم لم نحمدك عليها. وعلى ما أوليت جميع خلقك من نعم لم يحمدوك عليها.

● اللهم لك الحمد على أن ألهمتنى أن أحمدك وإن كان حمدي لك إن استطعت مثل عدد حبات الرمال وسعة الليل والنهار وملء الأرض والسموات. فأنا أعلم أنه لن يجزئ عن نعمة واحدة من نعمك عليّ والتى لا تعد ولا تحصى - ولكننى أطمع أن يكون حمدى لك على ضآلته سببا فى أن تدخلنى برحمتك فى رحمتك بالفضل منك لا بالعدل.

● اللهم إنك بعفوك وفضلك ورحمتك يسرت لنا أمر الإسلام والإيمان بك - كما يسرت لنا أداء ما افترضت علينا من صلاة وزكاة وصيام تقربا إليك ووهبتنا نعمة السماح لنا بالدعاء والتضرع لك فى أى وقت وأى مكان وكيفية أداء وأنعمت علينا بتأجيل الحساب والعقاب تمهلا منك وترفقا بنا واستدراجا لنا لنفيق من غفلتنا ونتوب إليك ... اللهم فبعفوك وفضل جودك وكرمك ورحمتك لا تجعل هذا الفضل منك بسوء فهم منا سببا فى أن نغفل عن الخشوع لك حق الخشوع أو أن نغفل عن استحضار عظمتك فى جميع أحوالنا وخاصة عند أداء تلك العبادات - وألهمنا جلال الموقف بين يديك - وعظمة ما نطلب ونرجو منك - وأن نستشعر هول الخطب الذى نحن فيه وما أردينا فيه أنفسنا بالخطأ والجهل والنسيان والتقصير والذنوب - حتى نلتزم ونرقى ونقترب من درجات القرب منك ونسعد بالإجابة ونكون أهلا لها بالفضل لا بالعدل منك (والله ذو الفضل العظيم).

● اللهم إنك سبحانك قد أستخلفتنا فى هذه الأرض لنعبدك وحدك حق العبادة ونقيم شريعتك على الوجه الذى يرضيك ونعلم أن الخليفة لا ينجح فى خلافته إلا إذا سار على نهج ومراداة من استخلفه فأعنا يارب بفضلك ورحمتك على أن نقيم شريعتك فى الأرض وفقا لما تحب وترضى وأن نكون من الذاكرين الشاكرين الحامدين، وامنحنا يارب القدرة على أن نتصرف وفقا لمرادتك فيما استخلفتنا فيه من نعم أنعمت بها علينا وأن نتذكر دائما أن هذه النعم ليست ذاتية فينا وانما هى فيض من فيضك وهبة من هباتك وقبس من نورك سبحانك. وأن من حق غيرنا علينا أن نجود بها عليه - حتى إذا سلبت منا أفاض غيرنا بها علينا - هذا ... لتطمئن قلوبنا ونستقبل حوادث الحياة بالرضا - وامنحنا اليقين فى قلوبنا وعقولنا بأن هذه سنتك فنرضى بها. لترضى عنا. ويكفينا أنك أرسلت إلينا المنهج الواضح فى القرآن الكريم ووهبتنا النموذج الكامل لتطبيقه فى شخص رسولنا الكريم وأنّى لنا أن نستنير بالمصابيح ونور الشمس ساطع.

● اللهم آتنا من لدنك يقينا يثبتنا عند البلاء حتى لا نكون ممن يئسوا من رحمتك، وصبرا يعيننا على احتماله وتجاوزه ويكون سببا فى رضاك عنا رضا يغنينا عن رضا من سواك وأفض

علينا نورا من فيض نورك يملأ قلوبنا يضئ لنا ويهدينا إليك فى ظلمات ظلمنا لأنفسنا حتى لا نضل ونشقى وحبا لك يجعلنا دائما حيث أمرتنا ويبعدنا عمن حيث نهيتنا.

● اللهم حبب إلينا ما تحب من أسباب البر وارزقنا الثبات عليه ليكون شفيعا لنا يوم الحساب وخشية منك تبعدنا عن ارتكاب المعاصي وعونا منك يعيننا على دوام حبك وخشيتك.

● اللهم امنحنا القدرة على قضاء ما نستطيع من حوائج الناس بما وهبتنا من قدرات حبا وتقربا إليك دون التفات إلى شكر أو نكران منهم حتى نكون من الآمنين من عذابك يوم القيامة.

● اللهم هب لنا صفاء نفس يجعلنا نكظم غيظنا ونعفو عمن ظلمنا ونحسن إليه مسارعة منا إلى مغفرة ورضا منك وتوبة خالصة إليك تقبلها منا تمحو بها ذنوبنا وترضى بها عنا وتمنحنا بها عفوك ورحمتك وتدخلنا بها جنتك.

● اللهم اجعل فى قلوبنا شوقا إليك ننسى به ما فى الدنيا من ملذات ويعيننا على احتمال ما شئته وقدّرته لنا من ابتلاءات ويذكرنا دائما بما وعدتنا من نعيم وجنات وأملا دائما متجددا فى عفوك ورضاك وغفرانك حتى لا نيأس من رحمتك وحسبنا أنك قلت إنك تغفر الذنوب جميعا.

● اللهم هيئ لنا من أمرنا رشدا وآتنا من لدنك حكمة تعيننا على محاسبة أنفسنا قبل أن يحاسبنا الناس أو نحاسبهم ونرى فيها عيوبنا لننشغل بإصلاحها عن عيوب الناس وندعوك ضارعين ألا تأخذنا العزة بالإثم إذا وجدنا أنفسنا فى أمر يبعدنا عنك أو إذا قيل لنا اتقوا الله وأن نعود إليك دائما من قريب تائبين منيبين ضارعين صادقين.

● يارب كما أنعمت علينا بنعمة الإسلام أنعم علينا بنعمة الثبات على الإسلام ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا وتوفنا وأنت راض عنا.

● اللهم امنحنا القدرة على أن نستوعب متغيرات ومستجدات الحياة استيعابا إيمانيا يقربنا إليك غير مفتونين بها ولا ضالين أو مضلين بها وأن نستطيع بعون وهدى منك أن نحقق مراداتك منا فيها.

● اللهم إن قلبي موقن ومؤمن ومطمئن بأن ما قدّرته وما شئته هو خير ونعمه لي وإن كان عقلى قد لا يدرك ذلك الخير وهذه النعمة فلا تجعل عجز عقلى عن إدراك ذلك الخير يمنعني من التأدب فى استقبال نعمتك وحسن أداء الشكر عليها .

● اللهم أعنا على أن نكون دائما فى رحاب وفى شرف ذكر واتباع حبيبنا وشفيعنا وإمامنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين واغفر لنا تقصيرنا فيما بدر منا فى اتباع سنته وشرف الدفاع عنه فى أيامنا هذه.

اللهم آمين

حديث عن الإسلام

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدى الساعة نسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ويتبع رضوانه ويتجنب سخطه.

نحمده سبحانه أن هدانا للإسلام وجعلنا من أهل التوحيد الخالص.

أما بعد فيا عباد الله..

لا أريد اليوم أن أدافع عن الإسلام - ذلك لأن الإسلام ليس فى حاجة إلى دفاعى هذا - إنه عقيدة متمكنه ثابتة - جذورها عميقة فى كل نفس سوية، هو دين الفطرة : فمن آمن به صدر عن طبع سليم، واستجاب لبواعث الخير الكامنة فى كل نفس بشرية، ومن كفر به خرج على الفطرة السليمة - وصدق رسول الله «كل مولود يولد على الفطرة».

وإنما أريد أن أوضح حقيقة - أن أعرض قضية - أن ألفت الأنظار إلى هذه الجريمة الكبرى التى تمضى فى طريق التنفيذ ونحن عنها غافلون لا هون، أو نبدو عنها غافلين لا هين.

العدوان على الإسلام يأخذ اليوم أبعادا جديدة - ويسير التنفيذ فيه على أساس من التخطيط المرسوم - ولقد كان الإسلام دائما هدفا للعدوان، لكنه كان دائما يجد سندا من كمال مبادئه، وسلامة تعاليمه - وكان يجد عونا من المفكرين - كان يجد من يدافع عنه بالرأى الواضح، والحجة البالغة - بالسلوك العملى القويم - ثم بالسلاح إذا لم يكن بد من سلاح - ولهذا تحطمت الهجمات، وتراجعت الغزوات - ولهذا بقى الإسلام منارة للهدى والحق والخير والسلام - ولهذا انحسرت أمواج الغزو التترى والغزو الصليبى لأن أمثال قطز وصلاح الدين وقفوا أمامها مدعمين بالسلاح، ومن ورائهم ملايين من المؤمنين المخلصين.

أما اليوم فإن الإسلام يهاجم من أعدائه - ومما يروع القلب ويدمي الضمير ألا نجد من يقف دونه - يرد بسلاح القوة، أو بسلاح الفكر والحجة - نعم قد نكثر من الحديث

والضجيج، ومن الصراخ والعويل، ونغلب العواطف، ونخضع للانفعالات فنفقد التوازن - اليوم يهاجم الإسلام حتى من بعض أبنائه - إن تصرفاتهم تدفع المسلمين بالتخلف، وتثير حولهم وحول عقيدتهم التساؤل والتعجب، وهذا أقسى ما يتعرض له دين من محن.

إن القضية خطيرة، ومن الواجب أن يعتمد موقفنا على عقل مستنير، وفكر متزن، يجب أن ندرس حركات أعدائنا، ونحلل أساليب تفكيرهم وتنفيذهم - ولنقابل التخطيط بمثله، ولنصدر فى عملنا عن فكر متحرر، وعقل مستنير.

أعداء الإسلام يهاجمون الإسلام من طريقين :

طريق الفكر - وطريق القوة.

أما طريق الفكر فمتنوع مختلف :

هذه كتب كثيرة تؤلف وتطبع وتنشر وتوزع فى كل مكان

وهذه أفلام سينمائية وتلفزيونية تعد وتوزع وتصل إلى كل بيت .

وهذه مقالات ترسم خطوطها، ثم تذاع على أمواج الأثير لتصل إلى كل سمع وبكل لغة.

وهذه صحف تنمق وتجمل وتملأ بالجنس لتخاطب المراهقين من شباب العرب ورجالهم، وكم بين الرجال من مراهقين .

وهؤلاء علماء ، ورجال فكر، وأحلاف فى دنيا الجريمة يجتمعون فيفكرون - أو يخطبون ويكتبون أو يسيحون ويبشرون - وكل ذلك تحت ستار من خدمة إنسانية، أو معونة طبية، أو رسالة اجتماعية.

تعددت أساليب الهجوم الفكرى ، والهدف واحد وهو الإسلام.

وأما طريق القوة والسلاح فميادينه واسعة متعددة، تشمل الكثير من أقطار الأرض وجوانب القارات، وانظروا معى إلى خريطة العالم الإسلامى لتروا كيف تدور المعارك، وكيف تشترك الصهيونية العالمية فى كل معركة بذكاء ودهاء. ونحن على النقيض - نتفرج وكأن الأمر لا يعنينا، أو نبكى وكأن الأمر قد خرج من أيدينا.

وبعد ...

فماذا نحن فاعلون ؟

إذا بقينا على جمودنا وسلبيتنا، ووقفنا فى موقف المتفرج كنا أتعس جيل فى تاريخ الإسلام - وحقت علينا لعنة الأجداد من قبلنا، ولعنة الأحفاد من بعدنا.

علينا أن نحمل السلاح - **سلاح الفكر**، **وسلاح القوة** - علينا أن نقف فى وجه الصهيونية الفاجرة وقفة مؤمنة نفوز بعدها بإحدى الحسنيين، النصر أو الموت.

ولنثق بالله وبديننا - فقد مضت إرادته القادرة أن يبقى هذا الدين - وسيبقى - سيبقى لأنه من نور الله، والله باق، ونوره باق.

﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره، ولو كره الكافرون** ﴾ «سورة الصف آيه ٨».

فاللهم إنا نسألك أن تنصر الإسلام وتعز المسلمين

وأقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

الإسلام والمعرفة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الصادق الأمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد..

فإن الحياة - فى مدلولها اللغوى، وواقعها المادى - حركة ونمو وتطور. هكذا أرادها الله فكانت، ثم مضت فى طريقها لا تقف ولا تسكن.

والإنسان فى هذه الحياة هو مصدر الحركة - وقف فى بداية الأمر مع غيره من الكائنات عند نقطة الوجود - مجرد الوجود، وتساوى معها فى التجمع والتكاثر وفى التصرف بحكم الغريزة والفطرة - ولكن الله أرادله التفوق، فمنحه العقل والقلب، وهداه إلى التفكير والإحساس - والذى لا شك فيه، أن الله سبحانه وتعالى أعد الإنسان - إعدادا يميزه على سائر المخلوقات حين وهب له عقلا يفكر وقلبا يحس ويشعر وينفعل. وعلى ضوء من تفكيره وأحاسيسه عرف الضار من النافع، والحسن من القبيح، والخير من الشر - عرف الفضيلة والرذيلة، واستحق السيادة فى الأرض، وتوارث الخلافة فيها منذ كانت إلى حيث يشاء الله.

﴿ **وإذ قال ربك للملائكة ، إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك - لا علم لنا إلا ما علمتنا - إنك أنت العليم الحكيم** ﴾«سورة البقرة الآيات ٣٠، ٣١، ٣٢»

ظن الملائكة أن العبادة والطاعة والطهارة هى أساس التفضيل والتمييز، وتمنوا على الله أن يسكنهم فى الأرض لأنهم يسبحون بحمده، ويقدسون له - لكن الله جلت حكمته بيّن لهم أن المعرفة هى سر التفضيل، وأن العلم هو مصدر التقويم، وأنه اختار الإنسان خليفة فى الأرض لأنه منحه العلم والمعرفة - وأوقف الملائكة على جوهر الموضوع بطريقة عملية - فعلم آدم، ثم جمع الملائكة، وسألهم عن الأسماء والمعانى، فقالوا : ﴿ **سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا** ﴾«سورة البقرة آيه ٣٢» وكانت الحجة القاطعة : ﴿ **قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم - إنى أعلم غيب السموات**

والأرض، **وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون**﴾«سورة البقرة آيه ٣٣» وبهذا وضعت المعرفة فى موضعها الصحيح.

هذا التصوير الذى قدمه الكتاب الحكيم يعطينا كثيرا من الحقائق والمفاهيم :

وأول هذه الحقائق - أن المعرفة هى ميزة الإنسان الكبرى، وأن الله منحه هذه الفضيلة ليعرف الخير من الشر، وليميز الخبيث من الطيب، وليعبد الله سبحانه على أساس من الإدراك السليم - فمن وقف من الناس على باب المعرفة، واكتفى من حياته بطعام وشراب ولباس - فقد حكم على نفسه بالجهل، ورضى لها بالهوان، وظل فى دائرة الأنعام - وكان كما قال الله : ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها - ولهم آذان لا يسمعون بها - أولئك كالأنعام - بل هم أضل - أولئك هم الغافلون**﴾«سورة الأعراف آيه ١٧٩»

وثانى الحقائق - أن ميزة الإنسان لم تقف عند مجرد القدرة على المعرفة - بل أخذ المعرفة وطورها، ومضت معه - تنتقل من جيل إلى جيل - وكل جيل يضيف إليها جديدا، ويحذف منها قديما، فأصبحت المعرفة ميراثا يأخذه الأبناء عن الآباء، ويقدمه السابقون للاحقين، ووسيلة ذلك التعليم ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم**﴾«سورة العلق آيات ١ : ٥».

وثالث الحقائق - أن الله أراد للإنسان درجة عالية من المعرفة والعلم - وكان العقل الإنسانى أقل من أن يصل إلى نهايتها - فالعقل محدود، والفكر محصور، وملك الله لا حدود له، والعلم لا نهاية له - ولو ترك الإنسان وحده يضل.

من هنا كانت إرادة الله بتفوق بعض أفراد الجنس البشرى - الذين منحهم الله شفافية فى الروح، وقدرة نافذة فى التفكير، فكانوا روادا فى ميادين المعرفة - وحين اتسعت دروب العلم تنوع الأفذاذ من العلماء والمفكرين، وامتدت بحوثهم إلى كل جوانب المعرفة، وألوان الحياة المادية والروحية، وفى قمة هؤلاء كان الرسل والأنبياء، اصطفاهم الله ليحملوا رسالة السماء إلى الأرض، وينقلوا وحى الله إلى العباد، ويكملوا نقص العقل الإنسانى ﴿ **الله يصطفى من الملائكة رسلا، ومن الناس**﴾«سورة الحج آيه ٧٥». ﴿ **وما كان الله ليطلعكم على الغيب، ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء**﴾«سورة آل عمران آية ١٧٩»

ورابع الحقائق أن وحى الله نزل على مراحل تساير العقل الإنسانى فى نموه، وأن

الله بعث فى كل أمة رسولا منهم، ومعه شريعة تلائم معارف الناس ومداركهم ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة** ﴾«سورة النحل آيه ٣٦».

وفى الختام كانت رسالة محمد جامعة شاملة بعد أن اكتمل نمو العقل - وما كانت رسالته صلى الله عليه وسلم إلا امتدادا واكتمالا لما قبلها - وصدق الرسول «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد» وصدق الله : ﴿ **ثم أرسلنا رسلنا تترى** ﴾«سورة المؤمنون آيه ٤٤» - ﴿ **إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾«سورة فاطر آيه ٢٤» .﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله، وخاتم النبيين** ﴾«سورة الأحزاب آيه ٤٠».

بالإسلام اكتملت المعرفة، واكتملت رسالة السماء، وتمت نعمة الله على الناس، وهذه هى بداية المعرفة ودرجاتها، وصورة موجزة لنموها وتطورها.

ومن هذا المنطق فإن المؤمن مطالب بالبحث عن المعرفة وأنّى وجدها فهى ضالته يستفيد منها ويعمل بها بشرط ألا تتصادم أو تتعارض مع تعاليم دينه - حتى لو كانت هذه المعرفة وهذا التقدم العلمى لدى أناس غير مسلمين فلقد خلق الله الناس فى هذه الأرض ليتعارفوا ويتكاملوا - ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا...** ﴾ «سورة الحجرات آيه ١٣»

والقرآن الكريم دليل واضح على مدى حرص الإسلام على المعرفة، واهتمامه بالبحث والنظر - فهو دين عقيدة، لكنها عقيدة تقوم على الفكر والعلم. ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، لآيات لأولى الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك** ﴾ «سورة آل عمران الآيتان ١٩٠، ١٩١».

فالكون كله - بأرضه وسمائه، بره وبحره، ليله ونهاره، صبحه ومسائه - دعوة للبحث والتأمل والتفكير، والمسلم مطالب بأن يفكر فى الكون حيثما كان - فى عمله وسعيه، فى راحته وسكنه، فى طاعته وعبادته، قائما كان أو قاعدا، ساجدا كان أو رافعا - وبهذا يستجيب لدعوة الله. ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم - كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ،والأرض مددناها، وألقينا فيها رواسى، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، ونزلنا من السماء ماء مباركا، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد - رزقا للعباد، وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج** ﴾«سورة ق آيات من ٦ : ١١».

وليس المراد مجرد النظر، بل المراد تبصرة وذكرى - القرآن لا يريد رؤية العين، بل يريد رؤية القلب، ولا يكتفى بإدراك البصر، بل يقصد إلى إدراك البصيرة : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض، فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾«سورة الحج آيه ٤٦».

ولا يكتفى القرآن بالنظر مرة واحدة ، بل يريد إرجاع البصر، وإعادة التأمل حتى يعبد المؤمن ربه على معرفة، وحتى يبنى عقيدته على أساس من البحث والفهم : ﴿ **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير - الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا، وهو العزيز الغفور، الذى خلق سبع سموات طباقا، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر ، هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين، ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير** ﴾«سورة الملك الآيات ١ : ٤».

فإذا ما تأملنا هذه الآيات وأمثالها وجدنا نقاطا جديرة بالوقوف عندها، والتعرف إلى أسرارها : فالحديث فى هذه الآيات للناس جميعا، ولم تبدأ آية من هذه الآيات بتوجيه الخطاب إلى المؤمنين، وإنما وجه القرآن الكلام إلى الناس حتى ينتهى غير المؤمن إلى الإيمان، وليزداد الذين آمنو إيمانا - هذه واحدة .

والثانية : أن المؤمنين مدعوون جميعا إلى استعمال الفكر، وليس بينهم من اختارته السماء ليكون كاهنا يمنح الصكوك والعهود، لأنهم جميعا أمام الله سواء، وكونه وكتابه مفتوحان.

وثالث النقاط أن المعرفة الصحيحة تعطى المؤمن منزلة عليا بين المقربين - نعم، لا تفاضل فى أصل الدعوة إلى التفكير، ولا فى وسائل البحث - أما بعد التأمل والتدبر - فهناك تفاوت وتفاضل - من وصل بالفكر إلى المعرفة امتاز على من وقف على حدود التفكير وأبوابه، وعلى من فكر ولم يحصل على ثمرة.

﴿ **وما يستوى الأعمى والبصير - ولا الظلمات ولا النور** ﴾«سورة فاطر الآيتان ١٩ : ٢٠» ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾«سورة فاطر آيه ٢٨» ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، ذلك هو الفضل الكبير** ﴾«سورة فاطر آيه ٣٢»

ورابعة النقاط : أن التفكير هو التأمل والتدبر - أما المعرفة فشئ وراء ذلك المعرفة ثمرة الفكر، والعلم غاية التأمل - وحسب المتأمل جهلا أن يبدأ ولا يصل، وأن يزرع ولا يثمر،

وكفى بالمرء غفلة أن يفكر فلا يعرف، فيكون كالحمار يحمل أسفار الكتب ولا يفيد منها شيئا، والإسلام حين يدعو إلى التفكير، يريد تفكيرًا ينتهى بالعلم والمعرفة ، ثم لا يكتفى بالعلم والمعرفة، وإنما يريد تطبيقا للعلم والمعرفة يتناول سلوك المرء فى عبادته وعمله - فالأمر درجات - وسلم الحقائق يبدأ بالفكر وينتهى بالسلوك، ولا ينجح الفكر بدون معرفة، ولا تثمر المعرفة بدون عمل.

وخامس الحقائق : أن المعرفة فى الإسلام معرفة شاملة تتناول أمور الدنيا وأمور الآخرة، أمور العيش وأمور العبادة، والإسلام لا يكتفى بجانب واحد من جوانب الحياة - ونحن لا نوافق على ما ذهب إليه البعض من نبذهم البحث فى النظر إلى أمور الدنيا، واكتفائهم بالبحث فى أمور الدين - والرسول صلى الله عليه وسلم عاش رسولا وبشرا «إنما أنا بشر مثلكم، يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد».

ولا ينتهى أمامنا مجال البحث، ولكننا نقول :

الفكرة - ميزة للإنسان - ترتفع به عن مجال الحيوان، ودوافع الغرائز، والمعرفة ثمرة للفكرة - فمن فكر وعرف فقد أثمر زرعه.

لكن المعرفة وحدها ليست فضيلة، وإنما الفضيلة هى العمل القائم على معرفة، والعمل هو الحصاد لثمرة رواها التفكير والتأمل.

نسأل الله عز وجل أن ينصر دينه ويعلى كلمته ويخذل أعداءه وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

المعنى الإنسانى فى الإسلام

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ..

أيها الأخ الكريم ..

فى الإسلام كثير من المعانى الكريمة، بل فيه كل المعانى الكريمة، وهو رسالة الله إلى عباده، تَهدى الحائر، وترشد الضال، وتعطى الجماعة الإنسانية كلَّ ما تريد من ألوان الخير وأسباب الفلاح. والعالم اليوم يعيش فى صراع رهيب، فالمذاهب الفكرية تمزّق وَحدته، والمبادئ الاجتماعية تفرق كلمتَه الناس شيع وأحزاب، قد سادت بينهم شريعة الغاب، واشتعلت نيران الحروب، وتحولت حياتهم إلى محنة وعذاب .

لقد تغيرت حقائق التاريخ، وتبدلت معالم الخير، واسودت آفاق المستقبل، ومضى الناس يبحثون عن طريق للخلاص، ولاخلاص لهم من هذه المحنة إلا بالعودة إلى فطرة الخير التى طبعهم الله عليها، وفطرةُ الخير هى فطرة الإسلام.

الإسلام دين الإنسانية والمحبة – دين التعاون والأخوة – دين الأمان والسلام، لقد كانت دعوة محمد دعوة سلام مع الناس، وصفاء مع النفس، ورجوع إلى الله، فيها من رحابة الأفق، وكرامة الإنسان مالا يوجد فى غيرها على امتداد الزمان وكثرة الأديان.

وأول ما نعرفه عن الإسلام أنه دعوة عامة شاملة – فمحمد ليس رسولَ شعب مختار، ولا هو نبِّى أمة ممتازة، إنما محمد رسولُ الله للناس جميعا، ورسالتهُ لا ترتبط بجنس أو لون، ولا تتقيد بلغة أو إقليمية، قال تعالى : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾ سورة الفرقان آية ١ – وقال تعالى : ﴿ **وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيدا** ﴾سورة النساء آية ٧٩ – وقال عزّ من قائل : ﴿ **قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا . الذى له ملك السموات والأرض** ﴾ سورة الأعراف آية ١٥٨.

ونحن نقلل من عموم الدعوة المحمدية حين نقف بها عند حدود الناس، لأن محمدا رسولٌ للإنس وللجن، وصدق الله : ﴿ **قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا**

قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ سورة الجن آيتان ١ : ٢.

وأصحاب محمد صلوات الله وسلامه عليه كانوا مجموعة من كل أجناس البشر، فيهم العربى القرشى، وفيهم صهيب الرومى، وسلمان الفارسى، وبلال الحبشى، أليس من العجيب أن نجد كل واحد من هؤلاء الأصحاب قد غلبت عليه صفته حتى ليكاد يُعرف بها قبل أن يعرف باسمه؟ إنه المعنى الإنسانى الكبير فى رسالة محمد.

إن الإسلام يقوم على فكرة الوَحدة فى مظهرين : وَحْدة الخلق - وَوَحْدة الخالق : أما وَحدة الخلق فقد تقررت فى تعاليم الإسلام بصورة واضحة، والله سبحانه يقول : ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا** ﴾سورة يونس آية ١٩ - ويقول : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ سورة الحجرات آية ١٣ - والرسول الأمين يقول «إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمَها بالأباء، كلكم لآدم، وآدم من تراب».

وتحقيقا لمبدأ الإنسانية الكبير اعترف الإسلامُ بالأديان السابقة ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده** ﴾ سورة النساء آية ١٦٣ - ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾سورة آل عمران ١٤٤ - وإيمان المسلم لا يكمل إلا إذا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، لانفرق بين أحد من رسله** ﴾سورة البقرة آية ٢٨٥.

وأما وَحدة الخالق فيقررها الإسلام بجلاء ووضوح ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾سورة آل عمران آية ٢ - ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ سورة البقرة آية ١٦٣ - ﴿ **ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه - وهو على كل شيء وكيل** ﴾ سورة الأنعام آية ١٠٢ - ﴿ **قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ سورة الإخلاص.

بهذه النظرة الشاملة الراحمة جاء الإسلام : لا يؤمن بعصبية، ولا يعترف بجنسيّة. ولا رضى بنزاع أو شقاق - الإنسانية فيه أسرة واحدة، أصلها رجل واحد وامرأة واحدة، وغايتها تقديس إله واحد - والحياة بهذا التصور، وفى ظلال هذا الدين ليست حياة صراع بين الأجناس أو الشعوب أو الطبقات - وإنما هى حياة التعارف والتعاون على الخير. يقول الله تعالى : ﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا، إنى بما تعملون عليم، وإن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون** ﴾ سورة المؤمنون آية ٥١ :٥٢.

تأمل يا أخى المسلم فى هذا القول الحكيم تجد ثلاثة أمور :

أولهـــا : أن الله وجّه الخطاب للرسل جميعا، ودعاهم إلى أكل الطيبات، وعمل الصالحات، وبهذا جمعهم على فكرة واحدة برغم الزمان والمكان، وهى فكرة الوحدة الإنسانية.

وثانيها : أن الله يقول : ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة** ﴾ سورة المؤمنون آية ٥٢ - ومعنى ذلك . أن دينكم يا معشر الأنبياء واحد ، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده.

وثالثها : هذا الختام الجامع الرائع للكلام ﴿ **وأنا ربكم فاتقون** ﴾ - فإذا كان الدين واحدا فإن الله واحد، وهو رب للجميع، وهذا هو المعنى الذى نكرره كل يوم عشرات المرات فى صلاتنا حين نقول ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ سورة الفاتحة آية ٢ .

وبعد . فهذا جانب واحد من جوانب المعنى الإنسانى فى الإسلام، غفل عنه المسلمون، فتفرقت الكلمة، وتصارعت المذاهب، وضلت بهم الطريق، فهل من عودة إلى الدين الحق، دين الأخوة والأمان - دين الإنسانية كلها؟

هل من عودة إلى الإسلام؟

﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ سورة آل عمران آية ١٩ .

فاللهم إنا نسألك أن تردنا إلى دينك رداً جميلاً .

اللهم آمين.

الإسلام دين الفطرة

الحمد لله شرع الدين هداية للمؤمنين ووفق من شاء للتمسك به والتحلى بآدابه فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم.

وأشهد أن لا إله إلا الله كتب رحمته للمتقين وأنعم علينا بنعمة الإسلام وأرسل نبيه محمداً هدى ورحمة، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله بعثه ربه بدين الحق ليظهره على الدين كله ولينقذ به البشر من الضلالة والفوضى ويهديهم إلى الخير والبر وكل ما يحقق لهم السعادة فى الدنيا والفوز فى الآخرة.

اللهم صل وسلم وبارك على نبى الهدى والرحمة وعلى آله وأصحابه والعاملين بشريعته إلى يوم الدين.

أما بعد : فقد قال الله تعالى : «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

أيها المسلمون :

ما أجمل الإسلام، وما أروع تعاليم محمد، وما أقربها إلى القلوب.

إنها لتسرى فى النفوس البشرية كما يسرى الماء العذب فى النبتة الذابلة طال اشتياقها إليها، فتنبض بالحركة، وتهتز بأسرار الحياة، وتصبح - بعد الجفاف - ناضرة زاهية نامية.

ما أحب الإسلام إلى القلوب، وما أقربه إلى الطبيعة الإنسانية، إنه ليخالطها ببشاشة، ويمازجها فى رفق، ويلامسها فى ود وحب وأناة وتعاطف - يعالج عيبها، ويستر ضعفها، ويبرز خيرها وفضلها، ويريق عليها نعمة الطهر والصفاء.

هكذا كان الإسلام يوم أشرقت أنواره، وهكذا مضى ينتشر فى ربوع الدنيا منبثقا من مهبط الوحى ، طائفا بأرجاء المعمورة فى دورة تمتد وتتسع حتى شملت كل جوانب الأرض، لقد طال انتظار الناس وتطلعهم، ادهم الظلم فانتظروا العدل، وحطمهم الطغيان فتمنوا الرحمة، وفرقتهم الطبقية فتاقوا إلى المساواة - طالت حيرتهم، وتكاثفت الظلمات عليهم، فلما سطعت أنواره تفتحت له القلوب فملأها بالأنس والأمان والاطمئنان.

إن الإسلام جزء من تكوين الإنسان، يتطلبه ضميره، ويحتاج إليه قلبه، ويبحث عنه عقله إنه الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وما انصرف عنه أحد إلا لظروف البيئة، أو تعاليم الأبوين، أو ضغط المجتمع وعاداته ومثله.

هذه حقيقة أكدتها رحلة الإسلام السريعة يوم انتشر فى الدنيا من حدود الصين إلى المحيط الأطلسى يوم لم تكن الدنيا تعرف وراء ذلك بلادا أو حدودا - ولم تعرف البشرية عقيدة سرت فى أرجاء الكون بمثل هذه البساطة، وبمثل هذا العمق، وبمثل هذا الشمول، وبمثل هذه السرعة.

دخل بلادا لا تعرفه فاستجابت له، ودخل بلاده أعداء يحاربونه فخضعوا له، وسبحان الله كانت له السيادة يوم غزا وحرر وهدى، ويوم غُزِىَ فدافع وحرر وهدى. وكان له النصر فى الحالين : حال زحفه إلى بلاد جديدة، وحال زحف غيره إلى بلاده. ذلك لأن الإسلام فى كل أوقاته كان قريبا من كل نفس، واضحا لكل نظر، مألوفا لكل وجدان، مقنعا لكل تفكير.

لم يسيطر بالسيف والقوة كما ادعى الكاذبون المفترون.

ولم ينتشر بالإغراء الحسى والنعيم المادى كما زعم المستشرقون.

إنما انتشر لأنه دين الفطرة، دين الحق والعدالة، دين المساواة والكرامة، دين السماحة والطهارة، دين الإخاء واحترام الحقوق، دين الفرد والجماعة، دين الحقيقة الواضحة.

ونريد أن نقف اليوم عند معنى الفطرة، ونعود إلى ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه - كما تنتجون البهيمة - هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا تجدعونها».

فالإنسان بطبيعته وفطرته مسلم، وما يطرأ عليه من تهويد أو تنصير أو أى اعتقاد آخر إنما هو صفة عارضة مصدرها الأبوان، أو تعاليم المجتمع وتقاليده، أو ظروف البيئة ومثلها، ولهذا يرى الإسلام أن أطفال غير المسلمين لا يعذبون يوم القيامة، ولا يسرى عليهم تكليف يتبعه ثواب أو عقاب إلا بعد أن يبلغوا سن الرشد، فهم مسلمون بهذا المعنى مسلمون بفطرتهم وبطبيعة تكوينهم التى خلقهم الله عليها - ولنزيد هذه الفكرة وضوحا نقول : إن معنى إسلامهم أنهم لو تركوا لطبيعتهم واستعدادهم الفطرى لعرفوا الخير والشر، ولميزوا الحلال من الحرام، ولأدركوا معنى الوحدانية وسر الألوهية إلى غير ذلك من مبادئ الإسلام الواضحة.

ما معنى الفطرة ؟

معناها الطبيعة التى خلق الله الناس عليها، معناها أن كل إنسان بما أعد الله فيه من دوافع الخير، وضوابط العقل يتجه إلى مبادئ عقيدية وخُلُقّية لا تختلف عن مبادئ الإسلام، ولو أن الجماعات البشرية سلِمَت من التبشير والتزييف، ونجت من ضغط

الآباء أو فلسفات المجتمعات لعاشت فى حدود فطرتها السليمة التى فطر الله الناس عليها - فطرة التوحيد ، وتقديس الذات الإلهية، فطرة التآخى والتساند - فطرة الاتجاه إلى خالق الكون وحده بالعبادة.

لقد أعلن اللورد هيدلى أحد سادة المجتمع الإنجليزى إسلامه فى بداية القرن العشرين، وقال : «إن اقتناعى بالإسلام كان نتيجة لدراسة طويلة، ولم تبدأ مناقشاتى مع المثقفين من المسلمين إلا منذ أسابيع قليلة، وكم كان اغتباطى وانشراح صدرى عندما وجدت أن نظرياتى فى مقدماتها ونتائجها كانت تتفق تماما مع تعاليم الإسلام» فهو لم يسلم أولا، ثم يتجه إلى معرفة تعاليم الإسلام ومبادئه، بل درس، واستجاب لفطرته الإنسانية الصادقة، ثم عرف أن هذا الذى وصل إليه هو الإسلام فأعلن عن نفسه، وإننى لأتساءل معه : هل سمع أحد برجل مسلم انحدر من إيمانه إلى الإلحاد؟ إن المسلم الحقيقى لا يمكن أن يترك دينه تحت أية رغبة أو رهبة حتى لو أعطى ملك الدنيا ونعيمها، وحتى لو قطعت أطرافه جزءا جزءا لا لشئ إلا لأن هذا الدين هو حقيقة نفسه وفطرتها.

ومنذ الزمن البعيد اهتدى البدوى فى صحرائه إلى الإسلام بفطرته - لقد قال : «البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير - فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج كيف لا تدلان على اللطيف الخبير؟» ما الذى جمع بين البدوى فى صحرائه منذ أربعة عشر قرنا، وبين شريف المجتمع الإنجليزى فى القرن العشرين؟ جمعت بينهما الفطرة التى لا تفرق بين إنسان وإنسان، والتى دفعت جموع الناس فى مجاهل آسيا وأفريقية إلى اعتناق الإسلام لا لأن بريق الذهب أغراهم، ولا لأن سلطان السيف أرهبهم، ولا لأن المبشرين فى ثياب الزيف خدعوهم، بل لأن الإسلام هو طبيعتهم وفطرتهم - التقى مع نفوسهم، والتصقت تعاليمه بأحاسيسهم، وخالطت بشاشته وسماحته قلوبهم فكانت الهداية، كانت الحقيقة التى يصرخ بها الإنسان عندما تفاجئه صدمة، أو يصيبه الضر، إنه لا يجد أمامه إلا الله القوى القاهر - يؤمن بذاته وبعظمته، ويلجأ إليه فى ساعات المحن مهما كان من الملحدين - هذا اللجوءإلى الله وحده فى وقت المحن هو الصدق الإنسانى، هو الفطرة السليمة، هو تعاليم الإسلام، هو الهداية، وصدق الله العظيم إذ يقول﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾ «سورة الأنعام آيه ١٢٥»

وصدق رب العالمين ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ «سورة آل عمران آيه ١٩»

نداء الفطرة :

ولعل أروع ما فى الإسلام أنه دين واضح صادق، قريب من النفوس، يساير الفطرة البشرية، ويلتقى مع الطبيعة الخيرة فى الإنسان، ويعالج فى رفق ما تصاب به الفطرة من انحراف، أو تتعرض له من إغراء وإغواء.

ومشكلة الإسلام الحقيقية فى أهله، فهم لا يعرفونه كما يجب أن يُعرف، ومن عرفه منهم اكتفى بهذه المعرفة، ونسى أنه مطالب بعرضه على الناس.

ولو أن الإسلام عُرض على الناس فى صورته الصحيحة، الخالية من الخرافات والأساطير، البعيدة عن الزيف والخداع، لو عرض بهذه الصورة لا ستجابت له النفوس، ولا نتشرت تعاليمه فى أنحاء الكون.

ومحمد صلوات الله وسلامه عليه لم يفعل غير هذا - عرض الإسلام على الناس فى بساطة ووضوح وصدق، ولم يجعل من تعاليمه أسرارا أو طلاسم، ولم يُخف شيئا من مبادئه وحقائقه، بل قدمه إلى الناس - مشرقا كضوء الصبح، طاهرا كندى الفجر، نقيا باهرا كشعاع الشمس، فالتقى مع الفطرة السليمة فى النفوس، واستجاب له الناس بدافع من رغبتهم فى الخير، ومن مشاعرهم النبيلة التى أودعها الله فى جوانحهم.

ومضى الزمن، ودخل الناس فى دين الله أفواجا، وفى كل يوم نقرأ أخبار بعض الناس الذين اعتنقوا الإسلام بدافع من الوجدان الصادق، واستجابة لنداء الفطرة السليمة التى لا تخلو منها نفس بشرية، لم يحملهم على الإسلام سلطان من مادة أو قوة أو جاه، ولم يجبرهم عليه إغراء من مادة أو جنس - مما يلجأ إليه كثير من دعاة المذاهب المختلفة - عادوا إلى فطرتهم التى فطرهم الله عليها، لا تبديل لخلق الله.

هذه فتاة إيطالية تعمل فى دنيا السينما عملا تستغل فيه جسمها وفنها فهى ممثلة إغراء تمتهن الجسم البشرى فى سبيل المال والمجد الزائف، وساقتها الأقدار إلى قرية من قرى الريف المصرى، ودفعها حب الفضول إلى التنقل فى جوانب القرية حتى وقفت ذات يوم على باب مسجد صغير بسيط فى بنائه وفراشه، وراعها (كما تحدثت فيما بعد) راعها أن الناس يقبلون على هذا المسجد فى سكينة ووقار، ويؤدون صلواتهم فى أمان وهدوء، ويتصلون بخالقهم دون وسيط أو رقيب - حركاتهم وادعة، وقسماتهم منيرة، والفروق بينهم زائلة، وأصبح من عادتها كل يوم أن تذهب إلى هذا المكان، وتقف ساعات طويلة تتأمل وتفكر، ثم رأت مساجد أخرى، وسمعت كلمات تتلى، وسألت عن الإسلام، والتقت ببعض رجاله، ودفعتها عاطفة جارفة نحو القراءة، فقرأت وقرأت، ثم

درست شيئا من أصول هذا الدين وتعاليمه، وأخيرا استجابت للنداء - نداء الفطرة النقية الصافية.

وهذا رجل من رجال الأعمال - ترك بلاده الأصلية فى أمريكا الجنوبية، وحملته ظروف الحياة إلى نيويورك، وهناك بدأ يدرس الأديان المختلفة على يد أستاذ يهودى، وتعجب لأن هذا الأستاذ يكلمه عن الأديان كلها إلا الإسلام - فسأله ذات يوم؟ وماذا عن الإسلام؟ قال اليهودى : ذاك دين لا يستحق الدراسة. وتحركت عوامل الشك فى قلب الرجل، ودفعه نوع من التحدى إلى البحث، وكان أن بدأ يدرس الإسلام دراسة عميقة، وهناك فى مسجد نيويورك التقى بإمامه المسلم الذى راح يحدثه عن الإسلام فى رفق وصدق ووضوح، ويقدم له الكتب الدينية، واستجابت نفسه الطيبة إلى التعاليم النقية الصافية، ومن بعده أسلمت زوجه، ورزقا بصغيرين مسلمين فاختار لهما اسمى «هاجر ومصطفى» وتكونت أسرة مسلمة حملت رحالها إلى مصر - والزوجان الآن فى الأزهر الشريف، يزدادان معرفة بالإسلام، ويعلمان الإنجليزية لأبناء الأزهر - الزوج يعلم الفتيان، والزوجة تعلم البنات، وفى الوقت نفسه يترجمان بعض الكتب الإسلامية إلى الإنجليزية حتى تكون سلاحهما فيما يعتزمان الإقدام عليه.

إن الأسرة المسلمة تعد الآن عدتها للرحيل نحو الغرب، نحو أمريكا الجنوبية، لتقيم هناك مسجدا، ومكتبة إسلامية، ولتضع فى الأرض البعيدة بذور الحق والخير، ألا ليت المسلمين عرفوا دينهم، ألا ليت المسلمين عرضوا هذا الدين على غيرهم، ألا ليتنا غرسنا بذور الدعوة فى كل بقاع الأرض حتى تتحقق للناس حياة الأمن والكرامة. إننا لو فعلنا ذلك لا ستجابت لنا الفطرة السليمة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا من بعدى كتاب الله وسنتى».

فاتقوا الله عباد الله واسألوه سبحانه العون على طاعته وشكره وتوبوا إليه لعله يرحمكم وصلِّ اللهم على نبينا الصادق الحبيب وعلى آله وصحبه.

جوهر الفطرة فى الإسلام

الحمد لله ، إذا أراد بأمة خيراً وفَّقها للتمسك بدينها والمحافظة على كيانها، والصلاة والسلام على نبينا وهادينا محمد جاء بعقيدة التوحيد والتنزيه، وأمر بالطاعة وحث على التحلى بأخلاق الإسلام العالية، اللهم صل على هادينا محمد وعلى آله وأصحابه الذين اقتدوا به فأحيوا دينه ونشروا شريعته الغراء.

أما بعد فيأيها المسلمون....

لقد جاء فى القرآن الكريم كثير من الآيات التى تتحدث عن الفطرة، والتى توجه المسلمين إلى التمسك بها، والبعد عن سبل الضلال ومعالم الزلل.

والقرآن الكريم حين يدعونا إلى الفطرة إنما يقصد الفطرة السليمة الصادقة، وهو بهذا لا يطالبنا بشئ صعب أو مرهق لنا. إنه يدعونا إلى طبيعتنا، إلى شئ فى تكويننا. وما أسهل أن يرجع الإنسان إلى أصله، ومصدر الشعور والإحساس والفهم عنده، إنك حين تخرج على قوانين الكون ونظم الحياة تكلف نفسك شططا. وتطالبها بأمر عسير. أما حين تتجه معها إلى ما تريد من معالم الخير فإنك تكون قد زودتها بزاد طالما اشتاقت إليه، وأمددتها بغذاء طالما بحثت عنه، والله قد فطر النفس البشرية على الخير والهدى والحق، ولست أريد هنا أن أذكر قول المربى الكبير (جون لوك) «إن نفس الطفل صفحة بيضاء، وإن المربى يستطيع أن يخط فيها ما يشاء»، ولا أريد أن أستشهد بما ذهب إليه الفيلسوف الغربى (روسو) عن طبيعة الخير فى الإنسان، والتى أثبتها فى كتابه الخالد (إميل) - ذلك لأن سندى هنا أعظم بكثير من كل ما يقوله جميع الفلاسفة والمفكرين.

تأمل يا أخى المسلم قول الله تبارك وتعالى ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرة الله التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم** ﴾ «سورة الروم آيه ٣٠»

هذه الآيات من سورة الروم قد سبقت بآيات كريمة تتناول أساسا من أسس العقيدة الإسلامية.

لقد بدأ الله الحديث عن قدرته وعظمته، ودعا الناس إلى تسبيحه وتمجيده فى كل وقت : فقال : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد فى السموات والأرض، وعشيا وحين تظهرون - يخرج الحى من الميت، ويخرج الميت من الحى، ويحى الأرض بعد موتها، وكذلك تخرجون** ﴾ «سورة الروم آيات ١٧، ١٨، ١٩ » فهو يطالب بالعبادة الحقة، ويدعم هذه المطالبة بدلائل العظمة والربوبية، ثم يستمر فى تقديم البراهين على عظمته ووحدانيته وجلاله فقال سبحانه : ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض** ﴾ وكذلك ﴿ **ومن آياته منامكم بالليل والنهار** ﴾، وقوله ﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره...** ﴾ «سورة الروم آيه ٢٥» جولة هائلة فى رحاب الكون الفسيح، جولة تفتح القلب وتدفعه إلى التدبر والتأمل، وترتد بالإنسان إلى ماركّب فيه من فطرة تبحث عن التأمل والتدبر، بعد هذا يأتى التوجيه الكريم «فأقم وجهك للدين حنيفا» لقد تشوقت النفوس إلى التأمل، لقد تهيأت إلى ما طبعت عليه من بحث، لقد حركت الآيات السابقة فيها أسرار فطرتها الخيرة، فلا عجب أن يتبع ذلك توجيه كريم نحو الاتجاه إلى الدين الحنيف - أىُّ دين هذا؟ إن الله تعالى لم يحدده باسمه، لم يقل - فأقم وجهك لدين الإسلام حنيفا - لأنه فى مقام يتضح فيه المقصود وهل هناك دين غير الإسلام يتجه إليه الرسول والمسلمون؟ إن الله جل وعلا يطلب من محمد أن يتجه إليه مستقيما لأنه دين الفطرة وبهذا ربط القرآن الكريم بين أمرين «فطرة النفس البشرية - وطبيعة هذا الدين الإسلامى» كلاهما من صنع الله، وكلاهما يتفق مع قوانين الحياة، وكلاهما يتناسق مع الآخر فى جوهره ومظاهره واتجاهاته - إن الله تعالى هو الذى خلق القلب البشرى، وفطره فطرة معينة، وهو الذى أنزل هذا الدين ليحكم تصرفات هذا القلب، ولينظم نزعاته، ويوجه رغباته، وإذا كانت الفطرة ثابتة فإن الإسلام أيضا ثابت، وإذا كانت قوانين الدين حكيمة فإن فطرة هذا القلب حكيمة، وقابلة لفهم حكمة الدين ومسايرتها - ولو أن الله تعالى خلق الأمرين متضادين، وجعل الفطرة البشرية ذات خصائص تختلف عن مبادئ الإسلام لكان فى تكليف البشر ما يناقض فطرتهم عبث، - تعالى الله عز وجل عن العبث علواً كبيراً.. ولهذا يقول تعالى بعد ذلك ﴿ **لا تبديل لخلق الله** ﴾ «سورة الروم آيه ٣٠» فالفطرة ثابتة، والدين ثابت ولو أن عبدا انحرف عن فطرته لكان هذا الدين وسيلة

تقويمه، ولو أن فطرة ما أصيبت بالمرض لكان فى هذا الدين الشفاء. هكذا أراد الله.

وجملة ما يقال فى هذا المجال أن الإسلام لم يأت بأية فكرة أو مبدأ يختلف مع نظم الكون وقوانين الحياة ولم يكلف الإنسان أمرا يناقض خصائصه البشرية، وهو أكمل ما يقال عن التقاء الدين والفطرة.

ثم تعالَ معى إلى سورة (يس)، واقرأ قصة المؤمن الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ﴿ **قال يا قوم اتبعوا المرسلين - اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون - ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون** ﴾ «سورة يس الآيات ٢٠، ٢١، ٢٢» لقد كانت استجابة هذا المؤمن هى استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق - استجابة لما فيها من وضوح وبساطة واستقامة ومسايرة لقوانين الحياة إنه حين يسأل «ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون؟» يصدر عن الطبع السليم - والفطرة الإنسانية مرتبطة بمصدر وجودها، مرتبطة بالله تبارك وتعالى، تقصد إليه فى كل لحظة من لحظات حياتها، وإنما يظهر ذلك فى وقت الشدائد، فالإنسان حين يحس بالكرب، وحين تضيق به الدنيا، وحين يعجز عن التصرف فى موقف يائس لا يملك إلا أن يقول : (يارب) - إنه يرسلها من قلبه ضارعة، خاشعة مستغيثة، عابدة - يقولها حتى ولو عاش طول حياته فى الفساد، يقولها حتى ولو كان ممن يفتخرون بالإلحاد - (يارب) يقولها البَرّ والفاجر والمؤمن والكافر، ذلك لأن فطرة الإنسان متصلة بخالقها - شاعرة بالحاجة إليه، راجعة إلى مبدعها - تأمل كيف ختمت الآية الكريمة بهذا التعبير «وإليه ترجعون» بالروعة البلاغة فى القرآن، وبالعظمة ما فيه من أسرار «الذى فطرنى» ثم وماذا بعد؟ ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ - فالله هو المصدر، وهو المرجع، هو المنبع، وهو الغاية، هو الأول وهو الآخر.

ثم انتقل يا أخى المسلم معى إلى إبراهيم عليه السلام وهو يخاطب أباه وقومه : ﴿ **إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين، وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون** ﴾ «سورة الزخرف الآيات ٢٦، ٢٧، ٢٨» فإبراهيم تبرأ من الأوثان وعبادتها مع أنها دين آبائه وقومه فلماذا خرج على إجماعهم؟

الآية واضحة - فالفطرة السليمة هى مصدر ثورته على الأصنام - إن الذى فطرنى

وسوانى، وجعل فى طبيعتى معرفة الخير والشر هو الذى هدانى، وهو الذى سيهدين - لم يكن هناك من بشر تعلّم عنه إبراهيم، وإنما كانت الفطرة، والفطرة وحدها - فالله فاطره، والله هاديه، ومعرفته بالله وحده، واعتماده على الله وحده، هى الكلمة الباقية فى ذرية إبراهيم إلى اليوم، باقية فى عقبه، يرددونها فى كل مجال وبكل لسان، لأنهم يعرفون أنها كلمة الحق - كلمة الله الذى يرجعون إليه - إنها كلمة «التوحيد» جوهر الفطرة كما وضحها القرآن الكريم.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**الله لا إله إلا هو الحى القيوم**﴾ «سورة آل عمران آيه ٢»

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**قل هو الله أحد - الله الصمد - لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد**﴾ «سورة الإخلاص الآيات ١، ٢، ٣، ٤»

يقول الهادى الحبيب : «لقد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك.

اللهم اهدنا صراطك المستقيم واتقوا الله وتوبوا إليه وسلوا الله العافية والمعافاة وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مظاهر الفطرة السليمة فى الإسلام

الحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له (ألا له الدين الخالص) وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خيرة خلقه وحبيبه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمة وجاهد فى الله حق الجهاد حتى أتاه اليقين.

أما بعد :

فيا عباد الله :

كلما طال حديثنا عن «الفطرة السليمة» ظهرت لنا معالمها القوية فى كتاب الله، وفى أحاديث رسوله الكريم.

الإسلام دين الفطرة - فأين نجد مظاهر هذه الفطرة فيما نعرفه من مبادئ ديننا الحنيف؟

إن أول مظاهر الفطرة : ما نراه فى تعاليم الإسلام من «بساطة وسهولة ويسر ووضوح» فالله تبارك وتعالى لا يكلف النفس البشرية فوق طاقتها «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت» وليس فى الإسلام طقوس ولا رموز ولا كهنوت، وليس فيه ما يخالف العقل البشرى «الحلال بيِّن والحرام بيِّن» «والدين يسر لا عسر» وليس فيه خروج على مألوف الطبيعة البشرية، فهو يقر الزواج والطلاق، وينظم البيع والشراء، ويطالب الناس بأن يمشوا فى مناكب الأرض سعيا وراء الرزق، لا يتصادم مع عقل، ولا يتناقض مع علم، ولا يخالف عن سنن الكون، هو قانون يمضى وفق الحياة، ولم يأت عصر يثبت فيه أنه ضد هذه الحياة - وهو لا يقبل الخرافات ولا الأساطير، ولا يقر الشعوذة ولا الدجل - وكل ما فيه من تكاليف واضح فى غايته وأهدافه - وأركانه غاية فى السلامة والكمال ، شهادة بوحدانية الله الذى خلق الكون وأبدعه، واعتراف برسالة عبده الذى حمل أمانة التبليغ - وصلاة يلتقى فيها العبد بخالقه فيدعوه ويستعينه ويستهديه - وزكاة تحقق وحدة المجتمع، وتلغى فوارق الطبقية. وتستلّ ضغائن القلوب - وصيام يهذب من جموح الرغبة، ويكسر من سيطرة القوة - وحج إلى بيت الله تلتقى فيه الجموع فتتآلف، وتتجمع الأجناس فتتعارف - وتصديق بيوم نرجع فيه إلى الله فيثيب من أطاع بفضله، ويعذب من عصى بعدله ، - وليس بعد ذلك شئ يطلبه الإسلام منا - والأعرابى حين سأل الرسول عن أمور دينه وقال : هل على

غيرها؟ وأجابه الرسول الأمين : (لا إلا أن تطّوّع) فقال الأعرابى : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص - قال الرسول : «أفلح إن صدق» فالفلاح مرتبط بأداء صورة العبادة فى أبسط مظاهرها.

وثانى مظاهر الفطرة فى الإسلام أنه دين **«مادة وروح».**

اعترف بالجسد المادى، وما يحتاج إليه من طعام وشراب ووسائل لحفظ النوع - بل نظّم هذه الحاجات، ووضع لها القوانين السليمة، ولم يفرض على هذا الجسد حرماناً أو إذلالا، وأباح الحــلال الطيب. ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده، والطيبات من الرزق؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** ﴾«سورة الأعراف آيه ٣٢» ونحن نعرف أنه لا رهبانية فى الإسلام، ورسولنا العظيم كان بشرا مثلنا بشهادة القرآن ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم** ﴾ «سورة الكهف آيه ١١٠» وهو لذلك يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق - والرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى قال لعبد الله بن عمرو بن العاص «ألم أخبر أنك تصوم ولا تفطر - وتصلى الليل؟ فلا تفعل - فإن لزوجك عليك حقا، ولزورك عليك حقا، ولبدنك عليك حقا - فصم وأفطر - وصلّ ونم».

وفى الوقت نفسه اعترف بما فى تكوين الإنسان من روح فياضة بالعواطف، متنوعة الأحاسيس - تحب وتبغض - وتأمل وتتألم - وترضى وتغضب - روح هى سر الحياة ومصدر القوة فى هذا الجسد المادى - ودعا المسلم إلى الارتفاع بهذه الروح وتهذيبها، وتخليصها من نزعات الفساد ونزغات الشيطان، واعترف بأنها قد تخضع فى بعض الأحيان لسيطرة لا تملك التخلص منها (اللهم هذا قسمى فيما أملك، فلا تلمنى فيما لا أملك».

والإسلام لم يكتف بمجرد الاعتراف بالمادة والروح، وبتنظيم مناهج السلوك لكل - بل جمع بين الناحيتين فى إطار واحد، ونظم العلاقة بينهما، وأقامها على أساس من «التعادل والتوازن» وهذا سر من أعظم أسرار النجاح فى الإسلام.

إن بعض الأديان دعت إلى روحانية مغالية، **فالمسيحية مثلا تعتمد على الجانب الروحى، وتنسى أساسا عظيما من أسس الحياة الإنسانية**، وبعض الفلسفات الروحية تدعو إلى تعذيب الجسد فى صور غير إنسانية سعيا منها وراء ما ترجوه من خلاص للروح، أو تكفير عن الخطأ. فهل وصلت إلى ما تريد؟ لا أظن.

والمادية الحديثة تهمل الروح تماما، وتبنى فلسفتها على أساس التنظيم الظاهرى

لتكوين المجتمع - عنيت بطلاء البيت. وزخرفة جدرانه، وارتفاع شرفاته وتركت الداخل خواء مظلما كئيبا - وهذا هو سر شقاء المجتمعات فى ظلال هذه الحضارة المادية - وأبسط ما يقال فيها أنها حضارة جافة، يابسة كجذع شجرة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار.

والاكتفاء بجانب واحد من جانبى الحياة مادى أو روحى اتجاه خاطئ - يفقد الحياة ما فيها من توازن - اتجاه يسير على قدم واحدة.

أرأيت يا أخى المسلم إلى كمال الإسلام حين سار على قدمين، وراعى الناحيتين، وأقام بينهما صلات من التساند والتعاطف والتوازن.

الإسلام يا أخى أمد الإنسان بما في الدين من تعاليم روحية تشبع وجدانه وقلبه.

وأمده بما فى الكون من مظاهر مادية تخدم جسمه - وكان بذلك دين الفطرة السليمة الصادقة.

وثالث ما فى الإسلام من مظاهر الفطرة السليمة اعترافه بالأديان السابقة، وبكل ما تكونه الجماعات البشرية من مثل نبيلة، فهو لم يأت ليهدم غيره بالحق وبالباطل - ولم يكن من أهدافه أن ينسف كل ما تعارفت عليه البشرية من صور الكمال الخلقى، أو التعاون الاجتماعى، وإنما جاء مؤيدا لما سبقه من حق قال الله تعالى ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه**﴾ «سورة المائدة آيه ٤٨» - وما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يبطل حقا، أو ينكر صالحا، أو يستقبح حسنا - لقد آمن بما جاءت به الرسل قبله «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، لانفرق بين أحد من رسله». وهذا هو الإيمان الكامل القائم على الحقائق السليمة حقائق الفطرة الإنسانية الصادقة.

والإسلام بعد ذلك دين الفطرة لأنه دين الفرد والجماعة، دين وضع تشريعا كاملا للحياة يصون إنسانية الإنسان وذاتيته، ويحقق للمجتمع كل عوامل الترابط والتساند والتكافل والإسلام دين الفطرة لأنه لم يترك شيئا من خصائص النفس البشرية إلا وكان له الرأى الفصل فيها وصدق الله العظيم حين قال: ﴿**ما فرطنا فى الكتاب من شئ**﴾ «سورة الأنعام آيه ٣٨»

وأقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

الفطرة والتوحيد

الحمد لله ،نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيرا ونذيراً بين يدى الساعة من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى نحمده سبحانه أن هدانا للإسلام وجعلنا من أهل التوحيد الخالص ومن أتباع نبيه الهادى محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ومن اقتدى به وعمل بسنته وسلم تسليماً كثيراً

أما بعد .. فيا أيها الموحدون

قلنا فى حديث سابق : إن إبراهيم عليه السلام اهتدى بفطرته الصادقة إلى العقيدة الصحيحة، وعرف كلمة الحق - عرف كلمة التوحيد - وجعلها كلمة باقية فى عقبه، يرددونها إلى يوم القيامة، ثم قرأنا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **قل هو الله أحد - الله الصمد - لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ «سورة الإخلاص».

واليوم نقول : إن فكرة التوحيد هى الأساس الأول فى العقيدة الإسلامية - وسورة الإخلاص توضح فى جلاء حقيقة هذه الفكرة فى مجالين كبيرين، مجال الوجود ومجال العقيدة والعبادة.

أما (وحدة الوجود) - فتقررها السورة تقريراً جازماً مباشراً، ونحن نعنى بها (وحدة الوجود الإلهى) - فالله واحد، متفرد بوحدانيته وذاتيته، ليس معه شريك، وليس كمثله شئ - ومعنى (الأحدية) المفهومة من كلمة (أحد) أعمق وأدق دلالة من معنى (الواحدية) التى تفهم من كلمة (واحد) - ولهذا قال الله تبارك وتعالى «قل هو الله أحد» ولم يقل «واحد» ، ومفهوم ذلك أنه موجود وحده وجودا قائما بذاته غير مرتكن على غيره وليس هناك وجود مستقل بغيره، لأن كل موجود يستمد من ذات الله سر وجوده، ولو انقطع عنه مدد القوة الإلهية لانتهى وجوده - كل مصباح يضىء يستمد ضوءه من مصدر للطاقة وكل كائن حى يستمد حياته من القدرة العليا - وكل فلك يتحرك، أو نجم يدور، أو كوكب يُنير كلها يخضع لتدبير وتقدير من عليم خبير.

أما الموجود الحقيقى، أما المصدر الأول للوجود، أما الذى يستمد وجوده من ذاته - فهو الله وحده، وهو الذى وصف نفسه ووجوده ووحدانيته فقال :

﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما فى السموات وما فى الأرض، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء - وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما - وهو العلى العظيم﴾ «سورة البقرة آيه ٢٥٥»

تأمل - أيها المسلم - هذه الآية - العظيمة فى مجالها - العميقة فى دلالتها - الواضحة فى تصويرها لوجود الله ووحدانيته - إنها تعدد صفات الخالق جل وعلا، وتعرضها فى سياق تقرير الحقيقة الكبرى - وحدة الله فى وجوده.

«الله لا إله إلا هو» إنها تبدأ بلفظ الجلالة **«الله»** ونجعله بداية كل شئ وبداية الوجود، ونقولها مستقلة واضحة فى نفسها، قاطعة فى دلالتها - كأنما يكفى أن تُذكر وحدها هكذا **«الله»** الذات العليا التى لا نستطيع تصورها - بل ولا يليق بنا أن نحاول البحث فيها، ولقد قال الرسول الكريم «تفكروا فى آلاء الله، ولا تفكروا فى ذاته، فإنكم إن تفكرتم فى ذاته ضللتم» «لا إله إلا هو» هذه الذات ليس معها ذات أخرى تتصف بصفاتها، فهى وحدها ذات الوجود الحق، وكل ماينافى هذه الحقيقة كذب وبهتان : فلا أبوة ولا بنوة - ولا سند ولاعون، ولا شريك ولا منافس - وهو لا يتجلى فى مخلوق بذاته حتى يضفى عليه صفة خاصة، وإنما يتجلى بقدرته فى كل شئ، وبدون حدود أو قيود.

وهكذا جاءت هذه الكلمات ساطعة واضحة باترة لتنفى كل تصور مخالف، أو تأويل مزيف : جاءت لتنفى ما يقوله بعض الناس «مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» ولتزيل من أفكار الناس ما يقوله اليهود «عزير ابن الله» وما يقوله النصارى «المسيح ابن الله» - ولتؤكد ما يقوله الإسلام «إنما الله إله واحد» «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد».

ولم تكتف الآية بكل هذا البيان القاطع فى صورته المعروفه لعلماء البلاغة، والتى تستخدم أداة النفى (لا) وأداة الاستثناء (إلا) لتنفى الألوهية عما عداه، ولتقصرها على ذاته الأحدية. لم تكتف بذلك - بل دعمت المعنى بصفتين جديدتين حين قالت «الحى القيوم» فحياته من ذاته، وهى حياة بدأت قبل كل شئ وبلا أول، وستبقى بعد كل شئ وبلا نهاية - وهى حياة فوق الزمان والمكان، وفوق التصور والتخيل - ثم هو القائم على كل شئ يمده بالوجود والبقاء- فكل شئ راجع إليه ، معتمد عليه «هو الأول والآخر، وهو الظاهر والباطن، وهو بكل شئ عليم». وهو حين يقوم على هذا الكون لا يغفل ولا ينسى - قد ملك كل ما فى هذا الكون من أشياء تتصورها العقول أولا تتصورها، تعرفها أو تجهلها - كانت أو ستكون - وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما، وهو العلى العظيم هذا هو مجال الوجود.

أما (مجال العقيدة والعبادة) فمرتبط بمجال الوجود - إذا كان الله تبارك وتعالى أحد فى وجوده - وكل وجود بعده مستمد من وجوده - فمعنى ذلك أنه وحده مصدر الفعل والإرادة فى كل فعل أو أثر - ومتى ثبت هذا اليقين فى قلب المسلم، واستقر فى وجدانه - اتجه إلى الله وحده - اعترف بربوبيته - وقصده بالعبادة والتقديس - ولهذا نجد سورة الإخلاص حين تقرر (أحدية) الله فى الآية الأولى «قل هو الله أحد» تنتقل إلى مجال العقيدة فى الآية الثانية فتقول «الله الصمد» - وكلمة «الصمد» فى اللغة تعنى المقصود فالقصد لله وحده. وهو موضع اتجاه العباد - إليه يلجأون، وإلى ذاته يقصدون ويعبدون، وهذا هو المعنى الذى يتكرر كل يوم عشرات المرات فى صلاة المؤمن وهو يقرأ سورة الفاتحة فيعترف بالربوبية الشاملة للعالمين «الحمد لله رب العالمين» ثم يقول «إياك نعبد، وإياك نستعين» وبلاغة التعبير هنا تؤكد أنه هو وحده المقصود بالعبادة، وهو وحده المقصود بالاستعانة.

أرأيت أيها المسلم - كيف تناولت العقيدة الإسلامية معنى التوحيد فى مجالى الوجود والعقيدة ولعلك بعد ذلك لست فى حاجة إلى أن تسأل : وما صلة ذلك بالفطرة - فقد رأيت أن كل دين أو عقيدة ترجع إلى «ذات الله» وتعترف به مهما كانت صورة عبادتها - كل من جعل لله شريكا عاد فى مجال الحجاج والجدل ليقول «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» - فالإنسان بفطرته يأبى أن ينكر وجود الله، ويستعصى على عقله ومشاعره أن تتنكر لحقيقة كبرى تعيش فى داخله، حقيقة تسيطر على تفكيره وتصرفه دون أن يحس - حقيقة أن هذا الكون صنع إله قادر قوى واحد.

والإنسان لا يضل عن فطرته، ولا يتنكر لوجود الخالق إلا إذا كانت حياته هناءة ورغدا - أما عند المحسن فإنه لايملك إلا أن يلجأ إلى فاطره «حتى إذا كنتم فى الفلك، وجرين بهم بريح طيبة، وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف، وجاءهم الموج من كل مكان، وظنوا أنهم أحيط بهم - دعوا الله مخلصين» - إذا هبت الريح طيبة كان الكفر والنسيان - وإذا جاءت ريح عاصفة كان الرجوع إلى الله وكان الإيمان، وقتل الإنسان ما أكفره - وجلت رحمة الله واسع المغفرة.

فاتقوا الله وأخلصوا التوحيد واجعلوا عبادتكم خالصة له وتوبوا إليه يتب عليكم واستغفروه يغفر لكم..

وأقول قولى هذا وأستغفرا الله لى ولكم.

الإيمان بين العقيدة والسلوك

الحمد لله رب العالمين

وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه

ثم أما بعد ..

فيا عباد الله :

فحين جاء محمد صلواتُ الله وسلامه عليه رأى الحياة فى صورتها الصحيحة، وعرف الحقَّ فى جوهره الصادق - وكانت رؤيته للحياة شاملة كاملة، وكانت معرفته بالحق - مبصرة واعية - رأى وعرف على صورة غير التى ألفها الناس قبله، حتى الأنبياء.

وحين نزل عليه القرآن الكريم كان دستوراً كاملاً للحياة وما فيها من الحق - وأعنى بالحياة كل ألوانها : حياةَ الوجدان والمشاعر - وحياةَ التأمل والفكر - وحياةَ العمل والسلوك.

أبدا لم تر الدنيا منهجا للحياة كهذا المنهج الذى قدمته رسالةُ محمد - جاء مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه - أقر المبادئ الصالحة، وقوّم التعاليم الباطلة، وكان بحقّ مدرسةً فريدة - تربت فيها الأمة المحمدية تربية متكاملة تشمل جانبى العقيدة والسلوك.

والإيمان فى هذا المنهج هو الأصل - وما عداه فروع.

هو الأساس الذى يقوم عليه بناء المجتمع، وتنبع منه جميع المُثُل والقيم فى هذه الحياة لكن الإيمان ليس فكرة صوفية، أو مبدأ فلسفيا، وليس مجرد عاطفة وجدانية يخضع لها القلب ثم يقف عند هذه الحدود، وليس مجرد تصديق واعتراف بوحدانية الله، وتفرده بصفات الألوهية.

الإيمان تصديق وعمل - عقيدة وسلوك - مبدأ وتطبيق - إدراك نابع عن الذهن والوجدان معا - وممارسة عملية فى واقع الحياة.

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : «تخاصم أهل الأديان - فقال أهل التوراة : كتابنا خير الكتب، ونبينا خير الأنبياء - وقال أهل الإنجيل مثلَ ذلك - وقال أهل الإسلام لا دين إلا الإسلام، وكتابنا نسخ كلَّ كتاب، ونبينا خاتم النبيين. وأُمرتم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم، ونعمل بكتابنا - فقضى الله بينهم وقال ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب - من يعمل سوءا يجز به ، ولايجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ، ولا يظلمون نقيرا** ﴾ سورة النساء آية ١٢٣ : ١٢٤.

والمعنى أن (الإيمان) ليس بالتمنى - ولكن ما ثبت فى القلب وصدقه العمل - وليس كل من ادعى شيئا ثبت له بمجرد الدعوى - وليس كل من تمنى شيئا أصبح أهلاً له - وإنما العبرة بالعمل بعد التصديق. ولهذا أكدت الآية الكريمة قيمة العمل فى مظهريه - الحسن والقبيح السيئ والصالح - وبينت أن الجزاء سيكون على العمل : ﴿ **من يعمل سوءا يجز به** ﴾ ﴿ **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة** ﴾ سورة النساء آية ١٢٤.

أما لماذا ركزت الآية على (العمل) وأبرزته فى مجال العقاب والثواب فلأنه مظهر العقيدة، ولأنه التجسيد الواضح للتصديق، ولأنه العلاقة على مدى تشرب القلب للإيمان.

وقد يظن بعض الناس أن المراد بالعمل هنا (العباداتُ) كالصلاة والزكاة والصيام، ولكن الحقيقة أن العبادات وحدها لا تكفى - ودلالتها قد تكون خادعة - إنما يؤكد هذه الدلالة السلوك، فى المجتمع، والتعاملُ مع الناس فى أمور الحياة، فالعمل إذن (عبادات ومعاملات).

قدم على عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه أحدُ الشهود - فقال له عمر : ائتنى بمن يعرفُك. فأتاه برجل فأثنى عليه هذا الرجل خيرا - فسأله عمر : هل أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا قال : أأنت رفيقه فى السفر الذى يُستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال : لا قال : فهل عاملتَه بالدرهم والدينار الذى تستبين به ورع الرجل؟ قال : لا قال : أظنك رأيتهِ قائما فى المسجد يُهمهم بالقرآن يخفض رأسه تارة ويرفعها أخرى؟ قال الرجل : نعم - فقال عمر : اذهب فلست تعرفه.

ومدلول هذا الخبر أن المؤمن لا يظهر جوهره، ولا يُعرف معدنه إلا فى تعامله مع الناس - وأن كثرة العبادات ليست دليلا على عمق الإيمان.

لكن الحياة ترينا صورة أخرى للموضوع - إذ قد يكون سلوك الكافر حسنا - فيتحقق جانب العمل، ولا يتحقق جانب العقيدة- والصحيح فى ذلك أن سلوك غير المؤمن خاضع للعرف، ولعادات مجتمعه - وهذه العادات عرضة للتلوّن والتلوث - وهو مظهر كاذب، ومثله فى ذلك كمثل الرجل يتزين بالملابس الفاخرة وجسمه من الداخل لا يعرف النظافة.

والإيمان شرط ضرورى لقبول العمل - ألا ترى كيف عادت الآية فاشترطت فى العمل الصالح أن يعتمد على الإيمان ﴿**ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن**﴾سورة النساء آية ١٢٤ - فسلوك الكافر سلوك خادع - أما سلوك المؤمن فينبع من عين ثرة طاهرة. ويتطابق فيه المظهر والمخبر - ويلتقى العرض بالجوهر.

حقق الله لنا الأمرين - وجعل سلوكنا دليل عقيدة ثابته صحيحة.

وهو الموفق والهادى إلى سواء السبيل

دعوة واستجابة

الحمد لله

وأشهد أن لا إله إلا الله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله خير من لبى نداء الله ودعا الناس إلى ما فيه رحمتهم وخيرهم فصلوات ربى وتسليماته عليه وعلى صحابته الكرام .

أما بعد..

فَيا أيها الموحدون :

أنتم مدعوون إلى ما فيه الخير والرحمة وما عليكم إلا الاستجابة

أما الدعوة فمن الله تعالى، ومن رسوله الأمين.

وأما الاستجابة فمن المؤمنين الذين يستحقون شرف هذه الدعوة

وأما الآية الكريمة التى تحدثنا عن الأمرين : الدعوة والاستجابة فهى قوله تبارك وتعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه، وأنه إليه تحشرون** ﴾ سورة الأنفال آية ٢٤.

ودعوة الله للمؤمنين فيها الرحمة والخير - وفيها الأمْن والسلام - وفيها الهدى والرشاد.﴿ **والله يدعو إلى دار السلام، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾سورة يونس آية ٢٥

وحقيقة الرسالة الإسلامية أنها دعوة من الله العظيم بلغها للناس رسوله الكريم : فمن الناس من كتب اللهُ له الفلاح والخير واستجاب، ولبى الدعوة - ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون** ﴾ سورة النور آية ٥١.

ومن الناس من تكبر وأعرض عن الدعوة فظلم نفسه، وباء بالخسران المبين : ﴿ **وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون** ﴾سورة النور آية ٤٨ - ﴿ **وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا** ﴾ سورة الكهف آية ٥٧.

ولقد روى متصلا عن جابر رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال : «إنّى رأيتُ فى المنام كأن جبريل عند رأسى، وميكائيل عند رجلى يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلا. فقال : اسمع - سمِعَت أذنُك - واعقل عقَلَ قلبك، إنما مثلك ومثلُ أمتك كمثل ملك اتخذ دارا ، ثم بنى فيها بيتا، ثم جعل فيها مأدُبة، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام - والبيت الجنة - وأنت يا محمدُ الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها».

ونعود إلى الآية الكريمة : ﴿ **استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ سورة الأنفال آية ٢٤- فنقول : إنها دعوةُ إلى الحياة، ولكن : لأى نوع من الحياة؟ هل هى دعوة لمجرد الوجود المضاد للعدم؟ هل المراد الحياةُ التى تعنى الأكل والشرب والحركة والتكاثر والنمو؟ بالطبع لا - فهذا النوع من الحياة قدْرٌ مشترك بين الإنسان والحيوان والنبات، ولا يستحق شرف الدعوة الإلهية - ومظاهر هذه الحياة لا تخضع لقوانين الدعوة التى تضمنتها الآية الكريمة وكانت سرَّ الرسالة المحمدية - يعنى لا داعى أبدا لأن يدعونا الله تعالى لمجرد الأكل والشرب والحركة والتكاثر.

إذن هناك نوع آخر من الحياة يلائم طبيعة الإنسان العاقل الفاهم، ويستحق لفتة إلهية، ورسالة ربانية، وجهادا وتضحية من رسول عظيم - ونعنى حياة الشرف والعزة والحرية - حياة ترتفع بالإنسان إلى مقام عالٍ يتصل فيه بالله ، وينطلق إلى آفاق من الكمال المطلق، والتجرد من قيود البشرية الدنيا - وفى حدود ذلك فسر البخارى الآية فقال : المعنى : أجيبوا الله إذا دعاكم لما يصلحكم - فالحياة عنده هى الصلاح والإصلاح.

وقال مجاهد - المعنى : أجيبوا الله إذا دعاكم للحق ففسر الحياة بالحق.

وقال قتادة - مايحيينا هوالقرآن، ففيه النجاة والبقاء والحياة.

وقال السّدّى - ما يحييكم هو الإسلام - ففيه حياة للمؤمن بعد موته بالكفر.

﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه. وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس** ﴾سورة الأنعام آية ١٢٢.

ولا تناقض بين هذه الآراء - فالإسلام هو الإصلاح، وهو الحق، ودستوره هو القرآن - والدعوة فى جوهرها دعوة إلى الإصلاح والحق، والحب والخير والفوز، وإلى الكمال

والطهر، وفى كلمة واحدة هى دعوةٌ إلى (الإسلام).

وبعد ...

فقد دُعى المؤمنون فاستجابوا - وأطاعوا - ولكن هذا لا يكفى.

نحن فى حاجة دائمة إلى أن نجدد الاستجابة، وأن نجدد الطاعة، وأن نرجع إلى عقيدتنا وقلوبنا فنتعهدها بالإصلاح والريّ حتى نظل على ثقة وثيقة بربنا وبديننا، يجب أن نكون حذرين من أى انحراف أو زيغ أو فساد - وفى بقية الآية نذير ﴿**واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه**﴾ سورة الأنفال آية ٢٤ - ولهذا كان ﷺ لا يأمن لمكر الله، وكان دائما يناجى ربّه فيقول : «يا مقلب القلوب ثبّت قلبى على دينك»

ثبّت الله قلوبنا على الحق، وحفظ علينا نعمة الإسلام - نعمة الحياة الطيبة الصالحة.

ولله الحمد فى الأولى والآخرة وهو الحكيم الخبير

معنى الحياة

الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله

وبعد :

أيها الأخ المسلم :

مامعنى الحياة ؟

إذا سألت نفسك هذا السؤال فأنت إنسان عاقل مفكر. لأن الحياة تريد منّا أن نعرفها، وأن نبحث عن سرّها وغاياتها.

الذين يعيشون كثيرون - كثيرون جدا - هم كل الناس منذ وجدت الحياة إلى أن يشاء الله، وهم كل ما على ظهر الأرض من حيوان ناطق أو غير ناطق.

لكن الذين يبحثون عن معنى الحياة قلة - والذين يعرفون المعنى الصحيح أقل من القلة. ماذا نريد من الحياة؟ وما الغاية من وجودنا فى هذا الكون؟

بعض الناس يريدون الأكل والشرب، ويبحثون عن المتاع الحسّى، ويظنون أنهم إذا وصلوا إلى درجة رفيعة من الترف والنعيم فقد حققوا كل ما يريده الإنسان.

وبعض الناس يظنون أن الحياة منصب كبير، أو جاه عريض، أو شهرة واسعة، أو منزلة عالية - ويمضون فى الدنيا راضين عن أنفسهم، مخدوعين خادعين بما وصلوا إليه - وقد يعرفون فى آخر الأمر أنهم كانوا واهمين، وأنهم لم يستفيدوا ولم يُفيدوا - ولم يزد الواحد منهم على أن يكون فقاعة من هواء انتفخت ثم طارت فى الفضاء، ثم انفجرت وتناثرت - ويومئذ قد يدركون أنهم لم يعرفوا معنى الحياة.

وبعض الناس يعتقدون أن الحياة شباب وصحة وفتوة - فإذا ما تطاول العمر ضاع الشباب، وذهبت الصحة، ورحلت الفتوة، وأدركوا بعد فوات الأوان أنهم لم يعرفوا معنى الحياة.

هكذا يتصورُ بعضُ الناس الحياة - وتصورهم غير صحيح.

إن الحياة الصحيحة كامنةٌ فى وجودنا وفى أعمارنا، وفى أعمالنا وآثارنا.

- الحياةُ الصحيحةُ هى عمرُنا - هى كل لحظة من اللحظات التى نقضيها على هذه الأرض، هى كل نبضة دم تنبض فى عروقنا، كل فكرة تلوح فى أذهاننا - كل صرخة ألم تصدر عن إحساس، كل هِزّة فرح أو نشوةِ سرور ترجُّ الأعماق.

- الحياة الصحيحة هى العمل والحَركة، والنموّ والطاقة، والأمان والحرية : وهى فوق ذلك كله شعورنا بذلك كلّه - شعورنا بأننا نعمل وننتج، وبأننا نتحرك وننمو ونبذل الطاقة، ونتمتع بالأمان وبالحرية - هى شعورنا بذاتنا وبعمرنا وبأيامنا.

شعورنا بأننا أحياء - نستمتع بالحياة، نمارس الحياة، نعيش الحياة، وليس المراد أن نستمتع بذلك حسيًّا - بل المراد أن نستمتع به عقليا وفكريا من ناحية، وروحيا وحسيا من ناحية أخرى.

إن الذى يشعر بأنه يعمل ويتحرك فينفع نفسه وينفع الناس، ويتذوق أثر هذه المنفعة هو الذى يعرف معنى الحياة - ولهذا يكون دائما حريصا على أن يستفيد من كل لحظة، وعلى أن يفيد غيره فى كل برهة.

وليس يكفى مجرد الشعور والإحساس - ولا مجرد الحرص على العمل والفائدة - بل لأُبدَّ من وجود القدرة على ممارسة الحياة، والتّغلب على ما فيها من مصاعب ومشكلات. فإذا ما شعر المرء بحياته وبعمله فيها، وشعر بقدرته على هَذا العمل، وبتحقيقه لما أراد، وجد فى نفسه شيئا جديدا هو ﴿**الإحساس بالرضا**﴾.

والإحساس بالرضا معنى كبير للحياة لايدركه إلا الناجحون من المصلحين ورواد الفكر والعمل. وهو معنى لا يعطى الإنسان فرصةً للراحة، بل يحمّله المشاق والمتاعب :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام.

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى - ولم أطلب - قليلا من المال.

- ويزداد الشعور بالرضا كلما كانت المنفعة أعم، وكلما أتسعت الفائدة فشملت الجماعة البشرية كلَّها. ومن هنا كانت عظمة المصلحين، وكانت من فوقها عظمة الأنبياء والمرسلين.

والشعور بالحياة، لا يتحقق إلا إذا كان للإنسان، أهداف متعددة - بعضُها يتبع بعضا

- أهداف متدرجة يحققها الإنسان بالعمل مرحلةً بعد مرحلة، وكلما حقق هدفًا شعر بكيانه وبحياته، وعرف أنها حياة مثمرة.

والحياة المثمرة كالشجرة الطيبة - تورق ، وتثمر، وتؤتى أُكُلَها جَنِيًّا شهيا لكل من عاش فى ظلالها من أهل أو صديق أو حتى عدّو.

والشعور بالحياة واسع متنوع : فهو شعور فكرى ذهنى يدرك حقيقَتَهُ العقل - والذين يعرفون هذا المعنى للحياة يدركون أنها قبل كل شىء حبُ وخير. حبّ للعمل وللنفس وللناس.

وخير للذات وللجماعة البشرية.

فعش دائما فى ظلال الحب والخير، تكن دائما عند المعنى الصحيح للحياة.

والله الهادى إلى سواء السبيل

مثل الحياة الدنيا

الحمد لله

وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله عليه أزكى الصلوات وأتم التسليم.

وبعد ..

فقد ضرب القرآن الكريم مثلا عجيبا للحياة الدنيا - وهو مثل يبيّن بدايتّها ونهايتها. ويصوّر ما بين البداية والنهاية من تقابل وتناقض - وأمثالُ القرآن الكريم هي الحكمة، وهى العظة والعبرة - ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾ سورة الحشر آية ٢١.

مثل ضربه الله للحياة حين تُقبل على أصحابها خَضرة حلوة - فيها لعب ولهو وزينة، وفيها تفاخر وتكاثر فى الأموال والأولاد، وفيها ظل ظليل، وخير كثير - حتى إذا بلغت غايتها، واستكملت زينتها، وظن عُبَّادها أنها دانت لهم ودامت، جاءها أمر الله فإذا هى هشيم تذروه الرياح - وصدق الله :

﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها - أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس - كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** ﴾ سورة يونس آية ٢٤.

ونظرة متأملة فى هذه الآية ترينا بعض الحقائق:

أول الحقائق : أن هذا المثل ضُرب للعظة والعبرة كشأن الأمثال الأخرى فى القرآن العظيم، ومصداق هذا قوله تعالى فى آخر الآية ﴿ **كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** ﴾سورة يونس آية ٢٤

ويؤكد هذه الحقيقة أن القرآن كرر هذا المثل، وساق الحديث إلى الناس مباشرة فقال مخاطبا لهم فى سورة الحديد : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة، وتفاخر بينكم، وتكاثر فى الأموال والأولاد** ﴾ سورة الحديد آية ٢٠ - وحين وجه القرآن الخطاب للرسول ﷺ فى سورة الكهف طلب إليه أن يوضّح المثل للناس فقال : ﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء** ﴾ سورة الكهف آية ٤٥ - أى واضرب يا محمد للناس مثل الحياة الدنيا.

وثانى الحقائق : أن الغاية من ذكر هذا المثل - مع العظة والعبرة - هى بيان قدرة

الله. وإنما تتضح حقيقة القدرة الإلهية حين تبرز على غير انتظار - وحين تأتى فى وقت يظن فيه الناس أن الدنيا قد اكتملت - وصارت فى قبضة أيديهم - عندما يكون تصور الفناء بعيدا تقول القدرة الإلهية : لا - أنا فوق كل شىء ﴿ **حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس** ﴾ سورة يونس ٢٤ - إنما هو أمر - مجرد أمر يأتى فى الليل أو يأتى فى النهار فإذا بالحياة وقد خضعت - وكان أمر الله قدرا مقدورا.

وتتضح حقيقة القدرة الإلهية فى آخر آية الكهف ﴿ **وكان الله على كل شىء مقتدرا** ﴾ سورة الكهف آية ٤٥ - هكذا «على كل شىء» على الإنشاء والإفناء - على الابتداء والانتهاء - على الدنيا حين تأتى. وعلى الدنيا حين تذهب. على من يغترُّ بنفسه، ويغتر بالدنيا، وينسى سنة الله فى كونه :

لكل شىء إذا ما تمّ نقصانُ　　　فلا يُغَرّ بطيب العيش إنسان

وثالث الحقائق : أن الناسَ أمام الدنيا رجلان :

رجل أقبل عليها فاستعبدته، وملكته، وشغلته عن دينه ومصيره.

ورجل علم أنها مجرد متاع. فأعرض عنها، واكتفى بنصيب من حلالها - ورحم الله عليا بن أبى طالب حين قال : «يادنيا - إليك عَنِّى - غُرِى غيرى - أإلّى تعرضْتِ؟ أم إلىّ تشوّقت ؟ هيهات هيهات، لقد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها - آهٍ من قلة الزاد - وبُعْد الشُّقة، ووحشة الطريق».

ولقد وضحت آية الحديد عاقبة الرجلين - قال تعالى : ﴿ **كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يكون حطاما - وفى الآخرة عذاب شديد - ومغفرة من الله ورضوان** ﴾ سورة الحديد آية ٢٠ - أما العذاب فلعبد الدنيا - وأما المغفرة والرضوان فلمن اكتفى بحلالها - واستوعب قول ربه ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ سورة الحديد آية ٢٠ .

وبعد ..

فما أكثر الأمثلة - وما أبلغ الأدلة - ولكن ما أقل القلوب الواعية. إن القرآن يسوق الأمثلة ليقرب المعنى من الذهن - وليوضح الحقيقة للفهم - وليجعل الأمور المعنوية محسوسة ملموسة تخاطب العقل - وتقرع السمع، وتملأ القلب - حتى لا يكون للناس على الله حجة - فهل من مدّكر؟

وأقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

الحياة الطيبة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾سورة النحل آية ٩٧.

والحياة الطيبة رجاء كل نفس، ورغبة كل فرد، وغاية يسعى إليها الإنسان منذ وُجد وكان.

والرغبة فى الحياة الطيبة أمر مشروع، لا يتعارض مع الدين ومُثُله، ولا يتنافى مع طبيعة العبادة أو لذة الطاعة - والسعى إلى الحياة الطيبة يلتقى مع جوهر الرسالة المحمدية الكاملة، بل هو هدف أساسى من أهداف هذه الرسالة إذا نحن فهمنا «الحياة الطيبة» على معناها الصحيح - فليس من هدف الدين أن يعيش أتباعه محرومين بائسين، وليس من غاية السماء أن يتعذب أهل الأرض، وليس الشقاء فى الدنيا هو السبيل إلى السعادة فى الآخرة - وما أجمل أن يجمع المؤمن بين نعيمى الدنيا والآخرة - يعمل للدنيا كأنه مخلد فيها، ويعمل للآخرة كأنه على موعد معها فى الغد القريب.

غير أن مفهوم «الحياة الطيبة» يختلف فى الأذهان، ويحتاج منا إلى شىء من بيان :

بعض الناس يتصورون «الحياة الطيبة» فى الترف والنعيم، ويربطون فى خيالهم بينها وبين الرياش الوثير والفراش الناعم، والقصور المنيفة والسيارات الفاخرة - يتصورون السعادة فى وفرة المال وكثرة العيال، وعز الجاه وسطوة السلطان. وما نحب أن ننفى ذلك، ولا نحب أن نقول إنه يتعارض مع الفكر والعقل والدين والواقع.

وإنما نقول : إنه ليس حتما أن يكون الإنسان غنيا مترفا حتى يكون طيّب الحياة راضى العيشة. قد توجد الحياة الطيبة مع الجاه والمال - وقد توجد الحياة الطيبة بدون الجاه والمال - ولا ارتباط بين الأمرين.

الحياة الطيبة : فكرة ومعنى - طمأنينة ويقين - سلام مع النفس كلما طلع صباح أو حلّ مساء.

الحياة الطيبة : تنبع من القلب - من الداخل - مصدرها فى وجدان الإنسان - فى صلته بالله، فى يقينه وعقيدته.

الحياة الطيبة : إيمان بالله، وإسلام القلب لقضائه وقدره، والرضا بالنصيب فى غير خضوع أو خنوع أو ذلة أو هوان، والحياة الطيبة : عمل صالح كامل.

الحياة الطيبة : صلة هنية فى بيت سعيد يجمع الزوج الوفية والولد الرشيد - يخرج الإنسان منه فى الصباح إلى عمله، فيؤديه فى أمانة وإخلاص، ويقضى يومه بين الناس مهذب اللفظ، حلو المعشر، عف اللسان - ثم يعود إلى بيته فيجد الأنس والأمن والطمأنينة - وهو فى كل خُطواته وثيق الصلة بربه - دائم التفكير فى نعمه، حريص على التسبيح بحمده والتقديس لجلاله .

هذا هو المفهوم السليم للحياة الطيبة.

ونعود إلى الآية الكريمة فنجدها قد رسمت الطريق للحياة الطيبة - ﴿**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة**﴾ سورة النحل آية ٩٧ - فالحياة الطيبة تقوم على قاعدتين :

إيمان بالله بكل ما فى الإيمان من صدق وحق ويقين.

وعلم صالح يُبرز جوهر الإيمان ويحوله إلى سلوك حميد بين الناس.

وإذن - فالإيمان وحده لا يكفى، والعمل وحده لا يكفى.

إذًا وقف المؤمن عند مجرد العقيدة ولم يعمل كان ناقص الإيمان.

وإذًا عمل الكافر عملاً صالحا لا ينبعث عن عقيدة صحيحة كان عمله سرابا يظن فيه الخير حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.

والمطلوب : إيمان بالله، وعمل صالح صادق - وبهما معاً يتحقق للإنسان مايريد من حياة طيبة هانئة راضية.

فإذا كانت الآية الكريمة قد وضعت للحياة الطيبة قاعدتين هما **الإيمان والعمل** - فإن عدل الله جعل الجزاء يمتد إلى الحياتين - الحياة الدنيا والحياة الأخرى فيصبح جزاءين.

وهكذا يتحقق العدل الإلهى فى أكمل صوره :

يطلب منا أمرين : **الإيمان - والعمل**

ويعطينا جزاءين : حياة طيبة فى الدنيا، وأجرا حسنا فى الأخرى.

وصـــــدق الله : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى - وهو مؤمن - فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾سورة النحل آية ٩٧.

ونسأل الله العفو فى الدنيا والآخرة.

الكلمة الطيبة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له خلقنا لعبادته وإعمار الكون بشرعه وفطرنا على الحق وأشهدنا على أنفسنا أنه الحق.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا رسول الله فتح الله به قلوبا غلفا وآذانا صماً وأعينا عميا وربى جيلا ربانيا فتح الدنيا كلها بنور العقيدة وصفاء العبادة ومحاسن الأخلاق فاللهم اجزه عنا وعن والدينا وعن الإسلام والمسلمين خير ما جزيت به نبيا عن قومه ورسولا عن أمته.

أما بعد ..

فيا عباد الله....

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلا، كلمة طيبة كشجرة طيبة - أصلها ثابت، وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ سورة إبراهيم آيات ٢٤:٢٥.

هذا مثل ضربه الله تعالى، وكم فى القرآن من أمثال ، ﴿ **إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها - فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم - وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا، يضل به كثيرا، ويهدى به كثيرا، وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ سورة البقرة آية ٢٦.

أما مثل اليوم فمثل طيب، فيه الحق الذى أراده الله لعلّ الناس يتذكرون وينتفعون.

الكلمة الطيبة - طيبة فى مصدرها ومنبعها - طيبة فى غايتها وهدفها، طيبة فى ثوابها وجزائها، طيبة فى حروفها ونسيجها - طيبة فيما يحيط بها من جوّ كأنما هى مسك من عطر الجنة - ينفح بالطهر، ويثمر بالخير، وينضح بالصدق والحق - ويجمع الناس على المحبة والصفاء.

الكلمة الطيبة - نبات ذكى - يَنْبُتُ فى تربة صالحة، ويُسقى بماء طاهر، أصله ثابت وفرعه فى السماء.

الكلمة الطيبة :

هى كلمة (الإيمان) تملأ قلبك باليقين والتوحيد والتنزيه كلما تأمّلتَ صنع الله.

وهى كلمة (الحق) تقولها فى موطن الشدة لا تبالى فى الله لومة لائم، ولا تخشى فى هذا الحق جبروت ظالم، ولا عدوان معتد غاشم.

هى كلمة (التوفيق والإصلاح) تقولها بين المتخاصمين فتمنع الشر، وتُلين القسوة، وتزُيل الجفوة، وتجعل العدوّ كأنه ولىّ حميم.

وهى (شهادة الصدق) تقولها فى حقٍّ مظلوم فترفع عنه الغُمّة، وتكشف البلوى.

وهى كلمة (الشكر) تقولها لوالد ربّاك ورعاك، أو أستاذ علمك وأرشدك، أو صديق منحك من وُدّه وأخوته ما ينفع ويبقى.

هى (تحية الصباح أو المساء) تلقيها على من تعرف ومن لا تعرف من إخوتك فى الدين، فتحقق معنى الأخوة، وتمكن لروابط الدين.

وهى (قول المعروف) تردُّ به سائلا متمثلا لقول الله ﴿ **قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى، والله غنى حليم** ﴾ سورة البقرة آية ٢٦٣.

الكلمة الطيبة : هى كل كلمة خير تقولها فى موضعها فتثمر الخير - قد تكون صغيرة بسيطة لكنها عميقة الأثر بعيدة المدى، وقد تكون رقيقة رفيقة لكنها تفعل ما يفعله الدواء الشافى حين يزيل الداء القاتل.

الكلمة الطيبة : هى الحسنةُ تدفع بها السيئة - والسماحة تردّ بها الوقاحة - والصفاءُ تقابل به الجفاء - والحكمة تستعملها فى مواطن المحنة. ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾سورة فصلت آية ٣٤:٣٥ - قال ابن عباس : الكلمة الطيبة هى شهادة أن لا إله إلا الله، وأصل هذه الشهادة ثابت فى قلب المؤمن كما تثبت الشجرة بجذورها فى الأرض - وفرع الشهادة هو (العمل الصالح) يعمله المؤمن فيرتفع إلى السماء.

ويرى بعض العلماء أن الكلمة الطيبة هى كلماتٌ تقال عقب كل صلاة، ويستدلون بما

رواه قتادةُ أن رجلا قال : «يارسول الله - ذهب أهل الدثور بالأجور - فقال : أرأيت لو عُمِد إلى متاع الدنيا فرُكِّب بعضُه على بعض أكان يبلغ السماء؟ أفلا أخبرك بعمل أصله فى الأرض وفرعه فى السماء؟ قال : ما هو يارسول الله؟ قال تقول : «لا إله إلا الله والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله» عشر مرات فى دبر كل صلاة فذاك أصله فى الأرض، وفرعه فى السماء» صدق رسول الله.

أما الشجرة الطيبة - فقيل هى كل شجرة مثمرة - وقيل هى النخلة.

روى البخارى عن ابن عمر قال : «كنا عند رسول الله ﷺ فقال : أخبرونى عن شجرة تشبه الرجل المسلم : لا يتحاتُ ورقُها صيفا ولا شتاء، وتؤتى أكُلَها كلَّ حين بإذن ربها - قال ابن عمر : فوقع فى نفسى أنها «النخلة» ورأيتُ أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهتُ أن أتكلم - فلما لم يقولوا شيئا قال رسول الله ﷺ «هى النخلة» فلما قمنا قلتُ لعمر : ياأبتاه، والله لقد كان وقع فى نفسى أنها النخلة - قال : ما منعك أن تتكلم؟ قلت لم أركم تتكلمون فكرهتُ أن أتكلم أو أقولَ شيئا - قال عمر : لأن تكون قلتَها أحبُّ إلى من كذا وكذا..»

ولا تناقض ولا تعارض فى شىء مما قيل :

فالكلمة الطيبة هى كل لفظة نقية، تناجى بها الله، أو تقيم بها حقا، أو تنصر مظلوما، أو تزيل ضغينة، أو تمنع شرا، أو تهدى حائرا، أو تثنى على مجيد، أو تشجع مترددا.

وهى ككل شجرة طيبة.

كلتاهما فيها خضرة ساجية ناعمة، وفيها ظل وارف ساكن - وفيها ثمر شهى، وطلع بهىّ وكلتاهما فيها طلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وصدق الله ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ سورة إبراهيم آية ٢٥.

فاللهم إنا نسألك لسانا ذاكرا وقلبا خاشعا وبدنا على البلاء صابرا.

آمـــين

محمد فى ذكرى مولده

الحمد لله العلى العظيم الحليم الكريم الغفور الرحيم،

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلها جل عن المثيل والنظير، وتعالى عن الشريك والظهير وتقدس عن الوزير والمشير ليس كمثله شئ وهو السميع البصير، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وخيرته من خلقه وأمينه على وحيه، وحجته على عباده أرسله رحمة للعالمين وقدوة للعاملين ومحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين فهدى به من الضلالة وعلم به من الجهالة فصلى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وعباده المؤمنون عليه .

أما بعد...

فهكذا تدور الأيام. وهكذا تتوالى الأعوام. وهكذا - نعود إلى ماضينا الغالى كلما أظلتنا الذكريات.

أهل هلال الربيع - وبدا فى استدارته الرقيقة قوسا من فضة، يرصّع جبين السماء، ثم زادت أضواؤه، وأشرق لألاؤه، وغدا بعد ليالٍ بدرا يملأ صفحة الكون الساجى.

منذ أربعة عشر قرنا أشرق هذا الهلال على الدنيا بعد أن ضلت السبيل، وحار بها الدليل، وضاع معنى الكرامة الإنسانية فى سوق العبودية.

أشرق هذا الهلال فكان بشيرا بمولد محمد ..

محمد الذى هدى الحائر، وأرشد الضال، ونصر المظلوم، وأعز الذليل. ويومها غنت الدنيا، وأعلنت فرحتها الكبرى :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم زمان تبسم وثناء.

واليوم يشرق علينا الهلال من جديد - فيحيى ميت الأمل، ويجدد بالى العزم، ويرفع رؤوسنا إلى السماء لعلنا فى موكبه نرى البشرى تعود.

محمد : اسم حبيب : تردده ملايين الشفاه ، وتحفظه ملايين القلوب، وتهوى إليه الأفئدة كلما طلع الصباح أو حل المساء.

هو رسول الله - ولكنه فى عالم النبوة خاتم الأنبياء - كملت برسالته الرسالات، وتمت بكلمته الكلمات، وختمت بآيته الآيات. وانتهى بموته وحى السماء - ونزلت آخر آية تحمل المعنى الكبير ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾«سورة المائدة آيه ٣» وهو ابن عبدالله - إنسان من الناس - اختاره الله واجتباه ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى** ﴾«سورة الكهف آيه ١١٠». وتلك حكمة الله. اصطفاه ورعاه، وصنعه على عينه وأدبه ورباه. وجعل من هذا الإنسان كمالاً مطلقا فى كل مجالات الحياة، بل وفيما وراء الحياة.

وعجب الناس - كيف يكون الرسول بشرا منهم - وغابت عن العقول حكمة الخالق، حتى جاءت الكلمة الخالدة تبين الحكمة، وتوضح المنة. ﴿ **لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم** ﴾«سورة آل عمران آيه ١٦٤». وإنما يفهم الإنسان عن إنسان، ولو كان على الأرض ملائكة لبعث الله فيهم ملكا. ﴿ **قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا** ﴾ «سورة الإسراء آيه ٩٥». وسبحانك يارب قلت وقولك الحق. ﴿ **قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم - إنه كان بعباده خبيرا بصيرا** ﴾ سورة الإسراء آيه ٩٦». وعلى هذا جاء محمد : فقير الدنيا، وأقام نظاما من التوحيد والعدل والمساواة، لم يكن له مثيل من قبل، ولن يكون له مثيل من بعد - ومهما تصارعت الأفكار، وتحاربت المبادئ فسيظل الإسلام منارة مضيئة بالخير. ونظاما يكفل للإنسانية ما تريد . وفوق ما تريد. جاء محمد فكان المثل وكان الأسوة الحسنة :

كان أسوة فى صدقه وأمانته وعفته حتى لقب قبل بعثته بالصادق الأمين.

وكان أسوة فى أخلاقه وطباعه ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾سورة القلم آيه ٤».

وكان أسوة فى رفقه ولينه وسماحته ﴿ **ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك** ﴾سورة آل عمران آيه ١٥٩».

وكان أسوة فى أبوته، وفى صداقته. وفى عشرته، ومعاملته لزوجاته، وفى حكمته وبلاغته.

وكان أسوة فى تربية أصحابه - وإعدادهم من بعده لمواقف الحياة. وصدق الله ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ سورة الأحزاب آيه ٢١».

وكان صلوات الله وسلامه عليه مع هذه المثالية رحمة للأمة ﴿ **لقد جاءكم رسول من**

أنفسكم عزيز عليه ما عنتم. حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ سورة التوبة آيه ١٢٨.

جاء محمد : فغير المفاهيم - وحرر العقول، وطهر القلوب ، وهذب النفوس، وثبت فكرة التوحيد - وكون فى الأذهان أقوى أساس للمعرفة - وأظهر قاعدة للعبادة .

وبعد..

فما نريد أن يكون احتفالنا بالذكرى الغالية - كلاما يقال، أو حديثا يذاع، أو لحظات من التأمل والتجرد والتحسر.

بل نريد ميلادا جديدا : ميلادا لأفكارنا - ميلادا لأخلاقنا، ميلادا لمبادئنا ومثلنا. ميلاداً لحياة جديدة تعيش فيها أمة محمد على تعاليم محمد - وبهذا وحده يصدق الاحتفال بذكرى محمد.

محمد خاتم النبين

فشخصية الرسول العظيم محمد بن عبد الله - شخصية غنية بالمواهب، ثرية بالفضائل.

لقد تجمعت فيه كل صفات الكمال الإنسانى - فكان أهلاً للرسالة ﴿ **يأيها النبى، إنا أرسلناك شاهدا ، ومبشرا ، ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه ، وسراجا منيرا** ﴾سورة الأحزاب الآيتان ٤٥، ٤٦». وكان أهلاً للقدوة ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ سورة الأحزاب آيه ٢١» - وكان أهلاً للثناء الإلهى ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾سورة القلم آيه ٤».

وأروع ما فى شخصية محمد أمور ثلاثة :

بلوغ الكمال فى كل صفة وفضيلة - وتنوع شامل فى الصفات والفضائل - وتطابق صادق بين معرفة الفضيلة وبين السلوك فى حياة هذا الرسول العظيم.

وفى الجملة كان سلوكه فى كل مناحى الحياة وفقا لمراداة الله

وعهدنا بالعظماء أن ينفرد كل عظيم بصفة أو ميزة تعطيه معنى التفوق، وتضمن له صفحة فى سجل الخلود، فهذا عبقرى فى القيادة الحربية، وذاك نابغة فى الحكمة السياسية، أو المقدرة الإدارية، وثالث تجاوز حدود الطاقة فى اكتشاف أسرار الطبيعة وخبايا الكون، ورابع منحته الحياة شفافية وإلهاما فغنى للحياة وللناس أنغام الجمال، وهكذا تنوعت الميزات، ونال كل عظيم ميزته على تفاوت فى الحظوظ، واختلاف فى النتائج، وبُعْد أو قُرْب بين المعرفة والسلوك.

أما محمد - فآية الآيات فيه أن يكون قمة فى كل صفة، وأن يكون مركزاً تجمع فيه كل فضائل الحياة - وحقائق الخير على نحو يندر أن يتاح لإنسان، إلا أن تكون السماء قد أعدته لأمر عظيم.

ولقد يقال - إن السماء اختارت غيره من البشر فكانوا أنبياء، ورسلا، فهل منحتهم ما منحت محمدا من صفات وفضائل؟ والجواب : قطعا لا - فإن محمدا امتاز على الأنبياء - امتاز بالرسالة الشاملة، وبالكلمة الأخيرة، وبالمعجزة الباقية.

أما الرسالة الشاملة : فلأن كل رسول أرسل لقومه، أما محمد فقد أرسل إلى الناس كافة بل تجاوزت رسالته الإنس إلى الجن ﴿ **قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا** ﴾ سورة الجن الآيتان ١، ٢».

وأما الكلمة الأخيرة : فنعنى بها أن رسالة محمد هى الرسالة الأخيرة، وهى الدستور الباقى ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله، وخاتم النبيين** ﴾ سورة الأحزاب آيه ٤٠» والختام غاية الشئ، والغاية هى التمام والكمال ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾سورة المائدة آيه ٣».

وفى البخارى ومسلم عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأكملها وأحسنها، إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، فأنا اللبنة - خُتِم بى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام».

وقال صلى الله عليه وسلم : «فُضِّلت على الأنبياء بست - أعطيتُ جوامع الكلم، ونصُرت بالرعب، وأُحلت لى الغنائم، وجُعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، وأُرسلت إلى الخلق كافة ، وخُتم بى النبيون».

وروى مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «أنا محمد - وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يُمحى بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على عقبى، وأنا العاقب - والعاقب - الذى ليس بعده نبى».

وأما المعجزة الباقية : فهى القرآن ، كانت سنة الله أن يؤيد الرسول بمعجزة حسية ، تنتهى بزمنها أما معجزة محمد فلا تزال بيننا إلى اليوم، وستبقى إلى الأبد - وحياً يهدى، ونورا يضئ، وكتاب صدق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من

حكيم حميد» ﴿إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون﴾سورة الحجر آيه ٩».

والحكمة واضحة فى جمعه بين الرسالة الخاتمة، والمعجزة الباقية.

وتظهر عظمة محمد فى ميزان التقدير لأنه فتح القلوب قبل أن يفتح البلاد، وزود الإنسان بأطيب زاد، زوده بالإيمان والتقى، وزوده باليقين والرضا، وارتفع به فوق مراتب البشرية ليعيش فى رحاب الله.

قال واحد من رجال الفكر الغربى .

إن محمداً قد عرف عن الله حقيقة لم يعرفها الناس من حوله، وتمكنت من نفسه فكرة نشر هذه الحقيقة بين الناس، وإنه لخليق بهذا أن يساوى أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة. جازف بحياته فى سبيل الحق، وصبر على ألوان من الأذى والحقد والحرمان، ولم يَلِنْ أمام وعد أو وعيد».

وربما اهتدى إلى فكرة التوحيد آخرون، لكن أحدا فى العالم لم يُقم مثل ما أقام محمد من إيمان مكين دائم بالوحدانية. ولم يتمكن محمد من إقامة هذا الدين المتين، إلا بالعمق فى إيمانه : والصدق فى دعوته».

وما ذكره هذا المفكر نموذج من صفات محمد التى جعلته مثالا فى : صدق العقيدة، وقوة الإرادة ، واتساع الأفق، وكمال المنهج، ورجاحة العقل، وسماحة النفس، وسلامه الفكرة ، واتساع القلب، حتى أصبح فتحه للبلاد فتح إيمان، يملك القلوب قبل أن يملك الأرض. وبمثل هذا كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الرسل، وخاتم النبيين.

الجوانب الإنسانية فى حياة محمد

ولقد كانت حياة محمد صورة صادقة للكمال المطلق، امتازت بالمثالية والتنوع والغنى. وبرزت فى مجالات لا تخرج عن حدود الطاقة الإنسانية، لكنها لا ترتفع ، ولا تتنوع، ولا تتجمع، كما كانت فى هذا الإنسان العظيم.

ومن أعظم جوانب هذه الحياة - الجانب الإنسانى - ونعنى به الصفات التى تتصل بشخصيته كإنسان، صفات الأب والابن، والصديق والزوج، صفات الرجل حين يتعامل مع غيره فى شؤون الحياة الدنيا.

ولقد كان صلى الله عليه وسلم : أصدق الناس فى صفاته الإنسانية، وكان أنبل الناس فى طباعه البشرية، وكان محمد الإنسان هو محمداً الرسول . على فرق ما بين

الرسول والإنسان، التقى فيه الجانبان، على قدَر من الله، فكان صفوة خلق الله.

ولد يتيما - وعاش فقيرا إلى عطف الأبوة، وإلى حياة الأسرة الآمنة فى كنف الأب ورعايته، وتجمعت فى كيانه كل عوامل الشوق البشرى، إلى أسرة متآلفة، وذرية صالحة، وعمر يمتد على امتداد الأحفاد بعد الأبناء.

لكن إرادة الله شاءت غير ما تمنى - فانطوى على نفسه، ومضى يضم القلب فى صمت على صبر وشجن - وفكر وتأمل ولم تسعده الحياة بالأبوة كما لم تسعده بالبنوة - فقد مات كل أبنائه فى حياته إلا فاطمة، بقيت له ريحانة من ريحان الجنة يشم عبيرها - وامتد شوقه إلى الولد عشرين عاما حتى ولد له إبراهيم وهو شيخ فى الستين - وكانت فرحته بهذا الوليد تعادل شوقه الصابر ستين عاما، لكن العزيز الصغير يموت قبل أن يورق الأمل فى قلب أبيه الشيخ، وينطوى القلب الكبير من جديد على ماألف من حزن. وما كان محمد صلى الله عليه وسلم فى أعظم مواقفه الإنسانية، كما كان فى هذا اليوم الذى فقد فيه وليده إبراهيم.

هنا تقاس عظمة الإنسان، وهنا يعرف معدنه، وهنا تتجلى حقيقته، لقد صهرته نيران الحزن، وعصرت قلبه الفجيعة القاسية، ولكنه كان مثال الصبر والإيمان - مثال الرضا والاطمئنان، مثال القبول لإرادة الله، المصيبة كبيرة ولكن القلب أكبر، والامتحان شديد ولكن الإيمان أعمق.

حمل ابنه الغالى فى حجره، وجلس لحظات يودعه قبل أن يواريه التراب، وكان يستقبل الجبل بوجهه فقال : «يا جبل. لو كان بك مثل ما بي لهدك - ولكن . إنا لله، وإنا إليه راجعون».

وتلوح الدموع فى عينى الإنسان العظيم، وينظر المسلمون إلى حبيبهم فيتعجب بعضهم من بكائه، ويصرخ بعضهم تألما لألمه - وفى يقين الصابر يقول : «وكأنه يعلِّم المتعجبين» - «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنا لفراقك ياإبراهيم لمحزونون، ولكن لا نقول إلا مايرضى الله». وفى حكمة المعلم يقول «وكأنه يعلّم الصارخين» - «البكاء من الرحمة، والصراخ من الشيطان» .

وتشاء إرادة الله أن تنكسف الشمس فى هذا اليوم الحزين، ويحسب المسلمون أنها انكسفت لموت إبراهيم، لكن محمداً الإنسان، هو محمد الرسول، وحرصه على عقيدة

أمته أعظم من أن يهتز فى ساعة من ساعات الألم فيقول : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته». وبهذا يرد على المؤمنين إيمانهم.

هذا هو الحزن كما ينبغى أن يكون. حزن فيه كل لوعة الفقد والحرمان، ولكن : فيه يقين الصابر، وصبر المؤمن، وإيمان الواثق، وثقة الإنسان فى أعلى مراتب الإنسان.

حزن فيه الحكمة والهداية والرشاد. حزن فيه ارتباط الإنسان العظيم بالرسول العظيم، وهكذا كان محمد.

وجانب الأبوة فيه لا ينفصل عن جانب النبوة، ولقد كان إنسانا فى نبوته كما كان إنسانا فى أبوته :

جلس وهو شيخ فى الستين على قبر أمه فبكى مر البكاء - بكى لأنه لم ينس هذه الغالية التى رافقها فى بداية الحياة ست سنوات، ثم تركته صغيرا وحيدا يمتص حزنه ودموعه فى صمت، ووفدت عليه حليمة السعدية وقد بلغ الأربعين فرق لها رقة حانية، وكرم فيها الأمومة لأنها كانت فى طفولته وصباه قد أرضعته الغذاء والحنان.

وعاش يعز الجارية الحبشية «أم أيمن» ويبشرها بالجنة ، ويناديها أمى أمى، ويسعى لها فى حياة زوجية مطمئنة جزاء ما منحته من ود فى صباه، وما أعطته من معنى الأمومة يوم كان فى حاجة إلى هذا العطاء.

فهذا هو محمد الإنسان - إنسان فى نبوته - إنسان فى أبوته.

وكم فى حياته من ينابيع للفضائل الإنسانية الكريمة.

وهذا جانب آخر من الجوانب الإنسانية فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم - ونعنى به جانب الحياة الزوجية فى صفوها وغيمها، فى ما يعرض لها من وفاق وخلاف، وتقارب وتباعد، ونحن حين نعرض لهذا الجانب نكتفى بلمحات خاطفة ولكنها كافية لتؤكد ارتفاع المعانى الإنسانية فى حياة محمد.

● كان محمد إنسانا فى اختياره لزوجاته - وما اختار واحدة إلا فى ظلال المودة والإنسانية : .

- بالإنسانية والمودة اختار **(عائشة وحفصة)** ، وكلتاهما بنت صديق، فضم بالصهر إلى رحابه هذين الصديقين، بعد أن ضمهما بالعقيدة وتجاوب الأرواح - فكان مثالا فى تأليف الأصدقاء ورعايتهم.

- وبالإنسانية والمودة حفظ لـ **(سودة بنت زمعة)** كرامتها، بعد أن تركت الأهل والوطن فى سبيل دينها، ورحلت مع الزوج إلى الحبشة، وذاقت مرارة الغربة، ثم امتحنها القدر بفقد الزوج المهاجر، فاجتمع عليها مع الغربة وحشة الوحدة، وتعرضت للضياع والهوان، لولا هذا الإنسان الكبير محمد صلى الله عليه وسلم.

- وبالإنسانية والمودة حل مشكلة ابنة العمة **(زينب بنت جحش)**، بعد أن تعثرت حياتها الزوجية، وتعرض بيت إسلامى للانهيار، وتقدم الإنسان العظيم ليضرب المثل، ويشرع قانوناً يأبى أى عربى أن يكون هو موضع التجربة فيه إلا أن يكون على هذا المستوى الإنسانى الرفيع.

- وبالإنسانية والمودة اختار **(أم سلمة)** ليجبر خاطر مسلمة عجوز فقدت الزوج يوم أحد فى سبيل الدعوة واختار **(جورية بنت الحارث)** ليجبر خاطر عزيزة قوم ذلت فى الأسر.

- واختار **(رملة بنت أبى سفيان)** لأنها كانت غريبة مهجورة، تنصر زوجها فى الحبشة، وتركها للضياع والهوان.

هكذا اختار محمد زوجاته، تلبية لرقة إنسانية، أو نخوة عربية، أو نجدة كريم يأبى على المرأة المؤمنة أن تضيع وأن تهان - وهذا هو المعنى الإنسانى فى الاختيار.

● أما المعنى الإنسانى فى المعاملة فصورة رائعة من الرفق، تعددت مظاهرها وكثرت، وحسبنا هنا أن نشير إلى موقفين، يكفى واحد منهما ليثبت الحقيقة العظيمة فى حياة هذا الإنسان العظيم:

الأول : موقفه حين تقّول المفترون على عائشة - ونسبوا إليها قصة الإفك، ومسوا جانبا من جوانب العزة لها فى حياة كل عربى أعمق تقدير.

لقد كان غيره فى مثل موقفه هذا جديرا بالثورة والنقمة والعنف - لكن محمدا الإنسان - كان جديرا بالأناة والروية. والحكمة والهدوء، وبالثقة والبحث عن البينة حتى جاءت كلمة السماء تعلن عن عائشة ما هى أهل له من عفة وشرف، فاستجاب طبع الإنسان فى محمد لما توجبه عليه السماء من طبع الرسول.

الموقف الثانى : موقفه حين شكت زوجاته من حياة الكفاف، وطلبن زيادة النفقة، وهى موفورة لديه لو أراد - لكنه لم يستطع أن يحقق لهن ما يردن من متعة العيش ولين الطعام،

فخيرهن بين الفراق بالمعروف، أو الإمساك على حياة الحرمان، وأمهلهن شهرا ﴿ **يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما** ﴾«سورة الأحزاب الآيتان ٢٨، ٢٩».

فهو الفراق بمعروف أو الإمساك بمعروف - لا قوة ولا عنف- وإنما رقة إنسانية وسماحة رجل كريم وإنسان عظيم.

قد يكون حديثنا إلى الآن أمثلة إنسانية من حياة محمد الزوجية، وهى دليل عمل لأصحابه وأتباعه، لكن محمدا الإنسان يأبى أن يكتفى بذلك فهو يزيد الأمر إيضاحا بأقواله الجامعة .

استمع إليه وهو ينصح المسلمين بحسن معاملة نسائهم فيقول :

«أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا ، وخياركم خياركم لنسائهم».

واستمع إليه حين يأمر بمداراة ضعف المرأة فيجبر بإنسانيته ضعف الضعيف، ويخفف من شدة القوى.

«المرأة خلقت من ضلع - لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها - استمتعت بها، وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها».

ومحمد الزوج يلتقى مع القرآن الكريم كإنسان - كما يلتقى معه كرسول . والقرآن الكريم يقول : ﴿ **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** ﴾«سورة البقرة آيه ٢٢٨».

ويقول : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن، فعسى أن تكرهوا شيئا، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا** ﴾«سورة النساء آيه ١٩» وكلمة (المعروف) التى تكررت فى الآيتين هى أوفى الكلمات دلالة على المعنى الإنسانى فى معاملة المرأة.

هذا هو محمد الإنسان - أقام بيته على دعائم من المودة والألفة، ومن التعاون والمحبة - ومن الطمأنينة والثقة، وجعل للمرأة شخصية إنسانية فعاشت فى رحاب الإسلام عزيزة كريمة مصونة.

ومن الجوانب الإنسانية فى حياة محمد صلوات الله وسلامه عليه جانب الصداقة. ولقد كان محمد صديقا مخلصا، وأخاً وفيا لكل من عاشره، واختلط به. وكان فى

صداقته مثالا ينبغى أن يدرس دراسة موضوعية، وكان نموذجا للوفاء والحب ينبغى تحليله تحليلا علميا .وحسبى أن أشير إلى بعض الخصائص التى ظهرت فى صداقته، أسوقها فى إيجاز وتركيز : كانت صداقته **(عامة شاملة)** تناولت الكبير والصغير والغنى والفقير، والأبيض والأسود، وكان أصدقاؤه مجموعة من الناس تباينت مشاربهم، وتعددت طباعهم، وجمعهم كلهم على الحب والوفاء، صادق الأفذاذ من الرجال كأبى بكر وعمر، وصادق الفقراء من العبيد كبلال وسلمان، فلم تختلف صداقته للسيد القرشى عن صداقته للعبد الحبشى.

واتسعت مودته حتى شملت الصغار من الصبيان، وروى عنه أنه «كان أرحم الناس بالصبيان والعيال).

وعن أبى هريرة أن الأقرع بن حابس أبصر النبى صلى الله عليه وسلم يقبِّل الحسن فقال : «إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه من لا يَرْحَم لا يُرحم».

بل لقد بلغت مودته مداها حين تجاوزت الإنسان إلى الحيوان، وجعلت عطفه يشمل الجماد بعد الأحياء، فهو يحب قصعته التى يتناول فيها طعامه، ويسميها الغراء، وسيفه الذى يحارب به ويسميه ذا الفقار، وناقته التى يركبها ويسميها القصواء، هذه واحدة من صفات صداقته.

أما الثانية : فهى أن صداقة محمد كانت **«صداقة موصولة، ومودة دائمة»** صداقة لا ترتبط بزمن، ولا تتصل بهدف، إنما ينقطع الود إذا كان وليد غاية، أو نتيجة غرض، وإنما يدوم الوداد إذا اتصل بالعاطفة الإنسانية الرحيبة، وتجرد من نزعة الهوى، وبهذا تتحقق فيه قيمة إنسانية أخرى هى (الصدق والنقاء).

- ومن خصائص الصداقة المحمدية أنها صداقة تقوم على (الالتقاء والتبادل - والأخذ والعطاء) فهو يحب أصدقاءه على تنوعهم، وهم يحبونه أيضا على هذا التنوع، وتبادل الحب دليل الصدق فيه، وليس يكفى أن تحب الناس ليكون ذلك دليلاً على نقاء معدنك، وصفاء جوهرك إنما يجب أن يحبك الناس، وأن تكون أهلا لهذا الحب - ولقد أحب أصحاب محمد محمداً حباً يجل عن الوصف والبيان.

اشترى صفوان بن أمية زيد بن اليثنية ليقتله - وكان زيد من السابقين إلى الإسلام،

فلماً شد وثاقه تجمع المشركون حوله ساخرين منه، شامتين فيه، وتقدم منه أبو سفيان يقول : (يا زيد - أتحب أن محمداً الآن عندنا فى مكانك تضرب عنقه، وأنت فى أهلك؟) فأجابه زيد (والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالس فى أهلى». فهذه شهادة صدق يقولها صديق معروض على السيف للقتل - يقولها فى اللحظة التى تهون فيهاالدنيا كلها من أجل برهة من حياة فيأبى الحياة كلها مقابل أن يصاب محمد بشوكة.

وهذا بلال جاءه الموت، وأحاط به أهله يبكون ويصرخون **«واكرباه»** وكان هو بعيدا عن كربهم، كان فى شوق إلى لقاء الصديق الحبيب محمد فقال (واطرباه - غدا ألقى الأحبة - محمداً وصحبه»).

ولا أريد أن أذكر قصة الأخوة التى جمع فيها محمد بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فلقد يقال : إن هذا عمل من أعمال النبوة. وأن الأخوة بين المؤمنين صفة من صفات محمد الرسول - وأنا هنا أتحدث عن محمد الإنسان، وصداقة محمد الإنسان.

إن الذين صادقوا محمدا وأحبوه فعلوا ذلك لأمرين : لأنه رسول يهديهم، ويعلمهم، ولإنه إنســان يمنحـهم الحب والأخـوة والمودة دون تفـريق بين لون ولون، أو بين جنس وجنس، لقد كانت صداقته سمة إنسانية، فيها المودة الرحيبة، والذوق الرقيق، والمشاعر النبيلة، وفيها إلى جانب ذلك : السماحة، والشفافية، والنقاء، والوفاء.

وأجمل ما يمكن أن يقال فى إبراز هذا الجانب الإنسانى من حياة محمد هو أصدق ما يقال - وهو قول الله :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾«سورة التوبة آيه ١٢٨».

ولقد يقال : إن الصداقة نوع من الحب المتبادل، يستوى فيه الطرفان، وينتفع الصديقان، وإن التعامل مع الأصدقاء لا يكشف عن جوهر الإنسان، والرجل لا يعرف فى السراء كما يعرف فى الضراء، ولهذا نريد أن نتحدث عن إنسانية محمد فى معاملته لأعدائه - وأسارع إلى القول بأن محمدا لم يكن عدواً لأحد، وعلى طول عمره، وتحمله لأعباء عمل ضخم، وتعرضه للكثير من الأذى فإنه لم يحمل فى قلبه ضغينة لإنسان ولم يضم جوانحه على حقد أو كره لمخلوق - بل كان دائما : سمحاً ودوداً،

صافيا، مترفعا حتى عن التفكير فى الانتقام - وهذا وحده دليل على كمال محمد الإنسان، والتاريخ غنى بالأمثلة التى ضربها محمد فصارت مثلا فى التسامح والعفو والنبل فى المعاملة :

- كان صلى الله عليه وسلم نائما تحت شجرة، ورآه أحد المشركين فأسرع إليه، ورفع سيفه ليهوى به عليه وهو يقول : من يمنعك منى الآن؟ فقال صلى الله عليه وسلم : **(اللـه)** فسقط السيف من يد الرجل، فأخذه الرسول وقال للرجل : ومن يعصمك منى الآن؟ فقال الرجل : كن خير آخذ - فعفا عنه محمد صلوات الله وسلامه عليه، وهذا عمل لا يمكن فى تاريخ الناس أن يصدر من بشر حتى ولو كان نبيا إلا أن يكون محمداً.

- ولقد نعلم جميعا كيف تصرف مع عبدالله بن أبى رأس المنافقين - وعبدالله هذا عاهد وغدر، وكاد لمحمد وأشاع عنه أحاديث السوء ، وجرحه فى أعز ما يحرص عليه العربى الأبى - لقد قابل محمد ذلك كله بالصفح والغفران، وصلى عليه حين مات، وذهب إلى قبره فى موقف من مواقف السمو الإنسانى يندر أن يكون له مثيل.

- ولقد نعلم جميعا أنه خرج من مكة إلى الطائف يدعو قومها إلى الإسلام والخير فسلطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة حتى أسالوا الدم من عقبيه الشريفين، وتنازعته عوامل الأسى والألم، وأحس بالحاجة إلى عون روحى من السماء فاتجه إلى الله بكلماته الخالدات :

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس - يا أرحم الراحمين - أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى/ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى...». ماذا فعل هذا الإنسان الذى شكا إلى الله ضعف القوة. وقلة الحيلة، والهوان على الناس؟ ماذا فعل حين مكنته السماء من الانتقام؟ لم يزد على الكلمة الرحيمة التى تليق بإنسانيته «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» . وهكذا نجد غاية العدوان تقابل بسماحة الغفران، وطغيان السفه والحقد يقابله جلال الرفق والعفو.

- ونحن نعلم أن قومه أخرجوه من مكة فى قصة قاسية مؤلمة، ترك فيها الوطن والديار ، وفارق الأهل والأحبة - ثم لاحقوه هناك فى ديار الغربة بألوان من المؤامرات، وصور من الحرب الدامية وكان ذلك جديرا بأن يقطع ما بينه وبينهم من علاقات، وأن يورث نيران الحقد فى القلوب، فلما مكنه الله منهم، وتم له النصر عليهم، ودخل مكة

فى يوم الفتح الأكبر وقفوا أمامه صاغرين، وسألهم : ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا خيرا. أخ كريم، وابن أخ كريم فقال والدنيا كلها تسمع، والتاريخ يحفظ ويشهد : اذهبوا فأنتم الطلقاء. لقد عرفوه فقالوا ما قالوا - وعرف نفسه فقال ما قال . فهل فى تاريخ الإنسانية كلها - قديمها وحديثها - غربيها وشرقيها من يرتفع إلى هذا المستوى الإنسانى ؟.

ومحمد الإنسان هو الذى عفا عن الأسرى فى غزوة بدر، وآثر الفداء على الدماء، ولقى فى ذلك العتاب من ربه ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم** ﴾«سورة الأنفال آيه ٦٧».

إن عفو محمد عن أعدائه كان عفو القادر - لا يعفو إلا وهو فى موقف القوة، وهنا يتحقق المعنى الإنسانى فى معاملة الأعداء، وينتهى دائما بالخير.

جاءه أعرابى ذات يوم يطلب ما لا - فلما أعطاه سأله : أحسنت إليك؟ - قال الأعرابى (لا ولا أجملت) - فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه، فمنعهم الرسول، ثم دعا الأعرابى إلى بيته فزاد فى عطائه، وسأله : أحسنت إليك؟ - قال الأعرابى : (نعم - فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا) وعلمه الرسول أن يعيد هذا القول على الصحابة - ثم قال لهم :

«إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه، فاتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفورا · فقال لهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى فأنا أرفق بها، وأنا أعلم بها - فتوجه إليها، وأخذ لها من قشام الأرض، ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها. وإنى لو أطعتكم حيث قال ما قال لدخل النار».

هذه صورة من تعامل محمد مع الأعداء، وهى صور نبعت من قلبه الإنساني قبل أن تكون بعض تعاليمه كرسول.

وصدق الله - حين قال لمحمد الإنسان ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾«سورة القلم آيه ٤».

أيها الناس :

صلوا وسلموا - رحمكم الله - على صاحب الذكرى العطرة وأقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

دروس من الهجرة

الحمد لله ذى الجلال والإكرام، والصلاة والسلام على أجل خطيب وأنبل إمام وعلى آله وصحبه ما شدا حمام وهطل غمام واكتمل بدر التمام..

فلعلَّ أصدق مقياس تقاس به عظائم الأمور هو مقدار ما تترك فى التاريخ من آثار، ومقدار ما تترك فى المجتمعات من دروس وعبر.

وأصدق ما يقال عن الهجرة / أنها عمل عظيم خالد - له فى التاريخ أثر لايعدله أثر، ونتائج لا تساويها نتائج - أبرز الإسلام من دائرة الوجدان والضمير، إلى دنيا الحقيقة والواقع - كان عقيدة مكتومة فأصبح دعوة معروفة، وكان فكرة تنير القلب، وتصل العبد بالرب فصار دولة تضع المبادئ، وتسنّ القوانين، وتحمل راية العدالة والتحرير، وأصدق ما يقال عن الهجرة أنها مدرسة، تقدم لنا الدروس، وترينا كيف يتحول التاريخ، وكيف تتغير الدنيا، وكيف تصبح الفكرة الجنينة دولة تجد الدنيا فى رحابها الأمن والأمان.

وأول درس نتعلمه من الهجرة هو (المرونة والتحرك) بدلا من الجمود والتوقف.

لقد قوبل المسلمون بألوان من الحرب النفسية، والقسوة البدنية - وتحمل صاحب الدعوة وصبر، وتحمّل المسلمون من ورائه وصبروا، فلما خرج الأمر عن حدود الطاقة البشرية، وأراد الله أن يقدم لنا نموذج التصرف السليم فى الموقف الخطير، ولما لم يكن بد من أن يهاجر محمد بدعوته إلى أرض جديدة هاجر - لكنه وضع للهجرة تخطيطا مدروسا، فلم يخرج إلى حيث تشاء الظروف، ولم يختر أى مكان ترغمه عليه الأحداثُ، ولم يسافر فور اختياره لهذا المكان.

لقد التقى بالوفود، ودرس الطباع، وعرف الناس، ووجد جماعة صالحة، فغرس فى النفوس بذرة الدعوة، ورواها بالحب واليقين، وترك البذور تفعل فعلها فى الضمائر، وتجذب نحوها مَن يَشُمُّ عبير الأمان فى البلد المحروب، ويَعْرف معنى العطاء فى المجتمع المحروم، فلما كثر الجمع، وتهيأت البيئة بعث إليهم من يُعدهم، ويفقههم فى دينهم، ويرعى غراس العقيدة، ولَما تمكنت الفكرة فى كل قلب، وانتشرت فى كل بيت،

وأصبحت يثرب أرضا صالحة للهجرة هاجر - وبهذا وضع الرسول لنا مبدأين - مبدأ الهجرة - ومبدأ الدراسة والتخطيط.

أما مبدأ الهجرة فشريعة إلهية، وسُنة منطقية يتضمن التشريع لها قول الله تعالى : ﴿ **إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم - قالوا كنا مستضعفين فى الأرض - قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾ سورة النساء آية ٩٧ - نزلت الآيات فى قوم من المسلمين تخلفوا عن الهجرة مع رسول الله، ثم أجبرهم المشركون على الخروج يوم بدر فقتل بعضهم فى المعركة، وتحدث الناس عنهم، فصورت الآيات موقفهم، وقالت إنهم ظلموا أنفسهم حين تركوا الهجرة مع قدرتهم عليها - فالهجرة أمر مشروع، وهى فى سبيل الله - سواء أكانت فى سبيل العقيدة أو فى سبيل الرزق، وصدق الله : ﴿ **ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة - ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله** ﴾ سورة النساء آية ١٠٠ - فالهجرة غاية - بعدها الخيرُ والسَّعة.

ولقد ثبت فى الصحيحين عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : «إنما الأعمال بالنيات - وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وأما مبدأ التخطيط فيتضح فى أمور كثيرة - فإن محمدا صلوات الله وسلامه عليه أرسل أتباعه إلى بقاع مختلفة.

إلى الحبشة - وإلى يثرب، وخرج هو إلى الطائف، وكان بذلك يتعرف إلى الناس، ويبحث عن الأرض الصالحة للدعوة، ولما استقر عزمه على الهجرة اختار يثرب/ لما له فيها من أهل وعشيرة، ولما له فيها من أتباع وأصحاب، وحدد الموعد فى ضميره، وكتم الأمر فى نفسه، واختار البديل فى فراشه، والرفيق فى سفره، وردّ الودائع والأمانات، وأعد الزاد والراحلة، ووضع كل شىء حيث يجب أن يوضع، فلما حانت الساعة جعلها ساعة ليل تهدأ فيها الطريق، ويغفل فيها الرقيب، ثم اتجه إلى الجنوب والشمال مقصده، وآوى إلى الغار ينتظر والإسراع أولى به - وكان معه بعد ذلك كله، وقبل ذلك كله - نصُر الله :﴿ **إلا تنصروه فقد نصره الله - إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين، إذ هما فى الغار، إذ يقول**

لصاحبه لا تحزن - إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هى العليا - والله عزيز حكيم﴾ سورة التوبة آية ٤٠.

وهذا درسٌ فيه دروس - وعِبرة فيها عبر - وعظة تجْمع الكثير من العظات.

وسيطلع هلال، ويغيب قمر، وسيأتى ليل يعقُبه نهار - وستبقى الهجرة كما كانت دائما دروساً وعظات.

وسنبقى فى موقف الذكرى نرقب الهلال : صورةً مشرفة لعمل عظيم خالد - وبشرى مورقة بالخير والنصر :

أيُّها الطالع الحبيبُ حنانا   يملأ الكون بهجة وأمانا
ياقرين الأمجاد والحب والنصر   ورمزا نُجِل فيه الزمانا
صحبَ الهجرة المجيدة عيدا   ألمعيًّا يحرر الإنسانا.

أيها الأخ الكريم

إن الباحث فى موضوع الهجرة يجد فيه الكثير من المبادئ والمثل، ويأخذ منه ألوانا من الدروس والقيم - وإذا كنا قد وقفنا قبل عند درس واحد رأينا فيه دروسا، فنحن على موعد مع دروس أخرى :

أولها : درس (اليقين والثقة) - وأنت إذا بحثت موقف كل من شارك بعمل فى الهجرة وجدت هذا الدرس :

باليقين والثقة أقدم على بن أبى طالب على المبيت فى فراش محمد، وهو يعلم أنه مطلوب، وأن دمه مطلول، وأن القبائل قد اجتمعت على قتله - لكن قلبه كان عامرا باليقين والثقة، فلم يمنعه سيف يلمع فى ظلام الليل، ولا جماعة تدور حول البيت، ولا وحدة ترافقه فى الفراش. وباليقين والثقة أقدم أبو بكر على الصحبة، وكان الصديق الوفى المخلص - ترك بيته وأهله، ومغانم تجارته، وتنازل عن مكانة مرموقة بين قومه، وقومه سادة بين الأقوام - ترك ذلك كله، وخرج مع صاحبه، محبا وفيا مضحيا - يحميه بروحه وبدنه ووجدانه، ويفديه بولده وماله ومنزلته وحياته - وباليقين والثقة فعل ذلك كله.

وأسماء - الفتاة الصغيرة تمضى فى لهيب الصحراء، تكاد جمرات الحصى تشوى

قدميها. وتكاد أصابع أبى جهل تمزق صدغيها، ويكاد عودها الغض أن يصير طعاما لوحش جائع من بنى الإنسان أو الحيوان، لكنها لا تبالى لأنها تسير فى ظلال الثقة واليقين.

ومحمد ﷺ - يكون فى موقف يرتفع فيه عن ضعف الإنسان حين لا يكون للضعف مكان، ويرتفع فيه إلى ذروة اليقين حين لا يكون ثمة إلا اليقين.

باليقين فارق الحىّ والدار، وترك الأهل والمنازل، ونسى مرابع الصبا ومراتع الشباب، إن كان له فى الصبا والشباب مرابع ومراتع.

وباليقين أقدم على المجهول، وما فى الدنيا أخوف من المجهول - وأخوف ما يكون الإنسان من غده حين يحمل عبء رسالة - وأمانة دعوة - لكنها العقيدة : نسى فى سبيلها كلَّ ما كان، ولم يعد أمامه إلا ما سيكون - وبهذا حقق القيمة الكبيرة للكفاح والجهاد والصبر.

وباليقين خرج فى رداء الليل - يلفُّه ستار من الثقة، وتكسوه ثياب من السكينة، وتدفعه روعة اليقين إلى قبضة من تراب يلقى بها فى وجوه القوم، والزمن يسجل كلمته «شاهت الوجوه» ثم ترك القوم ومضى، وخلفه بقايا من تراب منثور على رؤوسهم، وغشاوة تغطى على قلوبهم وعـــيـــونهم ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾سورة يس آية ٩.

وباليقين والثقة ملأ قلب أبى بكر بالطمأنينة، وحدثه حديث الأمنة والجلد والتحمل ﴿ **إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين - إذ هما فى الغار - إذ يقول لصاحبه لا تحزن - إن الله معنا** ﴾ سورة التوبة آية ٤٠ - (إن الله معنا) - هذه هى الثقة الكاملة، وهذا هو اليقين الواضح. وما كان خوف أبى بكر على نفسه - وإنما كان خوفا على صاحبه، وعلى دعوته - وما كان لمثل هذين الصاحبين إلا نصر الله وتأييده : ﴿ **فأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هى العليا - والله عزيز حكيم** ﴾ سورة التوبة آية ٤٠.

وثانى هذه الدروس - (الصبر) - ولقد علمتنا الأيام أن النصر وليد الصبر، وأن النجاح وليد الكفاح - وما كانت هجرة محمد مجرد رحلة من مكة إلى المدينة - لكنها

كانت رحلة جهاد ومشقة، ونقطة تحول فى التاريخ، وعملا عظيما يتبعه عمل عظيم دعا إليه القرآن الكريم عقب آية الهجرة حيث قال : ﴿**انفروا خفافا وثقالا - وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾سورة التوبة آية ٤١ - ومعنى (خفافا وثقالا) شبابا وكهولا، أغنياء وفقراء، فى اليسر والعُسر - فهى دعوة إلى المشقة والجهاد والتعب، وأمر من الله، للكبير والصغير، والغنى والفقير، فالإسلام يربى أتباعه على المشقة، ولا يقبل منهم ترفا ولينا.

وثالث الدروس : أن الهجرة لم تكن هروبا - بل كانت تصميما، ولم تكن فرارا بل كانت إصرارا، وما هاجر الرسول والمؤمنون لينعموا بالإقامة والطعام والشراب والأمان - بل هاجروا ليبدأوا جهادا من نوع أعظم، وليؤدوا واجبا أكبر.

كانوا قبل الهجرة يُرمون بالكلمة النابية، ويضربون بالحجر الصلد، أو يعانون من مشقة القطيعة والجوع - لكنهم بعد الهجرة قوبلوا بالسيف والدم، وتجمعت عليهم الجيوش الزاحفة، والمؤامرات الدنيئة - وبلغت بهم الشدائد حدا زاغت فيه الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر. ﴿**هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا**﴾ سورة الأحزاب آية ١١.

لم تكن الهجرة رحلة - بل كانت معركة، ولم تكن نهاية شدة، بل كانت بداية محنة. ولم تكن إدبارا عن اللقاء، بل كانت إقبالا على البلاء.

بها انتهى عهد وبدأ عهد - وزال سلطان وقام سلطان - وتحقق للمسلمين النصر. بها أشرقت الأرض بنور ربها، وارتفعت راية الإسلام على ربوع الأرض تخفق بالعدل، وتظلل الناسَ بالحرية والأمان والسلام.

والله المستعان وهو الهادى إلى سواء السبيل

عباد الرحمن - وأوصافهم

التواضع

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله جل وعلا، من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له خلقنا لعبادته وإعمار الكون بشرعه وفطرنا على الحق وأشهدنا على أنفسنا أنه الحق.

وأشهد أن سيدنا ونبينا وقائدنا وقدوتنا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح الله به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا وربى جيلا ربانيا فتح الدنيا كلها بنور العقيدة وصفاء العبادة ومحاسن الأخلاق فاللهم اجزه عنا وعن الإسلام خير ما جزيت به نبيا عن قومه ورسولا عن أمته.

أما بعد..

فقد حدثنا القرآن الكريم فى عبارته القوية الآسرة حديث «عباد الرحمن» الذين اصطفاهم وقربهم.. وأعطاهم من نعيم الرضا ما يلائم فضله، ويناسب خيره - هم عباده وأحبابه، وهم أولياؤه وخلصاؤه، ﴿**ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾. سورة يونس الآية ٦٢.

ولقد صور القرآن الكريم هؤلاء العباد فى صورة واضحة متكاملة، خطوطها من الطاعة والتقوى - وألوانها من الرجاء والنجوى، وحدودها هى الكمال الإنسانى فى قمته - وهى صورة من البلاغة والإيجاز - فيها ما فى كل صور القرآن من إعجاز - فيها سحر وقوة، وفيها دعوة إلى الصفاء وروعه. قال الله تعالى : ﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا - وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما - والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما - والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما - إنها ساءت مستقرا ومقاما، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما - والذين لا يدعون مع الله إلها آخر، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاما، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا - إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات - وكان الله غفورا رحيما**﴾**صدق الله العظيم** سورة الفرقان آيات ٦٣ : ٧٠.

ونقف اليوم عند الصفة الأولى لعباد الرحمن - وقد عبرت عنها الآية تعبيرا موجزاً رائعا ﴿ **الذين يمشون على الأرض هونا** ﴾.

لقد فهم المسلمون الآية على صورتين : الأولى : صورة الضعف والذلة، صورة الإنسان يمشي في جانب الطريق قد أثقلته الأحزان، وعلاه الهوان - يتوارى من الناس كأنما يريد أن يختفي في ظلال الحصى لو استطاع. وهذه صورة كاذبة خادعة، بعيدة عن غاية الإسلام في تربية أتباعه على العزة والكرامة - وما يحاول أن يتظاهر به بعض الناس من ضعف واستسلام إنما هو لون من الرياء والنفاق وخداع المجتمع، لون من التصنع والتكلف المهين، يرفضه الإسلام، وتأباه العزة المحمدية - قال صلى الله عليه وسلم «طوبى لمن تواضع من غير منقصة، وذل في نفسه من غير مسكنة». ورأى عمر بن الخطاب شابا يمشي على هذه الصورة فقال له : ما بالك؟ أأنت مريض؟ قال لا يا أمير المؤمنين - فعلاه بالدرة، وأمره أن يمشي بقوة - ولقد كان رسول الله يمشي في قوة كأنما يخط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له - ولنا فيه القدوة الحسنة.

أما الصورة الثانية التي أرادها الله لعباده فهي صورة الوقار والجلال - صورة السكينة والاتزان - صورة تظهر للناس بالحياة والنضارة والإشراق والبهاء - صورة من يقول «الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن».

(فالهون) في الآية معناه الوقار والجلال والسكينة - لكن ذلك مشروط بالبعد عن الخيلاء والكبرياء - لأن الإسلام لا يريد من (عباد الرحمن) أن يتركوا الذلة الكاذبة إلى الكبرياء والبطر والاستعلاء. نحن أمة وسط، وملتنا البيضاء تمشي على طريق الخير والفضيلة دون تفريط أو إفراط . ويتنافى مع (الجلال والوقار) ما يلجأ إليه بعض الناس حين يسرعون إلى الصلاة في هرولة تذهب بالهيبة والكمال - والله سبحانه وتعالى لم يرد من المسلمين هذا حين دعاهم إلى صلاة الجمعة في سعي وهمة ﴿ **إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ سورة الجمعة آية ٩ - فلقد قال صلى الله عليه وسلم ((**إذا أتيتم الصلاة فلا تاتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم منها فصلوا - وما فاتكم فأتموا**)). إذن فالمراد بالسعي في الآية الكريمة السعي الذي لا يتنافى مع ما يفرضه الإسلام على رجاله من كمال ووقار.

ونؤكد ما قلناه من أن صورة الوقار والجلال تبتعد تماما بالمسلم عن الكبرياء والغرور - والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **إنه لا يحب المستكبرين..** ﴾سورة النحل آيه ٢٣. ﴿ **أليس**

في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾سورة الزمر آيه ٦٠. ويقول رداً للإنسان فى طغيانه ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ سورة الإسراء آية ٣٨ - ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق - خلق من ماء دافق - يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ سورة الطارق آيات ٥ : ٧. ويقول : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره، من أى شئ خلقه؟ من نطفة خلقه فقدره ﴾ سورة عبس آيات ١٧ : ١٩.

الصورة الصحيحة لعباد الرحمن تنفر من الذلة والهوان - وتأبى الاستعلاء والبطر والطغيان - وتقف بالعبد فى حدود السكينة والوقار والهيبة.

الصورة الصحيحة هى صورة الحسن رضى الله عنه حين قيل له : ما أعظمك فى نفسك، فقال : إنما أنا مسلم - ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾سورة المنافقون آيه ٨.

حسن الخلق

أما عن الصفة الثانية المفهومة من قوله تعالى : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾سورة الفرقان آيه ٦٣.

العبد المؤمن بربه يكون دائما سمح النفس، رحب الصدر - ويكون دائما عف اللسان، نقى الوجدان - يتبع السيئة بالحسنة، ويقابل الجهل بالحلم، وإذا اعتدى عليه جاهل بالقول أو بالفعل عفا وصفح، ولم يقل إلا خيرا وسلاما ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾ سورة القصص آيه ٥٥. وعباد الرحمن هم المتقون، والمتقون هم الكاظمون الغيظ، والعافون عن الناس، ويزيدون على ذلك إحسانا وكرما ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ سورة آل عمران آيه ١٣٤.

والسلام هو رسالة الإسلام، منه أخذ اسمه، وفى حدوده دارت تعاليمه ، ولا يكون المؤمن كامل الإيمان إلا إذا أسلم قلبه ووجدانه وجوارحه لله رب العالمين، وهكذا علمنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه - علمنا بالفعل وبالقول - فقد كان خلقه القرآن - وسأله رجل عن حسن الخلق فتلا قول الله تعالى : ﴿ خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين ﴾ سورة الأعراف آيه ٩٩. ثم قال صلى الله عليه وسلم مبينا حسن الخلق «هو أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك» - وهذه ثلاث صور للعدوان يوضحها الصادق الأمين فى حديثه - أفليست القطيعة والمخاصمة لونا من العدوان يجرح الإحساس، ويثير فى النفس كوامن الألم؟ أو ليس الحرمان عدوانا بشعا على حقك يثير حفيظتك ويوقد نار عداوتك؟ أو ليس الظلم قمة العدوان وغايته، وآثاره تبقى

فى النفس دهرا طويلا تثير الحقد والكراهية وتدفع إلى الثأر، أو ليس ظلم القريب أو الصديق سكينا يمزق القلب - بل هو أشد وأقسى كما قال شاعرنا العربى:

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند؟

فإذا جاء المؤمن الصالح بعد ذلك فسما على كل دوافع الحقد والكراهية، ونسى كل أسباب الشر، وقابل القطيعة بالصلة، والحرمان بالعطاء، والظلم بالعفو كان عبدا من عباد الرحمن يستحق أن يضمه الله إلى رحابه، وأن يمجد فعله فى كتابه - وصدق الرسول الكريم «أثقل ما يوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق».

واختصم رجلان أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل أحدهما يسب الآخر، والثانى يقول (عليك السلام) فقال له الرسول (أما إن ملكا بينكما يذب عنك - كلما شتمك هذا قال له : بل أنت، وأنت به أحق - وإذا قلت له : وعليك السلام قال : لا بل عليك ، وأنت أحق به».

ولا يظن أحد أن حسن الخلق معناه الضعف والذلة، أو التهاون وقبول العدوان، وامتهان النفس وإيثار السلامة جبنا - لا فالمسلم قوى عزيز، والإسلام ربانا على العزة وإباء الضيم - وإنما المراد هنا بالصفح وإيثار السلامة أن تعفو من موقف المقدرة، وأن تصفح وأنت قادر على أخذ حقك، وأن تتسامح فيما تستطيع الحصول عليه - بهذا وبهذا وحده تظهر حقيقة النفس المؤمنة الصافية، ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم لين الجانب، سمحاً مع كل إنسان، وبرز تسامحه ونقاء خلقه مع الضعاف من الخدم قال أنس : «خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط، ولا قال لشئ صنعته لم صنعته ولا لشئ تركته لم تركته» إنه سمو النفس، إنها صفات النبوة الكريمة تجعله لنا دائما قدوة حسنة، كان صلى الله عليه وسلم نائما تحت شجرة فوقف على رأسه رجل من المشركين وبيده السيف وقال : يا محمد من يمنعك منى الآن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الله - فسقط السيف من يد الرجل - فأخذه الرسول وقال : ومن يمنعك منى الآن ؟ فقال الرجل : كن خير آخذ - فعفا عنه الرسول الكريم وقال : اذهب فأنت حر - هل بعد هذا سماحة؟ هل بعد هذا صفح؟ هل بعد هذا سمو روحى، وسلام قلبى؟ - وماذا كانت النتيجة؟ كان أن استولى على قلب الرجل ومشاعره فاندفع يقول : أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله - وهكذا تحقق قول الله ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** ﴾ سورة فصلت آيه ٣٤.

ولقد عذب المشركون محمدا وصحبه، آذوهم فى أموالهم وفى أنفسهم، وأذاقوهم الجوع والحرمان، ودبروا أمر قتله صلى الله عليه وسلم، وأخرجوه من وطنه وأهله، وظلموه ظلما لم يسبق له مثيل فى تاريخ الإنسانية - فلما أمكنه الله منهم، وعاد إليهم ظافرا منتصرا وحطم أصنامهم، وأذل كبرياءهم وتوقعوا منه كل شئ. قال لهم : ماتظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم - وقد كان - لقد قال عبارته التى ملأت سمع الوجود، وهزت تاريخ الإنسان : (اذهبوا فأنتم الطلقاء) ومضت كلمته الخالدة على الزمن لتثبت أنه أول عباد الرحمن سماحة وصفاء نفس، ونقاء سريرة وصدق الله ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾سورة الفرقان آيه ٦٣.

يبيتون سجدا وقياما

ومن أروع الصفات التى مدح الله بها عباده وأصفياءه - ما ورد فى قوله تعالى : ﴿ **والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما، إنها ساءت مستقرا ومقاما** ﴾ سورة الفرقان آيات ٦٤ : ٦٦. فهم عباد خالصون لربهم نهارهم فى العمل والطاعة، وليلهم بين الأمنة والعبادة، هم بين راكع وساجد، وضارع وقائم ﴿ **كانوا قليلا من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ سورة الذاريات آيات ١٧، ١٨. ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا** ﴾ سورة السجدة آيه ١٦. ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما، يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه؟** ﴾ سورة الزمر آيه ٩.

وعبادة الله فى الليل لها حلاوة، وفيها لذة ومتعة - يشعر العبد فيها بالقرب من بارئه، ويرى الكون كله نجوى وصلاة ، ويحس أن الدنيا قد تجمعت فصارت وحدة هائمة فى جلال الله، سابحة فى بحار من نوره.

وعباد الرحمن ينتظرون الليل فى شوق ولهفة - حتى إذا ما جنهم الظلام، ومضى كل إلى غايته، وخلا كل برغبته - نصبوا لله أقدامهم. وافترشوا وجوههم ، وأذلوا جباههم، وملأت العبرات عيونهم، وسالت أنوار الرضوان فى قلوبهم، وحفتهم الملائكة بروحانية حانية صافية - وكان المألوف فى التعبير أن يقال (**يبيتون سجدا وقياما لربهم**) لكن الآية الكريمة قالت ﴿ **يبيتون لربهم سجدا وقياما** ﴾ سورة الفرقان آيه ٦٤. دلالة على أن السجود والقيام لله وحده لا شريك له فيهما لأن التقديم يفيد التخصيص - لقد تركوا الدنيا كلها وراء ظهورهم، ونسوا ما فيها من متاع وزينة، وطرقوا باب الله الذى لا يرد سائلا، ولا يخيب راجيا - وبهذا التعبير أيضا دلت الآية على أن ليلهم كله لله. لا يحتفظون منه

بشئ لأنفسهم، ولا لأهلهم ، ولا لأموالهم، ودلت على أنهم اختاروا وقت البيات والراحة للعمل والطاعة، فاستبدلوا براحتهم عبادة، وبنومهم سهرا. وبهذا استحقوا أن يكونوا من عباد الرحمن.

ولعل سائلا يسأل : وكيف يستطيع إنسان أن يظل ليله كله ساهرا عابدا؟ وهل فى مقدور الطاقة البشرية أن تفعل ذلك؟ ولعلنا لا نعدو الصواب حين نقول : إن الله تعالى لم يطلب من عباده أن يقضوا الليل كله فى طاعته، بل جرت سنته فى خلقه أن يجعل لأبدانهم حقا، وأن يكون العبد بين الطاعة والعمل من جهة، وبين الراحة والنوم من جهة أخرى ﴿ **وجعلنا نومكم سباتا، وجعلنا الليل لباسا، وجعلنا النهار معاشا** ﴾ سورة النبأ آيات ٩ : ١١. ولم يطلب جل جلاله حتى من الرسول العظيم أن يقوم الليل كله - بل قال له : ﴿ **قم الليل إلا قليلا - نصفه أو انقص منه قليلا، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا** ﴾ سورة المزمل آيات ٢ : ٤ - ولهذا جاءت آيات أخرى قاطعة فى دلالتها على هذا المعنى ﴿ **هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ سورة يونس آيه ٦٧. ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه** ﴾ سورة القصص آيه ٧٢.

فالليل - بإرادة الله - سكن وطمأنينة وراحة - والنوم - برحمته تعالى - أمن وسلامة ﴿ **إذ يغشيكم النعاس أمنة منه** ﴾ سورة الأنفال آية ١١. ففى النوم أمنة للقلب، وانصراف عن هموم الدنيا ومشكلات العيش - ولهذا يرى بعض العابدين أن من قضى ليله بين العبادة والنوم حسن وجهه يقول : ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ **ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ سورة الزمر آية ٢٣. فقد وصفت الجلود باللين والطراوة وهما من ألوان الحسن - ولقد روى «من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار».

وجميل معا أن نشير هنا إلى أن عبادة الليل تكسب العابد علما - اقرأوا معى مرة أخرى قول الله : ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه - قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ سورة الزمر آية ٩.

فوصف القائم بالعلم، ورفعه فى مقام الموازنة عن الذين لا يعلمون، وبالتالى لا يسجدون ولايقومون ولعل من رحمة الله أنه جعل النوم نفسه عبادة، وذلك مشروط بأن يكون هذا النوم راحة من عمل النهار، ومن طاعة الليل، وبأن يكون فى فترة محدودة من الليل، وهذا هو المفهوم من بعض النصوص التى ذكرناها، وفى ضوء هذا المعنى يمكننا أن نصل إلى ما

ذكرنا من أن ليل العابد كله لله، بما فيه من نوم وسهر، وبما فيه من راحة وطاعة، وهذا هو مدلول قوله تعالى : ﴿ **يبيتون لربهم سجدا وقياما** ﴾ سورة الفرقان آية ٦٤.

منحنا الله القدرة على طاعته، وأذاقنا حلاوة مناجاته وعبادته، وجعل ليلنا خالصا له، لنكون من عباده المخلصين.

أما دعاؤهم

أما دعاؤهم الذى يرفعونه إلى ربهم ﴿ **ربنا اصرف عنا عذاب جهنم، إن عذابها كان غراما، إنها ساءت مستقرا ومقاما** ﴾ سورة الفرقان آيات ٦٥ : ٦٦. ونسأل : هل نجواهم لله كانت كلها فى سبيل هذه الغاية؟ وهل حرموا أنفسهم لذيذ النوم من أجل النجاة من عذاب جهنم؟ إنها لغاية تتقطع دونها الأعناق، وأمل يرتجيه كل طائع لله مشتاق - ومالهم لا يرجون ذلك وقد قدموا الأسباب؟ غير أننا نقول : إنها غاية بعدها غايات ودرجة تعلوها درجات - والناس فى عبادة الرحمن على ألوان :

من الناس من يعبد الله على حرف - فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه - خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين، هذا العابد الكاذب الشاك يظل فى طاعته ماواتته النعمة وتناساه الشر، حتى إذا ما ابتلاه الله وامتحنه انكفأ على وجهه، وارتد كافرا - يحمد الله فى السراء، ولا يشكره فى الضراء يفرح بالريح الرخاء تهب على سنين حياته حتى إذا جاءته الريح العاصف ضل سعيه، وخاب رجاؤه، وغلبت عليه شقوته فكان من الضالين.

ومن الناس من يعبد الله وهو ظالم لنفسه، خلط عملا صالحا وآخر سيئا، وعاش على الأمانى ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم، وأن يشملهم برحمته، فبها وحدها ينعمون بالجنة ، ولا حدود لفضل الله.

ومن الناس مقتصد فى عبادته - يؤدى الفرائض ، ويجتنب النواهى - ويقف عند هذه الحدود لا يزيد نافلة، ولا يأمر بمعروف، ولا ينهى عن منكر يفهم قول الله : ﴿ **عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ سورة المائدة آية ١٠٥. على ظاهره يعبد الله طمعا فى ثوابه، وخوفا من عقابه، يرجو النجاة، ويخشى العقاب، قد كتبه الله من أصحاب اليمين ﴿ **وأما إن كان من أصحاب اليمين، فسلام لك من أصحاب اليمين** ﴾سورة الواقعة ٩٠ ، ٩١.

ومن الناس سابق بالخيرات - يرجو كغيره الثواب، ويخاف العقاب - ثم لا يقف عند

حدود الواجبات بل يزداد قربا من ربه، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر - يريد من الناس أن يكونوا معه على طريق الحق، فيحارب المعصية أنى تكون وكيف تكون، قد حمل رسالة الإصلاح، ومضى وراء الرسل مصباح هداية، ومصدر خير فهو حبيب الله قال فيه الصادق الأمين «والذى نفس محمد بيده، لئن شئتم لأقسمن لكم : إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده، ويحببون عباد الله إلى الله، ويمشون على الأرض بالنصيحة».

ومن الناس من تسمو به غايته إلى درجة عليا يكون فيها فى مقام أمين، قد تجرد من دنياه، وفنى فى ذات الله، أحب الله فأحبه الله، وصار ملائكيا قدسيا مطهرا - نسى النار وعذابها، ونسى الجنة ونعيمها، وغرق فى بحار النور الربانى، قد جمع الخير من أطرافه، وعاش لله ولذة طاعته فهو من المقربين ﴿ **فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم**﴾ سورة الواقعة آيات ٨٨ ، ٨٩ - يعبد الله لأنه فنى فى جلاله، لقد انكشفت له الحقائق، فكان من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

فأين نجد (عباد الرحمن) بين هذه الأصناف من الناس ؟ ظاهر الآية يجعلهم فى مرتبة وسطى تضمن لهم الرضا والقرب، لكنهم فى الحقيقة لا يكتفون بمجرد الدعاء، ولا ينتهون عند الخوف من النار لأن عذابها غرام لازم، وشقاء دائم، ولأنها أسوأ مقام ينتهى إليه عبد الله - لا ينتهون عند ذلك، وإنما هو حال من أحوالهم، ودرجة من درجات قربهم، ومنزلة من منازل الرضوان يمرون بها فى طريق الله .. حتى إذا ما وصلوا إلى الغاية كانوا كما قالت رابعة العدوية :

أحبك حبين حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى ذاتك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك لى الحجب حتى أراكا

وصدق الله وعده : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة**﴾ سورة القيامة آيات ٢٢ ، ٢٣ .
وتلك عقبى المتقين.

القوامة فى الإنفاق

وصلت بنا آيات (عباد الرحمن) إلى موضع الإنفاق، وشرعت الاعتدال فيه، والوقوف

عند حدود العقل والحكمة فى أمور العيش، فلا تفريط ولا إفراط، ولا إسراف ولا إمساك، ولا تبذير ولا تقتير ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وكان بين ذلك قواما** ﴾سورة الفرقان آية ٦٧.

هم عند أمر ربهم وسط بين الطرفين ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا** ﴾ سورة الإسراء آية ٢٩. وكما أوصاهم رسولهم «ما أحسن القصد فى الغنى، وما أحسن القصد فى الفقر».

والصورتان المتقابلتان فى الإنفاق صورتان بشعتان قبيحتان - فيهما إغراق ومبالغة، وفيهما سفه وسوء رأى - فالذى يضيع الأموال فيما يضر ولا ينفع قد أتبع نفسه هواها كالأنعام ترعى فى كلأ ممرع يمتد مع البصر بلا نهاية، تطأ الخير بأقدامها، وتنسى يوما تطوى فيه الكشح على الجوع عندما يجف الزرع ويصوح النبات، وبئس ما يفعل - والذى يحرم نفسه وعياله نعيم الحياة، وطيبات الرزق التى أحلها الله، ويضم الأموال بعضها إلى بعض قد أثقلته النفقة، وربط الغل يديه إلى عنقه - يرى ضوء الشمس يملأ الكون كله فيكاد من شحه أن يحرم نفسه ما فيه من دفء ويبقى مقهوراً محروما، وبئس ما يفعل.

الإسراف سفه وضياع ومنقصة، وإنفاق للمال فى غير ما أحل الله، والمبذر قرين الشيطان وأخوه، كلاهما ضل طريق الخير، وكلاهما خالف أمر ربه ﴿ **ولا تبذر تبذيرا، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين . وكان الشيطان لربه كفورا** ﴾ سورة الإسراء آيات ٢٦، ٢٧.

والبخل شح وغل ومجبنة. وسوء ظن بالله، ووضع للأمور فى غير مواضعها ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ سورة التغابن آية ١٦ - ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم وصدق رسول الله «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا» وروى عن أبى هريرة «مانقص مال من صدقة، ومازاد الله عبدا أنفق إلا عزا، ومن تواضع لله رفعه الله» . وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا للمنفق والبخيل فقال : «مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما - فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه، وتعفو أثره - وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع.

وعباد الرحمن قوام بين الصورتين، ووسط بين النقيضين - ومعتدلون بين الناحيتين، وخير الأمور أوسطها - هكذا علمنا الإسلام، وهكذا يجب أن يكون كل مؤمن متمسك بتعاليم دينه.

غير أن هناك لونا من الإنفاق لاسرف فيه ولا تبذير، وكل ما ينفقه المؤمن فيه ذخيرة له عند ربه، وحسنة مضاعفة تضم إلى حسناته يوم يلقى الله ، هذا اللون هو الإنفاق فى سبيل الله - قال تعالى : ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء - والله واسع عليم** ﴾ سورة البقرة آية ٢٦١ - وسبيل الله هو طاعة الله - وهو الجهاد وهو الحج على آراء للعلماء.

وعن ابن عمر : لما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم «رب زد أمتى» قال فأنزل الله : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة** ﴾سورة البقرة آية ٢٤٥ - قال الرسول «رب زد أمتى» فنزلت : ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾سورة الزمر آية ١٠ - وهكذا يصل فضل الله إلى درجة لا حساب فيها ولا حدود.

ولا عجب بعد ذلك أن يزود عثمان بن عفان جيشا من جيوش المسلمين خرج فى سبيل الله، وأن يأتى أبو بكر بكل أمواله فيضعها أمام رسول الله ، ويسأله الرسول الأمين : وماذا تركت لأهلك ، فيجيب الصديق : تركت لهم الله ورسوله.

عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامنكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة».

والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفى الماء النار.

رزقنا الله، الاعتدال فى كل أمورنا، والقوامة فى إنفاق أموالنا، وسدد خطانا على طريق الهدى والرشاد.

الموحدون

ولقد وصل بنا الحديث عن (عباد الرحمن) وصفاتهم إلى «عقيدة التوحيد» ولقد قال الله تعالى فى حديثه عن هؤلاء العباد ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾ سورة الفرقان آية ٦٨.

ولا جدال فى أن الإسلام هو دين التوحيد، وأن عقيدة (الوحدة) فيه هى نتاج «لكل المبادئ الأساسية التى تكون هذه العقيدة - لقد جاء الإسلام وفى العالم كثير من التصورات والفلسفات والأفكار التى تتعلق بالاله، هل هو واحد أو اثنين؟ وهل هو إله خير

أو إله شر؟ ثم برزت فكرة التثليث لتزيد من غيوم الجهالة، ولتبعد العقل البشرى عن التصور الصحيح لفكرة الإله، - وهكذا تراكمت صور الجهل وغيوم الشك والحيرة على العقل الإنسانى إلى درجة قد يصعب علينا اليوم أن نتصورها - ولا عجب بعد ذلك أن يكون الهدف الأول للإسلام هو أن يحرر العقل البشرى من هذه الأوهام، وأن ينقذ الضمير الإنسانى من هذه الغيوم، وأن يجعل أساس العقيدة فيه التوحيد الشامل الكامل.

والقرآن الكريم يحفل بعقيدة (التوحيد) فيقررها فى صور قاطعة، ويحارب الشرك والكفر فى كثير من الآيات، فالله يقول فى سورة الإخلاص ﴿ **قل هو الله أحد - الله الصمد - لم يلد ولم يولد - ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ سورة الاخلاص - فالله أحد فى ذاته وفى صفاته وفى كماله وقدسه وجلاله - وكلمة (أحد) هذه لا تطلق على غير الله أما كلمة (واحد) فقد تطلق على الناس والكائنات، وكلمة (أحد) أدل على معنى (الأحدية) من كلمة (واحد).

والله يقول: ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد** ﴾ سورة الكهف آية ١١٠ - فهو واحد لا شريك له ، وهو مقصور على ذلك بأداة القصد (إنما) ففى الآية دلالة جازمة على انفراد الله بالوحدانية - ومثلها فى نفس الدلالة قوله تعالى : ﴿ **وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين - إنما هو إله واحد** ﴾ سورة النحل آية ٥١ - فالاداة (إنما) موجودة بنفس الدلالة، والضمير (هو) يزيد الدلالة على أن الله وحده هو المقصود بصفة الوحدانية. والنهى السابق ﴿ **لاتتخذوا إلهين اثنين** ﴾ مؤكد للعقيدة قبل تقريرها، أو ممهد لهذا التقرير على ما تقتضيه بلاغة التعبير القرآنى المعجز.

وفى آية الكرسى تتقرر العقيدة نفسها فى وضوح فريد ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾ سورة البقرة آية ٢٥٥ - فهو الله، وهو واحد ولا إله غيره بصيغة أخرى من صيغ القصر والتخصيص ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ -والوحدانية هى الأساس، ثم تأتى بعدها الصفات الأخرى - فهو الحى، وهو القيوم، وله ما فى السموات وما فى الأرض، وهو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم.

وتبدأ سورة آل عمران بتأكيد هذه العقيدة بنفس التعبير ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾سورة البقرة آية ٢٥٥. فتضع المعنى الأساسى فى ضمير كل مسلم، وكأنما يريد الله سبحانه أن يبدأ بهذه العقيدة ليقرر بعدها الكثير من صفات الله - فهو مالك الملك، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، والدين عنده هو الإسلام ﴿ **إن الدين عند الله**

الإسلام ﴾سورة آل عمران آية ١٩ - ثم يدعو الله فى هذه السورة عباده إلى حب هذا الإله ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** ﴾ سورة آل عمران ٣١ - حتى إذا ثبت ذلك كله، حتى إذا ما وضعت القاعدة، ودعمت بالأدلة القاطعة كانت الدعوة التى وجهها القرآن إلى أهل الكتاب ﴿ **تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله** ﴾ سورة آل عمران ٦٤.

هذا هو هدف الإسلام أن يضع أساس عقيدة التوحيد ويؤكدها، ثم يدعو كل الناس من أهل الكتاب ومن غيرهم إليها، ويحارب فكرة تعدد الأرباب التى سادت قبل الإسلام.

وحتى لا تهتز هذه العقيدة بعد ذلك بأى لون من ألوان الشرك حارب الإسلام فكرة الشرك، ونهى عنها، لتظل عقيدة المسلم نقية/ صافية/ طاهرة/ خالصة لله تعالى : ﴿ **قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون؟ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين- بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾سورة الزمر آيات ٦٤ -٦٦ .

فالتوحيد وحى لمحمد، ووحى للرسل من قبله - والشرك يحبط العمل، وينتهى بالخسران، والعبادة لا تكون إلا لله وحده - وجريمة الشرك هى أكبر الكبائر ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا** ﴾ سورة النساء آية ١١٦- ضل وضلاله بعيد فى أساسه - وفى غايته وفى سورة الأنعام يقرر الله العقيدة على لسان محمد ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا** ﴾ سورة الأنعام ١٥١ - وفى سورة المائدة يسوقها على لسان عيسى فى اعتراف بعيد فى دلالته ومعناه ﴿ **ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به، أن اعبدوا الله ربى وربكم** ﴾ سورة المائدة آية ١١٧ .

هذه هى عقيدة التوحيد فى الإسلام، وهى لهذا صفة أساسية من صفات عباد الرحمن فهم لا يدعون مع الله إلها آخر - إنما يدعونه وحده، ويعبدونه وحده، ويقصدونه وحده، سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله أندادا وهو خلقك.

أما لماذا جاءت هذه الصفة بعد غيرها من صفات عباد الرحمن فلذلك موضعه من حديث آخر.

احترام النفس البشرية

من صفات (عباد الرحمن) أنهم لا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا يعتدون على حق الإنسان فى الحياة التى منحها له الله، هكذا وصفهم ربهم حين قال : ﴿ **ولا يقتلون**

النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾سورة الفرقان آية ٦٨. ودافعهم إلى ذلك أمران :

الأول : أن الذى منح الإنسان حق الحياة هو الله تعالى، وهو وحده الذى يملك أن يسترد ما منح، وأن يأخذ ما أعطى، وقتل الإنسان لأخيه الإنسان فيه عدوان على هذا الحق، وعلى صاحبه عز وجل.

الثانى : أن الله قد كرم هذا الإنسان ، وفضله على كثير من خلقه، وجعله خليفته فى الأرض ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾سورة الإسراء آية ٧٠ - وجدير بالعبد المؤمن أن يحترم هذه النفس البشرية، وأن ينزلها مكانة عالية من التقدير تنزيها لخالقها، وتعظيما لبارئها، وأول مظاهر الاحترام أن يبقى عليها فى ملك الله، تقدس جلاله، وتدلل على عظمته، وتقدم ذرية صالحة تنضم إلى عباد الرحمن

عباد الرحمن يحترمون حدود الله وشرائعه، ويحترمون النفس البشرية - قد تطهرت نفوسهم من الحقد والطمع، وتخلصت من أدران البغضاء، وعاشت خالصة لله، مؤمنة به، واثقة من فضله وخيره، وهى لهذا تصون الروح الإنسانية، وتحفظ على كل نفس حقها فى الحياة لأنها تعلم أن من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا. هكذا كتب الله على عباده، وهكذا مضت إرادته.

وقتل النفس البشرية جريمة لا مثيل لها، وهى قرينة الشرك بالله، بل فيها شرك بالله واعتداء على حقوقه، وتجاوز لحدوده ﴿ **ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه** ﴾.سورة الطلاق آية١- والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ** ﴾ سورة النساء آية ٩٢ - فليس لمؤمن أن يقتل مؤمنا بوجه من الوجوه، وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث - النفس بالنفس ، والثيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة» وحتى لو وقع شئ من هذه الثلاث فليس لأحد من الرعية أن يقتل ، وإنما ذلك للإمام أونائبه - وبعد أن بينت الآيات كفارة الخطأ فى القتل عادت لتؤكد النهى القاطع عن القتل العمد ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه، ولعنه، وأعد له عذابا عظيما** ﴾سورة النساء آية ٩٣ - وفى الآية صور من التهديد تتابع فى قوة وزجر - فالجزاء جهنم، وللقاتل فيها خلود دائم، وعليه فوق ذلك غضب من الله، وعليه أيضا لعنة الله - وله عذاب عظيم رهيب.

وروى ابن مسعود قال : «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء» وفى حديث آخر «من أعان على قتل المسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه «آيس من رحمة الله» وكان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمدا، وأن هذه الآية هى آخر ما نزل، ولم ينسخها شئ، فلما قيل له : أرأيت إن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى؟ قال : وأنى له بالتوبة وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ثكلته أمه رجل قتل رجلا متعمدا يجىء يوم القيامة آخذا قاتله بيمينه أو بيساره تشخب أوداجه دما من قبل العرش يقول يارب : سل عبدك فيم قتلنى» . وروى معاوية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا» وجريمة العدوان على النفس البشرية لا تحتاج منا إلى أكثر من ذلك.

غير أن هناك صورا من العدوان على هذه النفس هى أبشع من قتل المؤمن عمدا، منها قتل الولد خوفا من العار، أو خوفا من الفقر والإملاق ﴿ **وإذا الموؤدة سئلت بأى ذنب قتلت** ﴾ سورة التكوير ٨، ٩. ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا** ﴾ سورة الإسراء ٣١ - ومنها الانتحار - لأن الفكرة الأساسية هى أن الذى يملك هذا الحق هو الله وحده، والإنسان لا يملكه حتى لروحه هو - فروحه من صنع الله، الله وحده هو الذى أعطاه الحياة، والله وحده هو صاحب الحق فى هذه الحياة. وآيات الفرقان التى تتحدث عن عباد الرحمن تؤكد كل ما أشرنا إليه ﴿ **ولا يقتلون النفس التى حرم الله** ﴾ سورة الفرقان آية ٦٨ - فالتعبير (بالنفس) شامل لكل نفس؛نفس المؤمن الأجنبى - ونفس الأولاد، ونفس الإنسان - وقوله (حرم الله) تدل على أن هذه النفس حرام على كل مخلوق - أما قوله تعالى (إلا بالحق) فإن حدود هذا الحق واضحة فى نصوص أخرى كثيرة. وهى على كل حال حق للحاكم حتى لا ينتهى أمر المجتمع إلى الفوضى والاضطراب.

هذه هى الصفة السابعة من صفات (عباد الرحمن) صفة فيها إذعان لإرادة الله، واحترام لقانون الله، وتقديس لذاته، وتنفيذ لمشيئته، وفوق ما فيها من تنظيم وتقنين يحفظان للمجتمع كماله وسلامته فهى علاقة بين العبد وربه، من حافظ عليها استحق شرف العبودية ، وكان من (عباد الرحمن).

العفة والصيانة

لقد طال الحديث عن (عباد الرحمن)، وتصوير الصفات التى مدحهم الله بها فى آيات خالدة من سورة الفرقان - ولكن جلال الهدف يجعلنا نستزيد من الحديث عن الرحمن، وعن عباد الرحمن، عسى الله أن يمن علينا بفضله، ويجعلنا من أصفيائه وأحبابه الذين اجتباهم ومنحهم شرف عبوديته.

تقف بنا الآيات عند معنى جديد، وصفة أخرى لهؤلاء العباد عرضتها الآيات فى كلمة موجزة صغيرة حين قالت ﴿**ولا يزنون**﴾ سورة الفرقان آية ٦٨- هذه الصفة المنفية فى التعبير يمكن أن تصبح صفة مثبتة، فعباد الرحمن يتصفون «بالعفة والشرف والصيانة» - والشرف أغلى ما يتمسك به العربى المسلم، وأثمن ما يحرص عليه أتباع محمد والدنيا أمامنا اليوم شاهد عدل على ما يتحلى به المجتمع الإسلامى من تصون ونزاهة وطهارة ، وعلى ما فشا فى المجتمعات الأخرى من انحلال وانحراف وخروج على كل مقومات العفة والكرامة.

الشرف عند المسلم أغلى من كل شئ، أغلى من المال ، وأغلى من الجاه والسلطان، وأغلى من الدم والحياة، - هو كل شئ، وبعده لا شئ - فإن سلم للمسلم سلمت له حياته وعقيدته، وإن ضاع ضاع منه كل شئ.

وتمضى الدنيا كلها فى طريق التفكك والتحلل ، وتتمزق المجتمعات، وتضيع معالم الأسر وروابط الدم بين الآباء والأبناء، والإخوة والأخوات - ويبقى البيت المسلم فى دثار العفة، وستار النزاهة ونقاء الطهارة، وتبقى الروابط المقدسة فى المجتمع الإسلامى لأنها حافظت على ما فرضته الطبيعة من نقاء الدماء وهى تنتقل من الآباء إلى الأبناء، وصفاء الصلة وهى تجمع الزوج بزوجه، والأخ بأخيه - وإلى الأبد سيكون المجتمع المسلم هو مجتمع الطهارة والعفة ما تمسك المسلمون بدينهم، وعاشوا فى ظلال تعاليمه ، ورحاب مبادئه.

وإذا كان التعبير القرآنى هنا موجزا فإنه لا يقل دلالة فى مفهومه عن غيره من صور التعبير الأخرى التى عنيت بالشرح والتوضيح، ووضعت حدودا ومعالم يجب أن يعيش المسلم فى إطارها. ونكتفى هنا بقول الله تعالى فى سورة الإسراء : ﴿**ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا**﴾ سورة الإسراء آية ٣٢ - وأول ما نلحظه فى هذه الآية أنها لم تأت على نسق غيرها من الآيات التى سبقتها ، أو التى تلتها للنهى عن الكبائر، فقبلها

قـال الله : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك** ﴾ سـورة الإسـراء آية ٢٩ - ﴿ **ولا تقـتلوا أولادكم** ﴾ سورة الإسراء آية ٣١ - وبعدها قال سبحانه : ﴿ **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق** ﴾ سورة الإسراء آية ٣٣ - ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم** ﴾ سورة الإسراء آية ٣٦ - ﴿ **ولا تمش فى الأرض مرحا** ﴾ سورة الإسراء آية ٣٧ - وهكذا يأتى النهى عن الكبيرة فى صيغة مألوفة تبدأ بأداة النهى (لا) متبوعة بالفعل المنهى عنه مباشرة ﴿لاتقتلوا - لا تقف - لا تمش﴾ إلا فى جريمتى الزنا وأكل مال اليتم فقد كان النهى عن مجرد الاقتراب من الجريمة لاعن الجريمة نفسها - وهذا أبلغ فى تصوير المراد. وأقوى فى الدلالة على الحرمة - فهو نهى عن الجريمة، وعن الأسباب التى تهيئ لها، والأمور التى تساعد عليها - هو نهى عن كل لون من ألوان التبرج، ونهى عن الاختلاط، ونهى عن التبذل، ونهى عن النظر - نهى عن كل سبب مهيئ، أو أمر مساعد - ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه «الحلال بين والحرم بين، وبينهما مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه» - وفى نهاية الآية يأتى التعليل البليغ مبدوء بأداة التأكيد (إن) - وفيه أن هذه الجريمة فاحشة أى ذنب عظيم ساء سبيله وقبح طريقه.

إنه عدوان على الكرامة الإنسانية، واختلاط للأنساب، وانتهاك للحرمات، وانحطاط إلى درك أسفل من الحيوانية والبهيمية.

لقد أراد الله للإنسان أن يكون شريفا، وأن يكون طاهرا، وأن يكون نقيا - فإذا ما انحرف عن طريق الله تجرد من إنسانيته، وأصبح غير جدير ببشريته، وانسلخ عن معنى التكريم الذى أسبغه الله عليه فكان كالأنعام أو أضل سبيلا.

حفظ الله علينا نعمة العفة، وصان لنا ديننا، وجعلنا من عباده - عباد الرحمن ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما ، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا** ﴾ سورة الفرقان آيات ٦٨ : ٧١.

وهكذا يفتح الله باب رحمته لمن ضل عن سبيله، فإن تاب وأناب، ورجع إلى ربه، وآمن وعمل العمل الصالح، قبله الله فى رحابه، وجعله من عباده (عباد الرحمن).

عن اللغو معرضون

فهذه صفة جديدة من صفات (عباد الرحمن) نقف عندها وقفة التأمل والتدبر والعظة، لنرى كيف تعددت الصفات وتنوعت، وكيف كونت فى تجمعها وتكاملها شخصية المؤمن الكامل الذى مدحه ربه، ووصفه فى محكم آياته بالفلاح والنجاح.

يقول الله تعالى : ﴿ **والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما** ﴾ سورة الفرقان آية ٧٢ - ولقد فهم العلماء الزور هنا على معنيين.

المعنى الأول : أن الزور هو كل باطل فاسد - قيل إنه الشرك وعبادة الأصنام ، وقيل إنه الكذب والفجور، وقيل إنه مجالس اللهو واللغو، ومجالات الهوى والضلال - الزور كل ماينافى الصدق والحق، وعباد الرحمن ينزهون أنفسهم عن كل باطل، ويرتفعون بها فوق المفاسد، ولا يعيشون إلا فى مجال الصدق، ودين الحق، ويتفق هذا المعنى مع نهاية الآية ﴿ **وإذا مروا باللغو مروا كراما** ﴾ - لأن سياق التعبير يقتضى تجانسا بين صدر الآية وبين نهايتها - إن الله قد طبعهم على طهارة النفس، وكمال الخلق، فهم يصونون أنفسهم عن الدنس، ويضنون بوقتهم أن يضيع فى حرام، وإذا دفعتهم الظروف إلى مجلس لهو أو فساد مروا سراعا خفافا - روى أن ابن مسعود مر بلهو فلم يقف - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما»، وهذه شهادة تقدير وتكريم من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لابن مسعود، وهى فى ذات الوقت دليل على المعنى المفهوم من الآية - فالذى لا يشهد مجالس الباطل، ولا يحضر نوادى الفساد يكرم نفسه فيصبح كريما - كريما على نفسه، وكريما على الناس، وكريما على الله - والمرء حيث يضع نفسه، ولقد صدق شاعرنا حين قال :

صن النفس، واحملها على ما يزينها   تعش سالما، والقول فيك جميل.

ونحن الآن نعيش فى مجتمعات تسربت إليها - تحت شعار المدنية - ألوان الغىّ والفساد، وتعددت فيها - باسم التقدم - مجالات اللغو والباطل - نحن فى زمن القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر، زمن كثرت فيه الفتن، وأقبلت كقطع الليل المظلم، يدفع بعضها بعضا، ولا عاصم من هذه الفتن إلا من رحم الله - وما أحوج المؤمن فى هذا الجو إلى أشعة من نور تحفظ على قلبه نبضات الخير فيه، وتسقى روحه بماء الفضيلة - ما أحوج المؤمن إلى دينه، وتعاليم رسوله فى هذا الجو بالذات حتى يظل كما أراد له ربه نقيا طاهرا - والخير كل الخير فى أن يتغلب على المحنة وأن ينجو من

الفتنة، فكلما كثرت المغريات، وتلاطمت أمواج السيئات، وظل هو على طهارته ونقائه - كلما كان على طريق الفلاح - والمثوبة على قدر المشقة، والأجر يعظم كلما عظمت المحنة.

هذا المعنى للآية الكريمة يتفق مع آيات أخرى من كتاب الله، يتفق مع قوله تعالى فى سورة القصص : ﴿ **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين** ﴾ سورة القصص آية ٥٥ - ويتفق مع قوله تعالى فى سورة المؤمنين، مادحا عباده، مسجلا لهم الفوز والفلاح ﴿**قد أفلح المؤمنون، الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون**﴾ سورة المؤمنون ١ : ٣ - وقد أثبتت هذه الآيات أن الإعراض عن اللغو درجة رفيعة تضمن للمؤمن الفلاح، ويكفى أن الله تعالى قرنها بالخشوع فى الصلاة، وقدمها على الزكاة .

إن بعض علماء النفس حين نادوا بما يسمونه الإبدال أو الإعلال، وقصدوا بهما أن يحاول الإنسان تعديل سلوكه وتوجيهه أمام جموح الغرائز، أو محاولة السمو به فوق دوافع هذه الغرائز ظنوا أنهم أتوا بالجديد المعجز، مع أن هذه هى تعاليم الإسلام منذ وجد الإسلام - وهذا لون من ألوان الكمال فى العقيدة بل هوالسمو الروحى، والارتفاع بالنفس البشرية فوق المادية وأدرانها، والإسلام قبل أن يطالب المسلم بطهارة الثوب والبدن طالبه بطهارة النفس والقلب، وبهذا يكون عبدا من عباد الرحمن.

أما المعنى الثانى للآية كما فهم بعض العلماء فهو أن المراد شهادة الزور - الشهادة الكاذبة - التى تغير الحقائق ، وتقلب الباطل حقا والحق باطلا، الشهادة التى تضيع الحقوق، وتقوم على الظلم، وتصدر عن ضمير ميت ووجدان سقيم - وسندهم ما ثبت فى الصحيحين عن أبى بكر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**» ثلاثا - قلنا بلى يارسول الله - قال «الشرك بالله ، وعقوق الوالدين» وكان متكئا فجلس فقال : «ألا وقول الزور - ألا وشهادة الزور» فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت. ونقول : إنه لا مانع أبدا من قبول الرأيين، والنهى عن الجريمتين - فعباد الرحمن جديرون بالأمرين لا يشهدون الزور ، ولا يحبون الكذب، ويترفعون أيضا عن اللغو ومجالسه، والباطل وأحاديثه.

هم أصفياء أنقياء - هم خلصاء أتقياء. هم طاهرون مطهرون - ﴿**قد أفلح المؤمنون - الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون**﴾ سورة المؤمنون ١ : ٣.

وهذه صفة فيها الكثير من الجلال والكمال والجمال والخير - صفة تربطهم بالله، وبكتاب الله، وبآيات الله. وتمنحهم روحانية وقدسية وملائكية - وتعطيهم بشرى بالرضا والقبول.

تمضى آيات الفرقان فى وصف عباد الرحمن فتقول ﴿ **والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا** ﴾ سورة الفرقان آية ٧٣ - آيات ربهم هى كلام الله الذى أنزله على رسوله ، هى القرآن الكريم الذى جعله الله فرقانا بين الحق والباطل، وهدى للناس، وبشرى بالخير، وشفاء للصدور ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا** ﴾ سورة الإسراء آية ٩ - ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة** ﴾ سورة الإسراء آية ٨٢ - والناس أمام القرآن أصناف ودرجات :

١ - من الناس من يعُرض عن القرآن، ويتكبر عن سماعه، ويؤثر لهو القول وباطله.. قد ضرب الله على سمعه وبصره وقلبه ﴿ **وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها - كأن فى أذنيه وقرا - فبشره بعذاب أليم** ﴾ سورة لقمان آية ٧ - ويا سوء ما بشر به.

٢ - ومن الناس من يجادلون فى القرآن، ويمارون فى معانيه، ويردون فيه المحكم إلى المتشابه، ويقولون أنه فيه اختلاف كثير - ﴿ **ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا** ﴾ سورة غافر ٤ - ولو أنهم تدبروا القرآن وحاولوا فهم ألفاظه ومعانيه ، وردوا المتشابه فيه إلى المحكم، لفهموا، وعقلوا، ووصلوا إلى الخير والهداية - فهو كتاب محكم لا اختلاف فيه ولا اضطراب ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾ سورة محمد آية ٢٤ - ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾ سورة النساء آية ٨٢.

جلس مشيخة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على باب من أبوابه - فذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم فخرج صلوات الله وسلامه عليه مغضباً حتى احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول «مهلاً يا قوم - بهذا أهلكت الأمم من قبلكم - باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض - إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا إنما نزل يصدق بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه». وهذا هو سر الدعوة فى الآيات إلى تدبر القرآن، وبيان ما فيه من إحكام، وأنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

٣ - ومن الناس منافقون مخادعون، إذا سمعوا آية من آيات الله رجع بعضهم إلى بعض يتساءلون : «أيكم زادته هذه إيمانا» . وهم أبعد الناس عن الإيمان، فى قلوبهم مرض ﴿ **وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون** ﴾ سورة التوبة آية ١٢٥.

٤ - ومن الناس راسخون فى العلم يقبلون على القرآن بالفهم والتأمل والتدبر - يقولون «اتقاية - كل من عند ربنا» المحكم فيه من عند ربنا، والمتشابه فيه من عند ربنا، وبهذا يردون المتشابه إلى المحكم.. وبهذا اهتدوا، وعرفوا طريق الحق. وكانوا من الفائزين.

٥ - ومن الناس من ملأت الخشية قلوبهم - وتشبعت باليقين نفوسهم - كلما تليت عليهم آية زادتهم خشية ويقينا وإيمانا - ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ سورة الأنفال ٢ - هؤلاء هم المخبتون إلى ربهم. المطمئنون فى رحاب طاعته، والراتعون فى رياض رحمته.

﴿ **الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ سورة الأنفال ٢ - لأن خشية الله مظهر لتقديسه، وعلامة على حبه وتمجيده ﴿ **وأما من خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى** ﴾ سورة النازعات آيات ٤٠، ٤١.

هؤلاء الراسخون فى العلم، وهؤلاء المخبتون إلى ربهم - هم عباد الرحمن - هواهم مع الله، وقلوبهم لله، يقبلون على القرآن إقبال المريض على دوائه ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾ سورة الإسراء آية ٨٢.

فالقرآن شفاء ورحمة ولكن للمؤمنين.

والقرآن هدى وبشرى - ولكن يبشر الذين يعملون الصالحات.

والقرآن أحسن الحديث - ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء** ﴾سورة الزمر آية ٢٣.

هؤلاء هم عباد الرحمن ﴿ **الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا** ﴾ سورة الفرقان آية ٧٣ - بل هفت لها قلوبهم، وتشربتها أرواحهم، وفاضت من جلالها عبراتهم ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين.

يرجون من الذرية الصالحة

إن من نعم الله على عبده المؤمن أن يرزقه ذرية صالحة - تحفظ أثره، وتبقى ذكره، وتديم خيره، وتدعو له دعاء مقبولا نافعا بعد أن ينقطع عمله. الذرية الصالحة خير للمرء فى حياته وبعد وفاته : أما فى حياته فهى قرة عينه، وبهجة فؤاده، ومنى نفسه، وقطعة من كبده - يراها فيسعد، ويرعاها فينصب ولكنه يرضى، ويعيش فى حماها وعزها إذا وهن منه العظم، واشتعل شيب رأسه - وأما بعد وفاته فهى الذكرى الباقية، والحبل الموصول، والعمر الممدود، والخير الدائم، والدعاء المقبول عند الله - الأبناء فى الدنيا زينة، وفى الآخرة ذخيرة، وصدق الله : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** ﴾ سورة الكهف آية ٤٦ - ولا حرمة فى التمتع بالزينة التى أحل الله ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟** ﴾سورة الأعراف آية ٣٢ وصدق رسول الله «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية - أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» لهذا ترى الأتقياء الأنقياء عباد الرحمن يطلبون من الله هذه النعمة، وترى الرحمن يمدحهم ويمجدهم، ويضفى عليهم صفة من صفات الكمال الدينى حين يقول فى آيات الفرقان ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين** ﴾ سورة الفرقان آية ٧٤ - فى ضوء المعنى الذى قدمناه عن الذرية طلب عبادالرحمن من الله ذرية صالحة تكون لهم قرة أعين - وتطيل بالصالحات أعمارهم - والزوجة الصالحة كالذرية الصالحة نعمة كبرى يرغب فيها المؤمن، ويرجوها من ربه، والرسول الأمين يقول «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة» . ويقول : «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا من زوجة صالحة - إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله» ولقد كانت خديجة أم المؤمنين خير عون للنبى حين تحمل عبء الرسالة، وأقبل على الدنيا يريد إصلاح أمورها، وتطهير عقائدها فلم يكن معه فى بداية الطريق إلا هذه الزوجة الوفية الكريمة - وهى فى هذا نموذج كريم لكل زوجة كريمة.

ولقد تمنى الرسول العظيم الولد الصالح، وسعد سعادته الكبرى يوم بشر بابنه ابراهيم - ولسعادته به اختار له أكرم اسم وأعزه - اسم إبراهيم أبى الأنبياء. وصاحب الملة البيضاء التى اختارها الله لنبيه محمد ﴿ **قل بل ملة إبراهيم حنيفا** ﴾ سورة البقرة آية ١٣٥- ثم كانت فجيعته كبيرة يوم فقد هذا العزيز الصغير، فسال دمعه، وحزن قلبه،

وقال كلمته المؤمنة الصابرة «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون، ولكن لا نقول إلا ما يرضى الله» - وحين مضى وراءه ليودعه إلى مثواه الأخير، كان يتوكأ على صديق، فلما واجه الجبل قال «ياجبل لو كان بك مثل ما بى لهدك، ولكن : إنا لله وإنا إليه راجعون».

ولقد أحب صلوات الله عليه بناته، أكرمهن غاية الإكرام، وكانت فاطمة عنده ريحانة من ريحان الجنة يشمها فيرضى ويسعد منه القلب، وما كان صلى الله عليه وسلم بدعاً فى ذلك - فقد سبقه الرسل والأنبياء بهذه الرغبة، واتجهوا إلى الله قبله بهذا الرجاء.

فهذا زكريا عليه السلام يطلب من ربه فى ضراعة أن يهب له الذرية الصالحة حتى لا يبقى وحيدا فى حياته بعد أن كبر سنه، ووهن عظمه، وشاب شعره، وأحس عمره يتسرب بين يديه، وأكرمه ربه فحقق رجاءه، وامتن عليه بهذه النعمة وكررها فى القرآن أكثر من مرة فى سورة الأنبياء : ﴿ **وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين - فاستجبنا له، ووهبنا له يحيى، وأصلحنا له زوجه** ﴾ - ثم تبين الآيات سر هذه المنة فتقول ﴿ **إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات، ويدعوننا رغبا ورهبا، وكانوا لنا خاشعين** ﴾ سورة الأنبياء آيات ٨٩، ٩٠ - وفى سورة مريم ﴿ **ذكر رحمة ربك عبده زكريا - إذ نادى ربه نداء خفيا. قال رب إنى وهن العظم منى، واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا - وإنى خفت الموالي من ورائى، وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب، واجعله رب رضيا** ﴾ سورة مريم آيات١ : ٦- وفى سورة آل عمران ﴿ **هنا لك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء- فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب - أن الله يبشرك بيحيى** ﴾ سورة آل عمران آيات ٣٨، ٣٩ - وإبراهيم عليه السلام حين بشره الله بكلمات منه ، وجعله إماماً للناس ﴿ **قال إنى جاعلك للناس إماما** ﴾ لم يذكر فى هذا الوقت الرائع الخلد إلا ذريته فقال مناجيا ربه ﴿ **ومن ذريتى** ﴾ وجاء الجواب الحكيم ﴿ **لا ينال عهدى الظالمين** ﴾سورة البقرة آية ١٢٤.

وما كان أعظم شكره وحمده لله حين بشره بابنيه على الكبر فقال : ﴿ **الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء** ﴾ سورة إبراهيم آية ٣٩ - ولما طلب من ربه أن يحفظ عليه نعمة الإيمان لم ينس ذريته فقال ﴿ **رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى، ربنا وتقبل دعاء** ﴾سورة إبراهيم آية ٤٠.

وامرأة عمران لم تجد ما تشكر به الله حين بشرت بالبتول إلا أن تهب لله ما بشرت به ﴿ **رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى** ﴾سورة آل عمران ٣٥.

هكذا كان الأنبياء وهكذا يمضى على طريقهم أحباب الله وعباده - يرجون فى الذرية الصالحة نعمة موصولة وذكرى محبوبة، ودعوة مقبولة، وبقية من العمل الصالح تغذى شعلة الإيمان والنور التى حملوها معهم من الدنيا إلى الآخرة .

رزقنا الله الذرية الصالحة، وجعلها قرة أعيننا، وبهجة أنفسنا، ومتاعا حلالا فى دنيانا - وزادا كريما فى أخرانا - حتى نكون مع عباده الصالحين - عباد الرحمن.

أئمة المتقين

ولقد مضى هذا التصوير الرائع يرينا أحوالهم ، ويصف طبائعهم، ومظاهر سلوكهم فى تتابع محكم انتهى بنا إلى هذا الرجاء الذى رفعوه إلى ربهم فكان خاتمة باهرة لوصف باهر . ونهاية كاملة لوصف كامل، وعلامة صادقة على أنهم بلغوا غاية الإيمان، بل ويسعون إلى أن يحتلوا من هذه الغاية قمة شامخة رفيعة - لقد ختموا رجاءهم الضارع حين ناجوا رب العزة فقالوا ﴿ **واجعلنا للمتقين إماما** ﴾ سورة الفرقان آية ٧٤- إذا كان لكل شئ غاية - ولكل أمر نهاية فإن غاية الإيمان ونهاية كماله هى «التقوى».

التقوى التى صورها القرآن أبلغ تصوير فى كثير من آياته - وتحدث عنها مرغبا فيها، وداعيا إليها بما لم يتحدث به عن غيرها - وحسبنا هنا أن نشير فى إيجاز إلى بعض هذه الآيات :

١- فى أول سورة البقرة يتحدث العلى الأعلى عن القرآن الكريم، فيبين أنه هداية للمتقين، ثم يصف هؤلاء المتقين بما هم أهل له من كمال فى العقيدة يدعمه العمل الصالح فى مظهريه : مظهر الصلة بالله فى الصلاة، ومظهر الصلة بالعباد فى المنفعة والزكاة ثم يشير إلى نتيجه ذلك كله وهى النور والفلاح - اقرأوا معى ﴿ **ذلك الكتاب - لا ريب فيه - هدى للمتقين - الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون - أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون** ﴾ سورة البقرة آيات ٢ : ٥ .

٢ - وفى سورة آل عمران يتحدث القرآن عنهم فى موضعين، فيصفهم، ويبين ما أعد لهم من جزاء ﴿ **للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله** ﴾ سورة آل عمران آية ١٥ - ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم - وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾سورة آل عمران آية ١٣٣ .

٣ - وفى سورة مريم نقرأ قول الله تعالى : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا** ﴾ سورة مريم آية ٨٥ - فنرى كيف يبلغ التكريم مداه، وكيف لا ينزلون دار الكرامة إلا وهم

ضيوف على الرحمن - تفتح لهم الأبواب، وتستقبلهم الملائكة، ويدخلون الجنة طيبين طاهرين حامدين ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها ، وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين - وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده - وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء** ﴾سورة الزمر آيات ٧٣ ، ٧٤ - نعم يحلون من الجنة حيث يشاءون - وهناك يقال لهم ما قاله الرحمن ﴿ **وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾سورة الزخرف آية ٧٢ - وصدق الله ﴿ **إن للمتقين مفازا ، حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكأسا دهاقا ، لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا** ﴾سورة النبأ آيات ٣١ : ٣٥ - بل يمشون فى نعيمها ، ويتمتعون بظلالها، ويأكلون من طيب ثمارها ﴿ **ودانية عليهم ظلالها ، وذللت قطوفها تذليلا** ﴾سورة الإنسان آية ٤ .

ولو شئنا أن نتتبع آيات القرآن لنبين عظمة التقوى وقيمتها كغاية كبرى فى العقيدة الإسلامية لطال بنا الحديث، ولكنا نجتزئ بآيات قليلة - نستضئ منها بما يأتى :

﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾سورة الفتح آية ٢٦ - ﴿ **هو أهل التقوى وأهل المغفرة** ﴾سورة المدثر آية ٥٦ - ﴿ **ولباس التقوى ذلك خير** ﴾ سورة الأعراف آية ٢٦ - ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم** ﴾سورة الحج آية ٣٧ - ﴿ **والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون - لهم ما يشاءون عند ربهم** ﴾ سورة الزمر آيات ٣٣، ٣٤ - وتكفى هذه النهاية ﴿ **لهم ما يشاءون عند ربهم** ﴾ سورة الزمر آية ٣٤ - فهى جملة شاملة جامعة واسعة الأبعاد، بعيدة الأهداف، عميقة الفكرة - كل مايشاءون لهم - بل لهم وحدهم بمقتضى تقديم الجار والمجرور هنا (لهم) - وهذا وعد صدق وحق - لأنه عند ربهم - عند من لا تضيع عنده الحاجات - فالمشيئة مشيئتهم - والوعد من ربهم ﴿ **ومن أصدق من الله حديثا** ﴾سورة النساء آية ٨٧ - ﴿ **ومن أوفى بعهده من الله** ﴾سورة التوبة آية ١١١.

التقوى التى بلغت فى الإسلام هذه المكانة هى غاية عباد الرحمن ، وهى هدفهم ومناهم، ونهاية نجواهم - إنهم لا يطلبون مالا ، ولا يطلبون جاها - وإنما يطلبون تقوى الله - أستغفر الله - لقد طلبوا شيئا آخر وراء التقوى - طلبوا ما يمكن أن يراه غيرهم مستحيلا - طلبوا أن يكونوا أئمة للمتقين - يا سبحان الله - إنه ميدان شريف - وفيه يكون التنافس المحمود، والتسابق المشكور - وعباد الرحمن يطلبون الفوز فى هذا الميدان ﴿ **واجعلنا للمتقين إماما** ﴾ .

هنا يجب أن نتريث لنأخذ درسا - كيف يعيش المتقون - ولأى غاية يعملون، حتى نعرف ضآلة أفكارنا اليوم، ، وتفاهة آمالنا، وهوان مآربنا - وحتى نغير من سلوكنا، ومن أهدافنا، ومن مثلنا، وأن نسارع إلى هذا الميدان لندخل فى عباد الرحمن - وصدق الله ﴿ **والعاقبة للمتقين** ﴾ سورة الأعراف آية ١٢٨.

وصدق العزيز الحميد ﴿ **وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم - لا يمسهم السوء - ولا هم يحزنون** ﴾ سورة الزمر آية ٦١.

ألا يشار هنا إلى كلمة إماما وكان سياق الحديث أن تأتى واجعلنا للمتقين أئمة؟ فنقول مثلا جاءت هكذا حتى تؤكد أن صفات الإمام واحدة مهما اختلفت الأزمان والأماكن فإذا كان الإمام ملتزماً بمراداة الله قولا وفعلا فإن جميع الأئمة سيكونون وكأنهم إمام واحد ذات صفات وتصرفات واحدة ومن هنا جاءت الآية بكلمة إماماً لتؤكد ذلك المعنى.

تكامل الصفات وتنوعها

نعود فنسوق لمحات من بلاغة التعبير القرآنى المحكم، ونحاول أن نزيد القول إيضاحا، وأن نجيب عن بعض الأسئلة التى لعلها راودت بعض الخواطر - ونحن هنا نعرض آراء شخصية نسأل الله تعالى أن يوفقنا فى عرضها، وأن يسدد خطانا معها على طريق الصواب، وأن يجعل من شرف القصد أماناً لنا يحفظنا من زلل القول وعثرة اللسان.

١ - أول لمحة عن هذا التعبير «عباد الرحمن» - العبودية هنا تحمل معنى التشريف والتكريم، وعهدنا بها (فى مفهوم الناس) أن تكون صورة للهوان والضعة والاحتقار - كما قال تعالى : ﴿ **إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا** ﴾ سورة مريم آية ٩٣ - أى خاضعا ذليلا لا يملك من أمر نفسه شيئا - أما هنا فقد نسبهم الله إلى نفسه، وضمهم إلى رحمته، فأعطاهم أكرم صفات التشريف والتعظيم - وعلى هذا المعنى وردت آيات كثيرة :

فالله سبحانه وتعالى حين شرف محمدا بقربه فى ليلة الإسراء، واختصه بمكان النجوى والقبول، وجعله قاب قوسين أو أدنى - رفعه بذلك فوق العالمين - فلما أراد أن يعبر عن هذا المعنى بما فيه من قرب ونجوى وشرف وكرامة وصف حبيبه بالعبودية فقال ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده** ﴾ سورة الإسراء - فكان قوله (بعبده) أدل على التكريم من قوله «أسرى بنبيه - أو رسوله» وهكذا يجب أن نفهم من القرآن ونتعلم.

والله حين طرد إبليس من رحمته، ورجمه بالغضب على تمرده، ولعنه على عصيانه - أعلنه أن هناك صفوة من خلقه يحميهم من بغيه، ويقيهم عدوانه، ولم يعبر سبحانه عن معنى الحماية والوقاية والإيواء إلا بأن يصفهم بعبوديتهم له فقال ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾سورة الحجر آية ٤٢.

وحين يدعو الله أحبابه إلى القول الحسن يسوق لهم هذا التعبير الرقيق المحبب ﴿ **وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن** ﴾سورة الإسراء آية ٥٣.

وحين يدعو البائسين إلى رحمته، ويحببهم فى طاعته يناديهم بما هو غاية فى اللطف والعفو والحنو ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله** ﴾ سورة الزمر آية ٥٣ - وحين يقدم بشرى الغفران والاستجابة للسائلين الداعين يقول لعبده محمد ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب** ﴾ سورةالبقرة آية ١٨٦ - وهكذا يعتمد القرآن المعجز هذا النسق التعبيرى الرقيق الرفيق، فيحبب القلوب إلى الله، ويحبب الطاعة إلى الناس، ويضفى على الخلصاء معانى الشرف والكرامة من منطلق العبودية لله.

والله تعالى حين نسب عباده إلى جنابه لم ينسبهم إلى صفة القوة أو العدل أو الغنى فيقول (وعباد القوى أو عباد العادل، أو عباد الغنى) - ولم ينسبهم إلى اسمه الأعظم فيقول (عباد الله) - بل ولم ينسبهم إلى ضمير الذات الإلهية الدال على هذه الذات دون معنى معين فيقول (عبادى) - وإنما نسبهم إلى صفة الرحمة فقال (وعباد الرحمن) - فهى نسبة مقصودة وصفة مرادة، وكفى بذلك دليلا على ما ينتظرهم من رحمة ورعاية بعد ما نالهم من شرف وتكريم.

هذه لمحة أو فكرة تتصل بالآيات - **أما الثانية** فهى أن صفات هؤلاء العباد - سبقت على غير ترتيب مقصود، ولو كان الأمر أمر ترتيب يتصل بمعنى التفضيل لقدمت صفة التوحيد على ما عداها - لكن الله تعالى يترك هذا المعنى فيما نرى لأمرين - والعلم لله وحده :

الأول : أن المؤمن يحتاج لكمال إيمانه- إلى هذه الصفات كلها - المفاضل فيها والمفضول (إن كان هناك مفضول). كل هذه الصفات ضرورية ولازمة، وحتى لا يفهم الناس من الترتيب ما يدفعهم إلى زيادة حرص على الفاضل، وقلة اهتمام بالمفضول سيقت الآيات على هذا النسق - نعم - سيقف بدون ترتيب أو تفضيل حتى تنال كل صفة حظها من عناية العباد وحرصهم - فيحرصون على مشية الكمال والوقار، حرصهم على توحيد الخالق على ما بين الأمرين من تفاوت - وهنا تبرز عظمة القرآن فيما يهدف إليه من مثل وأهداف.

الثانى : أن التعبير القرآنى يحرص على النسق الأسلوبى، أو ما نسميه اليوم تسلسلا وترابطا فى الأسلوب بكل عناصره، يحرص على توازن الفقرات، وتقابل الجمل، وتساوق النغم، وتوافق الكلم، وانسجام الفواصل، وارتباط المقاطع، والقرآن فى هذا قمة من البلاغة جعلته معجزة تفوق قدرة البشر - وهذا الهدف يقصد ويحمد حين لا يضر بفكرة، أو يخل بمعنى، أو يخرج على قاعدة - ويكون مقدما على ترتيب أفكار ترتيبا يعلمه المؤمنون فيما يعلمون من أمور دينهم - فهو ترتيب ثابت فى القلوب، مكين فى الجوانح - معلوم بالضرورة وما أعظم بلاغة القرآن، وما أروع ما يقدمه لنا فى كل عصر من نماذج البلاغة العربية.

تنوع فى الصفات

إن المتأمل فى صفات (عباد الرحمن) يجد تنوعا عجيبا، وعرضا يمزج بين الحسى والمعنوى، ويربط بين صلات ثلاث : صلة العبد بربه - وصلته بالناس - وصلته بنفسه.

أما الصفات التى تصور اتصال العبد بربه فهى على ترتيبها فى الآيات - صفة القيام بالليل والدعاء الضارع لله ﴿ **والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما - والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما** ﴾ سورة الفرقان آيات ٦٤، ٦٥ -وصفة التوحيد ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾سورة الفرقان آية ٦٨ - وصفة التذكر والخشية والتأمل لآيات الله ﴿ **والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا** ﴾ سورة الفرقان آية ٧٣ - وصفة التقوى فى قمتها ﴿ **واجعلنا للمتقين إماما** ﴾سورة الفرقان آية ٧٤.

ومع أن هذه الصفات ترجع فى جملتها وتفصيلها إلى توضيح كمال صلتهم بالله تعالى إلا أنها فى نفسها متنوعة أيضا، فهى تتناول أساس العقيدة، وهو أمر وجدانى قلبى ﴿ **لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾سورة الفرقان آية ٦٨ - وتتناول غاية العقيدة، وهى ثمرتها وثمرة العمل بها ﴿ **واجعلنا للمتقين إماما** ﴾سورة الفرقان آية ٧٤ - وتتناول ما بين الأساس والغاية من عمل هو الطاعة والعبادة، هو السجود والقيام، وهو البيان فى خشوع وتضرع وقيام لله - وهو الوجل والاتعاظ عند ذكر القرآن وآياته.

أرأيت - أيها الأخ الكريم - إلى هذا القول المحكم - والتنزيل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

أرأيت أننا فى حاجة إلى أن ندرس القرآن، ونقبل على فهمه، ثم تأمله، وتدبر معانيه من جديد؟

الله تعالى يصور صلة عباده به فيعرض علينا صفات فيها بداية العقيدة الإسلامية ، وهى التوحيد - وفيها نهاية العقيدة الإسلامية أو غايتها - وهى تقوى الله - وفيها ما بين البداية والنهاية من عمل متنوع. وسبحانك يارب - ما أروع قرآنك، وما أكمل بيانك، وما أعظم إحسانك على عبيدك حين يفهمون بعض أسرار كتابك.

وأما الصفات التى تصور صلة العباد بغيرهم من الناس فهى أيضا على ترتيب الآيات : المحافظة على كمال المؤمن بين الناس، والإعراض عن مجالات اللهو والهوى ﴿ **الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ سورة الفرقان آية ٦٣ - وهى احترام النفس البشرية والتصون ﴿ **ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون** ﴾ سورة الفرقان آية ٦٨ - وهى الترفع عن كل باطل أو عن شهادة الزور ﴿ **والذين لا يشهدون الزور، وإذا مروا باللغو مروا كراما** ﴾ سورة الفرقان آية ٧٢ - وهى صفات تتناول العلاقات الاجتماعية فى تنوعها، وتصون على المجتمع الأرواح والدماء والأعراض والكرامة البشرية - صفات تجعل عباد الرحمن فى أكمل صورة، وتدعم فكرة الأخوة الإسلامية التى حرص الإسلام عليها فى كل تعاليمه ومبادئه.

وأما الصفات التى ترجع إلى نفس المؤمن فهى القصد فى الغنى والفقر ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما** ﴾ سورة الفرقان آية ٦٧ - وهى الرجاء فى ذرية صالحة، وبيت مطمئن بالزوج والولد ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين** ﴾سورة الفرقان آية ٧٤.

على أننا فى مجال التخصيص هذا لا ننسى أن هناك ترابطا وتكاملا بين هذه الصفات فما يتصل منها بالنفس أو بالعباد يقوى فى الوقت ذاته صلة العبد بربه - وما يتصل منها بالعباد أو بالله يمنح النفس البشرية فى ذاتها وكيانها كمالا - وما يتصل منها بالنفس أو بالله يجعل النفس البشرية، أقدر على التعامل مع الناس - فلا فصل فى الحقيقة بين هذه الصفات إلا فيما يتصل بمجال البحث والتحليل - أما هى فخيوط متشابكة تتناثر فى بدايتها، ثم تتلاقى فى النهاية لتجعل من المؤمن عبدا صادقا فى عبوديته لله، وتمنحه ما فى هذه العبودية من تشريف وتكريم.

وجدير بالباحث المتأمل أن يرى إلى ما فى هذه الصفات من تنوع آخر يجمع الحسى منها والعقلى، ويسوق المجرد إلى جانب المادى الملموس - ويضم الروحى إلى ما يرتبط بالبدن على نحو من الإعجاز فى التصوير لا يمكن أن يكون إلا من وحى العزيز القدير.

ونريد أن نوضح جانبا جديدا فى هذا التنوع - ثم نبين ما فى هذه الصفات من تكامل.

أما التنوع الذى نعنيه هنا فهو التنوع بين الحسى والمعنوى بين صفات تكمل الجسد، وتهذبه، وتحد من نزعاته ورغباته، وصفات تنقى الروح، وتربيها، وتعدها لتحمل رسالتها فى إعداد المسلم الكامل.

ومن كمال الإسلام إنه جمع بين الأمرين، ووازن بين الناحيتين - فلم يغلب إحداهما على الأخرى، ولم يجعل عنايته بواحدة منهما سبيلا إلى إهمال الثانية - ولقد ظن بعض الباحثين أن غاية الأديان هى تربية الأرواح وحسب - وتعالى الله، وتنزهت رسالة محمد عن أن تصاب بهذا التقصير - لأن الصلة بين الجانبين عميقة الجذور، بعيدة الآثار، وكل تهذيب لإحداهما كفيل بأن يزيد الأخرى صقلا وطهرا وكمالا. ومشكلة الإنسانية اليوم هى مشكلة المادة والروح - وسلطان المادة يتسع فيكاد يبرز على مسرح الأحداث، وسلطان الروح يكاد يتوارى أمام حضارة القرن العشرين - ونحن المسلمين ينبغى أن نقف عند حدود رسالتنا، وأن نهتدى بتعاليم ديننا، وأن نحافظ على التوازن بين الأمرين - ولقد بالغت بعض الأديان فى نسيان الجسم ومطالبه ونزعاته ورغباته الفطرية العامة ، واتجهت إلى الروح تغذيها بالطاعة والعبادة فكانت النتيجة هذا الهجوم الذى تتعرض له الأديان من بعض المذاهب الفكرية أو الاجتماعية.

ثم وقعت هذه المذاهب والفلسفات فى نفس الخطأ حين اتجه بعضها إلى الجانب الآخر تماما، ونادى بالفلسفة المادية، وما يتبعها من نسيان للروح، ونسيان للآخرة - وتحليل للتاريخ على ضوء هذه المبادئ مما انتهى به إلى إنكار الأديان - بل وإنكار وجود الله سبحانه - وبهذا وقع فى أخطر ما يقع فيه الفكر البشرى، ودلل على قصور العقل الإنسانى، وعلى ما يصيبه فى أحيان كثيرة من الضلال من حيث يظن الهداية. وهو بهذا يبتعد عن الفطرة البشرية، فالدين فى الوجدان، وتقديس الله سبحانه فى ضمير كل إنسان . ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله**﴾ سورة لقمان آية ٢٥.

الإسلام دين الخير كله، دين الصواب كله، دين الصدق كله - دين يجمع بين المادية والروحية، ويعطى كلا حقه. وينظم المنهج السلوكى فى كل من الناحيتين - ثم يزيد على ذلك أنه ينظم العلاقة بينهما على أساس من التعادل والتوازن والتكامل - فكان بذلك أكمل الأديان، وكان بذلك مهيمنا على ما سبقه من رسالات - وصدق الرسول صلوات

الله وسلامه عليه حين نصح أحد الصحابة فقال : «ألم أخبر أنك تصوم ولا تفطر - وتصلى الليل فلا تفعل - فإن لزوجك عليك حقا - ولزورك عليك حقا - ولبدنك عليك حقا - فصم وأفطر - وصل ونم» فى حدود هذا المبدأ كانت صفات عباد الرحمن هى الكمال الجامع بين الروحانية والمادية - فيها طريقة للتعامل مع الناس، وفيها الرغبة فى الولد والزوج على صلاح - وفيها إلى جانب ذلك الخشية من الله ، وقيام الليل حين ينام الناس. وقد تبدو سيادة الجانب الروحى عند تعداد الصفات - لكن ذلك لا ينفى أن الإسلام يعطى كل جانب ما يناسبه، ولقد قلنا إنه يبنى الصلة بينهما على أساس من التعادل والتوازن، وهذا هو سر الكمال.

هذا هو ما قصدنا إليه بالتنوع

أما التكامل فشئ آخر - شئ بعد الكمال، وأعظم من الكمال - التكامل هو اجتماع الصفات على صورة معينة فليس يكفى مجرد اجتماعها فى شخص معين حتى يكون عبدا من عباد الرحمن - ليس يكفى أن يكون المؤمن ذاكراً لربه، قائما ليله صائما نهاره، معرضا علن اللغو، محترما للحقوق وللدماء وللأعراض - إنما يجب بعد ذلك أن تلتقى على هدف معين، ولغاية معينة، فلم تقصد آيات الفرقان إلى أن يتصف عباد الرحمن بهذه الصفات وحسب - وإنما قصدت أن يساند بعضها بعضا، وأن ينمى بعضها بعضاً، وأن تهدف إلى الكمال المطلق - وفى المثال غير إيضاح .

إن وجود المواد الأولية التى تلزم لبناء البيت - لا يكفى لقيام البناء- وإنما يظهر البيت إلى الوجود حين توضع هذه المواد على صورة معينة، وشكل خاص.

والإنسان مكون من لحم وعظم ودم وشعر...إلخ - فهل يكفى مجرد وجود هذه المواد حتى يوجد الإنسان؟ بالطبع لا - وإنما يجب أن توجد على شكل معين، وبنسب معينة، وتتفاعل على أساس مقصود، ولهدف مرسوم، وبهذا يوجد الإنسان - وبهذا اختلفت الأشكال والألوان، فكانت أدل على قدرة الرحيم الرحمن ﴿ **واختلاف ألسنتكم وألوانكم** ﴾ سورة الروم آيه ٢٢ - وجلت قدرة الله.

هناك إذن سر وراء تعدد هذه الصفات، ووراء اجتماعها - سر أراده الرحمن ليربى عباد الرحمن ولعلنا نهتدى - ونحن على طريق البحث - إلى هذا السر - وحسبنا اليوم أن نقف على أبوابه.

وصفات «عباد الرحمن» أكثر مما ورد فى هذه الآيات - فالله سبحانه وتعالى لم يرد حصر هذه الصفات، وإنما أراد أن يضرب لنا أمثلة - ودليلنا على ذلك أنهم وصفوا فى آخر

الآيات «بالصبر» ﴿**أولئك يجزون الغرفة بما صبروا**﴾ سورة الفرقان آية ٧٥ – وأنهم وصفوا من قبل بالتوبة والعمل الصالح المدعم للإيمان ﴿**إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا**﴾سورة الفرقان آية ٧٠.

فعبودية الرحمن شئ أكبر مما نفهمه بعقولنا من هذه الآيات – وعظمة العبودية لمن يقدرها تتجاوز كل الحدود – ورب العزة جلت قدرته جعل العبودية نفسها جزاء الطاعة، وقرنها بالجنة، بل قدمها على الجنة، العبودية غاية النفس المطمئنة – النفس الراضية – النفس المرضية، وصدق العزيز الحكيم ﴿**يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية، فادخلى فى عبادى ، وادخلى جنتى**﴾سورة الفجر آيات ٢٧ : ٣٠.

الجزاء

ينتهى بنا الحديث عن «عباد الرحمن» إلى غايته – وها نحن أولاً نصل بعد هذه الجولة الكبرى إلى حيث يجب أن نقف – وأن نسأل : وما النتيجة ؟ وما جزاء هؤلاء العباد عند الرحمن؟

وأقول : سبحانك يارب – قضيت على عبادك – وقضيت على ذاتك – وقضاؤك العدل والحكمة. جعلت لكل عمل غاية، ولكل تعب ثمرة – وسننت مبدأ الثواب والعقاب حتى لا يكون خلق السموات والأرض عبثا – والشجرة الطيبة لا تثمر إلا طيبا ، (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه» وعباد الرحمن جزاؤهم عند الرحمن ، يقصر عن تصويره البيان – جزاء يكافئ عدله، ويوازى فضله، ولا حدود لعدل الله وفضله،

يقول الله تعالى : ﴿**أولئك يجزون الغرفة بما صبروا، ويلقون فيها تحية وسلاما، خالدين فيها، حسنت مستقرا ومقاما**﴾ سورة الفرقان آيات ٧٥ : ٧٦ – وهذا هو ثوابهم، وما أعظمه من ثواب.

جزاؤهم الغرفة هكذا بأداة التعريف (ال) وكأنه لا غرفة تعرف وتذكر إلا هذه الغرفة – وهى الجنة العالية، بكل ما فيها من ألوان النعيم، وبكل ما عرفه المؤمنون عن جناب الله من أوصاف توالت فى كتابه الكريم، وعلى لسان رسوله العظيم.

ثم انظروا معى – أيها المسلمون – إلى ما فى هاتين الآيتين من صور التعبير القرآنى المعجز: أولئك – اسم إشارة للبعيد، وهم ليسوا بعيدين – لافى الحديث، ولافى منزلتهم من الله – وإنما هو بعد فى المكانة، وعلو فى الدرجة، وارتفاع بها إلى حيث يشار إليهم فى منازلهم العالية السامية فيقال : أولئك وهذا الجزاء يساق لهم من كل مكان، وعلى

كل هيئة، فلا يعرفون من أين يأتى، ولا من يقدمه لهم ولهذا قيل (يجزون) فبنى الفعل للمجهول، ونسب إلى غير معروف تحقيقا لهذه الصورة . وتنبيها لهذه الغاية.

وقد استحقوا ذلك كله بسبب صبرهم - فهى إذن صفة جديدة تذكر لهم حين يقتضى المقام ذكرها - وفى هذا تدليل على ما سبق أن ذكرناه من أن الصفات التى ذكرت لهم ليست هى كل صفاتهم، وأنهم عباد اجتمعت لهم كل صفات الكمال ما عرف منها ومالم يعرف - ماذكر منها وما لم يذكر.

ولقد ادعى بعض المفترين على الدين الإسلامى أنه دين نعيم حسى - وقالوا : إن القرآن يغرى الناس بالجنات، وبالحور العين، وبأنها من خمر وعسل ولبن - فهو دين حس وشهوة - وكذبوا - فالله تعالى حين يذكر هذا النعيم الحسى لا يخرج على طبيعة النفس البشرية التى تتطلب بفطرتها هذا النوع من الجزاء والثواب، ولو كان الأمر أمر جزاء حسى، وشهوة بهيمية لكان الكفار القدامى، ومعهم أرباب الحضارة المادية اليوم هم أسبق الناس إلى هذا الدين طلبا لهذا النعيم الحسى الذى استغرق حياتهم فى الدنيا - وليس أبوجهل مثلا أزهد فى هذه اللذة من عمر بن الخطاب حتى يعرض عنها - وليس ربيب الحضارة الأوروبية أزهد فيها من ربيب الدعوة المحمدية - إنما هو افتراء يهدف إلى مجرد التشويه ولو لم يكن له أساس حتى فى ذهن من يفتريه - ومع ذلك كله - فالنعيم فى القرآن يتناول أشياء أخرى وراء اللذة الحسية- وفى آيات الرحمن هنا يقدم الله تبارك وتعالى ألوانا منه - فهو فى الدنيا يعطيهم التوبة، ويبدل سيئاتهم إلى حسنات، وهذا ليس نعيما حسيا - وهو فى الآخرة يعطيهم نعيم الروح والرضوان ﴿ **ويلقون فيها تحية وسلاما** ﴾سورة الفرقان آية ٧٥.

إنهم وفد الرحمن - تتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب - سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار** ﴾ سورة الرعد ٢٣ -٢٤.

فالله سبحانه وتعالى يوفد ملائكته لا ستقبالهم، وتحيتهم والسلام عليهم حين يفدون عليه فى دار نعيمه، وقد صدقهم ما وعدهم ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ سورة الزمر ٧٣.

فمن النعيم الروحى هذا الاحتفال والاستقبال - ومنه هذه التحية والتسليم - ومنه هذا الطيب والحسن والاستقرار والخلود ﴿ **سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾سورة

الزمر ٧٣. ﴿**خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما**﴾ سورة الفرقان آية ٧٦ - وأى نعيم روحى فوق الطيب والسلام والأمان والخلود؟ ماذا يطلب الإنسان وهو بإنسانيته جسم وروح - ماذا يطلب وراء ذلك : جنة عرضها السموات والأرض، وأزواج مطهرة فيهن الأنس والألفة والمودة وكل معانى التعاطف والتلاقى - وحياة لا مرض فيها ولا هموم، وتحيات وسلامات ، وطيب لقاء وبقاء - وأمان لاخوف فيه ولا بعده، وخلود لا موت وراءه ولا فكر فى موت أو فناء.

هل هناك شىء وراء ذلك؟ نعم هناك النعمة الكبرى - هناك المتعة الروحية، هناك رضا الله ورحمته - وهناك رؤية الله تبارك وتعالى- ورؤية الله سبحانه فى مقامه العلى شئ وراء التصور والتخيل، وفوق البيان والتحدث - ولا نهاية لفضل الله، وتلك عقبى المتقين، وصدق الرسول الأمين ليلة جلس إلى أصحابه وقد اكتمل البدر فى السماء فقال : «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر» وصدق الله العظيم ﴿**وجوه يومئذ ناضرة - إلى ربها ناظرة**﴾سورة القيامة آيات ٢٢ : ٢٣.

نسأل الله العلى القدير أن يغفر لنا تقصيرنا، وأن يجعلنا من عباده المخلصين وممن يحب ويرضى.

وهو الموفق والهادى إلى سواء السبيل

مثل المؤمنين

الحمد لله حمداً كثيرا طيبا مباركا كما ينبغى لجلال وجهه ولعظيم سلطانه اللهم إنى لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

وأشهد أن لا إله إلا الله وهب الإنسان نعمة العقل وخصه بهذا الفضل فآمن به حق الإيمان إلا من فسدت فطرته وكتبت شقوته وحمداً لك اللهم أن هديتنا إلى توحيدك فكنا فى المؤمنين من عبيدك نرجوا ثوابك ونخشى عقابك ونبتغى إليك الوسيلة وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله عليه أزكى الصلاة وأتم السلام فهو نبراس الحق وإمام الخلق وسيد ولد آدم.

أما بعد : فيا أيها المؤمنون :

لقد كرم الله أمة محمد فى كتبه المقدسة، وأثنى على المؤمنين فى التوراة والإنجيل، وجعل حديثهم مثلا يضرب ويروى قبل وجودهم - ثم جاء القرآن الخالد/ فحدثنا عن هذا التكريم، وأعاد الثناء فى صورة حية - تحمل بلاغة اللفظ، وعمق المعنى، وتعرض الفكرة النبيلة فى عبارة نقية بليغة.

وهذان مثلان للمؤمنين من أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه - ذكرهما القرآن الكريم فى سورة الفتح - قال تعالى : ﴿ **محمد رسول الله - والذين معه أشداء على الكفار، رحماء بينهم - تراهم ركعا سجدا - يبتغون فضلا من الله ورضوانا - سيماهم فى وجوههم من أثر السجود - ذلك مثلهم فى التوراة - ومثلهم فى الإنجيل - كزرع أخرج شطأه، فآزره، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما** ﴾ سورة الفتح آية ٢٩.

ومن روعة القرآن/ أنه قبل أن يذكر المثلين/ قدم حقيقة - هذه الحقيقة هى سر المثلين، وهى سببهما، ولولاها ما كان لأصحاب المثلين وجود- قال تعالى ﴿ **محمد رسول الله** ﴾ فقرر الأساس. ووضع الحقيقة أمام الأذهان - فإذا كان هناك من فضل يذكر للمؤمنين بعد ذلك / فأصله هو هذه الرسالة، ومنبعه هو محمد الرسول - وهو وصف جميل يبين أنه موضع الاختيار.

ثم عرضت الآية صورة حية لأصحاب محمد فى التوراة، اشتملت على صفاتهم وأحوالهم، وقد بدأ الله الحديث بقوله ﴿**والذين معه**﴾ أى مع محمد حتى نفهم من البداية أن محمدا هو المعلم وهو الأستاذ، **وأول صفاتهم** أنهم يجمعون بين أمرين متضادين : الشدة والرحمة - أما **الشدة** فعلى أعدائهم - وأما **الرحمة** فلإخوانهم - وهذه صفة المؤمن : يكون شديدا عنيفا على الكفار، رحيما براً بالأخيار. وقد ورد ذلك فى القرآن، وفى الحديث النبوى .

قال تعالى : ﴿**فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه - أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين**﴾ سورة المائدة آية ٥٤ - والذلة هنا هى الرحمة. والعزة هى القوة والمنعة - وقال تعالى داعيا إلى الشدة والغلظة فى معاملة الكفار ﴿**يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة**﴾سورة التوبة آية ١٢٣ - وقال صلى الله عليه وسلم فى توضيح حقيقة التراحم والمودة بين المؤمنين «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد. إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» وقال صلوات الله وسلامه عليه «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين اصابعه، وإنما كان الصحابة كذلك. اقتداء برسولهم العظيم - وقد كان صلى الله عليه وسلم كما وصفه القرآن ﴿**بالمؤمنين رءوف رحيم**﴾سورة التوبة آية ١٢٨ .

وعن الحسن رضى الله عنه : «بلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تمس ثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم - وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه».

ونحن لا ندعو إلى ذلك - فإنه مظهر صورى / إنما نرى أن أساس الفكرة هو الحب القلبى، والشعور بمصلحة الأخ المؤمن. والإحساس بما يؤلمه، ومعاونته إذا احتاج، وتهنئته إذا وفق، والفرح لفرحه، والحزن لحزنه، ويمتد الأمر بعد ذلك إلى مجال التعاون العملى والتساند الفعلى.

هذا هو معنى التراحم والتعاون - ليس مجرد مظهر كما نفعل اليوم، إنما هو إيمان قلبى يترجم إلى سلوك عملى.

أما مع الكفار فالأمر مختلف - إن كنا معهم على تهادن ومسالمة، فلا معنى للمشاحنة والمغاضبة، وإن كنا معهم على حرب وقتال، فالأمر إذن أمر حياة أو موت، لا

يكفى فيه تقطيب الوجه كما يرى بعض المفسرين - إنما يحققه فلسفة القوة والشدة والعنف.

وما أحوجنا اليوم إلى ذلك، ما أحوجنا إلى أن نقف من أعدائنا موقف القوة والعنف حتى يتحقق فينا قول الله ﴿ **أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾ سورة الفتح آية ٢٩.

وهذه صفات أخرى لهم فى إطار هذا المثل من صفات المؤمنين/ ما حكاه القرآن الكريم حين قال : ﴿ **تراهم ركعا سجدا، يبتغون فضلا من الله ورضوانا** ﴾ سورة الفتح آية ٢٩.

والركوع والسجود مظهران عمليان يعبر بهما دائما عن الصلاة، وذلك لأن الركوع والسجود أبرز أركان الصلاة - فيهما حركة جسمية، وفيهما زيادة فى الصلة الروحية بالله - وقد قال صلوات الله وسلامه عليه «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» - وفى الركوع والسجود أيضا معنى الخضوع والذلة لله - والخضوع أقوى معالم الطاعة، وليس مع الله ذلة، وليس فى الخضوع له دلالة معيبة - إنما هو الضعف البشرى يرتفع ليقترب من القوة الإلهية - فإذا ما التقى المظهران، مظهر الخضوع الكامل من العبد، ومظهر الجلال الخالص من الرب - كان ما يرجوه الضعيف - وهو القبول والرضا من الله.

والآية الكريمة حين تقول ﴿ **ركعا سجدا** ﴾ تختار لفظين يعبِّران عن كثرة الركوع والسجود فهم فى عبادة دائمة، وهذه العبادة المتصلة ذات غاية واحدة هى طلب الفضل والرضوان من الله، فالعبادة إذن خالصة لله، صادقة فى الاتجاه إليه - وانتظار المثوبة من الله أمر لا ينقص من طاعة المؤمن وإخلاصه - وقوله تعالى ﴿ **يبتغون فضلا من الله ورضوانا** ﴾ سورة الفتح آية ٢٩ - يوضح حقيقة أخرى، هى أن ما يمنحه الله لعباده نظير طاعتهم وعبادتهم/ إنما هو فضل منه وكرم. والرضوان أعظم درجة من الفضل - قال تعالى : ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾سورة التوبة آية ٧٢.

ومن صفات المؤمنين ما ذكره الله فى قوله : ﴿ **سيماهم فى وجوههم من أثر السجود** ﴾سورة الفتح آية ٢٩.

سيماهم أى علامتهم - وقد فهم الناس علامة الإيمان فى الوجه على معنيين :

الأول : أنها هذه النكتة السوداء التى تظهر فى الجبهة من أثر السجود، وتعمد بعض الناس أن يزيد هذه النكتة ظهورا وبروزا - وهذا مظهر خادع ، فإن زاد على المألوف

كان صورة من صور النفاق : تعيب الوجه، وتذهب عنه البهاء والجمال - وقد رأى ابن عمر رضى الله عنه رجلا قد أثر فى وجهه السجود - فقال له : «لا تشن صورتك».

والمعنى الثانى : أنها السمت الحسن - قال مجاهد : «إنه ليس بالذى ترون - ولكنه سيما الإسلام وسمته وخشوعه - ليس بندب التراب فى الوجه، ولكنه الخشوع والوقار والتواضع».

ولا شك أن العبادة الصادقة تنير الوجه، وتكسبه جمالا وبهاء ووضاءة وملاحة، هى ملاحة الإيمان والاطمئنان والرضا والثقة بالله - ولقد قال بعض السلف : «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» - وقال بعضهم : «إن للحسنة نورا فى القلب - وضياء فى الوجه - وسعة فى الرزق - ومحبة فى قلوب الناس» - وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان : «ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه، وفلتات لسانه» وروى الإمام أحمد عن النبى صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : «إن الهدى الصالح، والسمت الصالح- والاقتصاد - جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة».

وقد رأى بعض المفسرين أن علامة الإيمان فى الوجه كما تكون فى الدنيا تكون فى الآخرة، ويوم القيامة ترى المؤمنين وقد أضاءت وجوههم - وأشرقت بنور ربهم - قال ابن عباس رضى الله عنهما : «صلاتهم تبدو فى وجوههم يوم القيامة».

والمؤمنون يبعثون يوم القيامة غرا محجلين من أثر الطهور.

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إن أمتى يأتون يوم القيامة غرا محجلين من أثر الوضوء».

يا أخى المسلم :

هذه جوانب الصورة التى قدمها المثل - قال تعالى بعد أن ذكر هذه الصفات : ﴿**ذلك مثلهم فى التوراة**﴾ سورة الفتح آية ٢٩.

أى هذا هو المثل الذى ذكرته التوراة للمؤمنين من أتباع محمد صلوات الله وسلامه عليه وما أروعه من مثل، ومثلهم فى الإنجيل ، قال تعالى : ﴿**ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه - فآزره، فاستغلظ، فاستوى على سوقه، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله**

الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما﴾سورة الفتح آية ٢٩ - لهذا المثل جانبان - وفيه صورتان متقابلتان.

صورة المؤمنين مع رسولهم العظيم - وصورة الزرع حين يبدأ صغيرا، ثم ينمو ويستوى عوده. ونوضح الصورتين فنقول :

أما صورة الزرع فمألوفة لنا، وهى صورة محسوسة، تراها العين، ويتابعها الذهن، هذا الزرع يبدأ صغيرا ، ثم ينمو ويكبر، والشجرة الكبيرة تكون أمًّا لأشجار صغيرة تنبت حولها وهى ما عبر عنه القرآن بالشطء - الشطء للزرع هو فراخه الصغيرة - يقال : أشطأ الزرع إذا أفرخ، وخرجت حوله أشجار صغيرة تبدو حول الشجرة الكبيرة كأنها فراخ الطير حول الأم. ونحن نرى النخلة الكبيرة، وقد تناثرت حولها نخلات صغيرة تعيش فى حماية الأم، ثم تكبر هذه الفراخ الصغيرة من الزرع، وتغلظ ، ويزداد حجمها، ثم تستوى على سوقها وتتكون مجموعة من الأشجار الوارفة الظلال حول الشجرة الكبيرة أو الشجرة الأم.

وأما صورة المؤمنين مع محمد صلى الله عليه وسلم فهى مثل هذه الصورة.

أصل الزرع هو محمد - هو الشجرة الكبيرة، هو الشجرة الأم، فى حماها وظلالها وعلى غذائها نبتت فراخ أخرى. نشأ أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، ونشأ غيرهم من أجلاء الصحابة فكانوا حول الرسول كما تكون النخلات الصغيرة حول النخلة الكبيرة - ثم قوى إيمان هؤلاء الرجال، وازداد يقينهم، فآزروا محمدا صلى الله عليه وسلم فى دعوته - عاونوه وساندوه حتى أصبح الإسلام قوة عظيمة تتألف من هذه الجماعة : محمد وأصحابه المخلصين قال ابن كثير : «فكذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع».

أما قوله تعالى بعد ذلك : ﴿**يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار**﴾ سورة الفتح آية ٢٩ - فمعناه أن هذا الزرع الإسلامى نما وأثمر - وآتى أكله شهيا، وأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين التفوا حوله صاروا مثلا يضرب للناس فى إخلاصهم ويقينهم وتآلفهم وحبهم للرسول .

قال صلى الله عليه وسلم : «أصحابى أمنة لأمتى فإذا ذهب أصحابى أتاهم ما يوعدون» أى جاءتهم الفتن ونزلت بهم المحن، وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

على مدى التاريخ منذ ذهب أصحابه إلى اليوم. ولو كان بيننا الآن أمثال أبى بكر وعمر ما صرنا إلى ما نحن فيه من هوان وضعف.

وقال صلى الله عليه وسلم : «لا تسبوا أصحابى ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

وبعد :

فقد عقب القرآن على هذين المثلين بقوله : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما** ﴾ سورة الفتح آية ٢٩.

ولنا عن هذا التعقيب كلمتان :

الأولى : تتعلق بكلمة (من) فى قوله : ﴿ **وعملوا الصالحات منهم** ﴾ - ومعناها أن الله قد وعد من أقام منهم على الإيمان، وظل عليه وعلى العمل الصالح -

أو معناها - أن الله قد وعد الذين آمنوا من هذا الجنس الصالح - فهى لبيان الجنس، أى جنس الصحابة الأخيار.

والكلمة الثانية عن قوله : ﴿ **مغفرة وأجرا عظيما** ﴾ سورة الفتح آية ٢٩.

ففى هذا القول بيان للنتيجة وللأجر - النتيجة هى المغفرة - والأجر هو الثواب العظيم والرزق الكريم.

وهذا وعد من الله - وعهد أخذه على نفسه

ووعد الله حق وصدق - ومن أوفى بعهده من الله؟ إن الله لا يخلف الميعاد.

نسأله سبحانه أن يستعملنا فى طاعته وأن يثبتنا عليها وهو الموفق والمعين.

صفات المؤمنين

الحمد لله كاشف البلاء باسط الأرض ورافع السماء خالق الخلق واختار منهم أصفياء يحبهم ويحبونه فباعد بينهم وبين أعمال الأشقياء فتقبل منهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم يوم اللقاء.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد ... فيا أيها المسلمون

فلقد كثر ذكر المؤمنين فى كتاب الله تعالى، وفى حديث رسوله الأمين - وترددت هذه الكلمة على ألسنة بعض الناس فى صور تدل على أن معناها غير واضح فى الأذهان - والإيمان فى اللغة هو التصديق، فأنت مؤمن بالشئ حين تصدق به ، وأنت مؤمن بالله ورسوله حين تصدق بهما - وهكذا غير أن الإيمان فى مدلوله الدينى يحتاج إلى صفات كثيرة حتى يكون إيمانا كاملا قاله الله تعالى رداً على بعض الأعراب **﴿قل لم تؤمنوا - ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾**سورة الحجرات آية ١٤.

المؤمن الحقيقى هو الذى يصدق بقلبه تصديقا جازما بكثير من الأمور بحيث يحمله هذا التصديق على سلوك معين هادف - وفى حديث شريف رواه عمر بن الخطاب توضيح لدرجة عالية من الإيمان - قال عمر : «بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه فينا أحد» ويمضى عمر فى حديثه حتى يروى : قال أى الرجل يسأل الرسول : «فأخبرنى عن الإيمان - قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». ففى هذا الحديث تحديد لأصول الإيمان وأسسه، ومصداقه قول الله تعالى فى سورة البقرة : **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله﴾**سورة البقرة آية ٢٨٥.

لكن الإيمان لا يقف عند حدود، وإنه ليزيد ويزيد حتى يرجح إيمان فرد واحد إيمان الأمة كلها، ولا يتحقق ذلك إلا بصفات كثيرة - كلها أثر من آثار العقيدة الصادقة -

ونستطيع أن نجد هذه الصفات فى الآيات التالية :

﴿ **إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا . وسبحوا بحمد ربهم، وهم لا يستكبرون- تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ، ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ سورة السجدة آيات ١٥، ١٦ - فهم عباد مخلصون، قد شفت نفوسهم ، ورقت طباعهم ، وملأت الخشية قلوبهم، وانصرفوا إلى بارئهم عن كل شئ.

صفتهم الأولى أنهم إذا ذكروا بآيات الله ودلائل قدرته، خروا لها ساجدين، واستمعوا لها وأطاعوها قولا وفعلا. تقشعر جلودهم إذا سمعوا كتاب الله، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله.

وصفتهم الثانية أنهم يسبحون بحمد الله، ويتكرر تسبيحهم فى كل وقت وفى كل مكان فالله يقول : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ سورة الأعلى ١ - ويقول : ﴿ **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود** ﴾ سورة ق آيات ٣٩ : ٤٠ - ويقول : ﴿ **وإن من شئ إلا يسبح بحمده** ﴾ سورة الإسراء آية ٤٤ - فلماذا لا يسارعون هم إلى التسبيح تنزيها لله وتقديسا، واعترافا بجلاله وعظمته.

وثالث صفاتهم أنهم يتركون النوم، ويقومون الليل ، يدعون الله خوفا من عذابه، وطمعا فى ثوابه - يعبدونه لا يشركون به شيئا والناس فى الليل واحد من ثلاثة : غارق فى لذيذ النوم - وعابث يرتكب الفسوق وراء ستار من ظلام - وعابد يضنيه السهر ويتعبه الرجاء. عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولحافه - إلى صلاته. رغبة فيما عندى. وشفقه مما عندى - ورجل غزا فى سبيل الله تعالى فانهزموا فعلم ما عليه من الفرار، وماله فى الرجوع فرجع حتى أهريق دمه رغبة فيما عندى، وشفقة مما عندى - فيقول الله عز وجل للملائكة انظروا إلى عبدى : رجع رغبة فيما عندى ورهبة مما عندى حتى أهريق دمه».

ورابع صفاتهم، أنهم ينفقون مما رزقهم الله، فيجمعون بذلك بين مختلف المقربات، يرضون الله بذكره وطاعته، ويرضون عباده بالصدقات.

وهذه الصفات تعطى إيمانهم درجة الكمال - ولقد روى معاذ بن جبل قال : «كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير فقلت يانبى الله أخبرنى عن عمل يدخلنى الجنة، ويباعدنى من النار، قال : لقد سألت عن عظيم،

وإنه ليسير على من يسره الله - تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت. ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة - والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل فى جوف الليل - ثم قرأ ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ سورة السجدة آية ١٦ - حتى بلغ ﴿ **جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ سورة السجدة آية ١٧ - وما رويناه هنا من الحديث يوضح أولا أسس الإيمان الضرورية، ثم يتحدث عن صفات الكمال فى المؤمنين ويدلل عليها بالآية القرآنية الكريمة.

وفى نهاية الآيات يأتى الجزاء، وقد أجملته الآيات فى صورة لا يتصورها عقل بشرى محدود ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ سورة السجدة آية ١٧ - وهو جزاء فوق التصور البشرى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة عنه : «يقول الله تعالى : (**أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**) ثم قرأ صلى الله عليه وسلم ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ سورة السجدة آية ١٧.

اللهم أكمل علينا إيماننا وامنحنا من فضلك بعض صفات عبادك المؤمنين.

وأقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

الفردية فى مجتمعنا

الحمد لله رب العالمين ولى الصالحين ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المتقين وحجة الله على الناس أجمعين وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

عباد الله..

لعّل من الظواهر الغريبة التى تستحق الدراسة .. ما يتميز به مجتمعنا من ميل إلى الفردية، وابتعاد عن روح الجماعة - فالرجل الشرقى بصفة عامة لا يؤمن بقيمة الأخلاق الاجتماعية، أو على الأقل لا يتخذها منهجا له فى حياته عندما يتعامل مع غيره من الناس.

قد يصل الإنسان الشرقى إلى درجة رفيعة من المثل الأخلاقية الفردية : فيكون صادقاً، شريفا، عفيفا، ويكون مجُدّا، مثابرا، محبا للعمل - لكنه يبقى فى الكثير من أحواله قليل التعاون مع غيره، بعيدا عن المشاركة بإيجابية فى أحداث مجتمعه، ويقف فى سلبية موقف المتفرج من كل حدث خطير لا يمَسُّ كيانه هو أو أسرته.

وعلماء الأخلاق يقسمونها إلى قسمين - أخلاق فردية كالأمانة والصدق والشرف - وأخلاق اجتماعية كالتعاون، والتكافل، وأداء الواجب ، والتضحية.

أما الأخلاق الفردية فتدور فى فلك الذات، تتصل بمصلحة الفرد، وتهدف إلى منفعته وحده، وإذا كانت فى النهاية تعود على المجتمع بالخير والمنفعة - لأن المجتمع أفراد - إلا أن الرجل الفردى لا يتمسك بهذه الأخلاق إلا من وجهة نظره هو، وإلا لأنها تعود عليه وحده بالمنفعة - أما ما وراء ذلك من فائدة للمجتمع فغير داخل فى تقديره، ولهذا فهو غير داخل فى اعتبار الباحثين والمصلحين.

وأما الأخلاق الاجتماعية فتهدف أولاً إلى خير الجماعة، تبدأ منها، ثم تنعكس على الفرد، ولهذا نسميها أخلاقا اجتماعية، وتسمى الأولى أخلاقا فردية، وإن كان فى كلا النوعين فائدة للفرد وللجماعة.

ظاهرة الفردية فى مجتمعنا تستحق الدراسة، وبخاصة فى هذا المجتمع الإسلامى - ذلك أن الإسلام أعطى «فكرة الجماعة» عناية خاصة. والدعوة إليها فى القرآن الكريم والسنة المحمدية قوية واضحة صريحة - فالله تبارك وتعالى يقول : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ - ويقول : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا، ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا** ﴾ سورة آل عمران آية ١٠٣ - ويقول : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ سورة الحجرات آية ١٠ - والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» - وأول عمل قام به صلوات الله وسلامه عليه بعد الهجرة هو المؤاخاة بين أبناء المجتمع الجديد، وتنمية روح الجماعة والأخوة بين المسلمين، وتكوين مفاهيم صادقة للوحدة والتماسك والترابط - والمسلمون الأولون كانوا نماذج صادقة لهذه المفاهيم على الرغم من اختلاف بيئاتهم وأجناسهم، والذى كوّن هذا المجتمع السليم من الرومى والحبشى والفارسى والعربى إنما هو الإسلام - لقد رباهم محمد صلى الله عليه وسلم فى مدرسة النبوة تربية اجتماعية جعلت منهم صورة كاملة للمجتمع الكامل - لقد تغلبت رابطة الأخوة والعقيدة بينهم على غيرها حتى على رابطة الدم، وهل سمعنا فى غير المجتمع الإسلامى أن رجلاً ترمى به أحداث الحياة إلى بيئة غريبة منذ طفولته، يعيش فيها عبدا ذليلا ثم يجد الخلاص فى إطار هذا المجتمع الجديد - حتى إذا عثر عليه أهله، وعثر عليهم أبى أن يترك أخوة الإسلام، وفضل البقاء مع محمد على الرحيل مع الأهل والعشيرة!!

لماذا إذن يعيش المسلم اليوم فى دنياه الخاصة، ولا يكاد يشارك فى أحداث مجتمعه إلا فى القليل النادر؟

لماذا ينمو فيتكوّن منه الفرد الكامل فى ذاتيته ولا يتكون منه الفرد المكمّل لجماعته؟ لماذا نبقى مطبوعين على حب الذات، وإيثار النفس، وقد كان المسلمون الأولون يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؟

أسئلة تثير فى النفس كوامن الألم، وتجعلنا نبحث عن الجواب.

بعض الباحثين يرجعون ذلك إلى ما يسمونه «بالطفولة الاجتماعية» أو «المراهقة

الأخلاقية» - يقولون : «إن المجتمع الذى تتغلب على أبنائه الصفات الفردية يكون مجتمعا فى طفولته مجتمعا غير ناضج - ويقولون : إن الطفل الصغير شديد الشعور بذاته - بل هو لا يكاد يدرك في الوجود غير ذاته، ثم يبدأ فيتعرف إلى والديه وأهله وعشيرته- ثم تنمو مداركه وتتسع دائرة معارفه، ولكنها كلها تتكون من خلال ذاته، ورغبات هذه الذات - ولا يتكامل وعيه الاجتماعى إلا بعد أن يصبح رجلا كامل التفكير، وبمقدار ثقافته يكون تقديره لمشاعر غيره، ومشاركته لأبناء مجتمعه فى آلامهم وآمالهم حتى ولو تعارضت مع ذاتيته ومشاعره.

وهكذا المجتمع - يبدأ فى طفولة، ثم يندرج فى مراحل التكون والترابط والتماسك وتبادل المنافع، ثم يكون التعاون الصادق، ثم يصل إلى أعلى الكمال الاجتماعى بالفداء والتضحية والإيثار.

وقد يكون هذا التحليل صحيحا فى مجتمعات أخرى غير مجتمعنا الإسلامى إذ كيف نقول عنه إنه مجتمع غير ناضج الآن وقد كان فى كمال نضجه منذ أربعة عشر قرناً؟

الحقيقة المرة أن هذا المجتمع قد ضلت به الطريق، وأثرت عليه مؤثرات أخرى أبرزها الاستعمار - لقد أصيب المجتمع الإسلامى بمحنة الاستعمار فكانت من أقوى عوامل ضعفه، وابتعاده عن مثله. وقد يظن بعضنا أن الاستعمار يكتفى بالسيطرة السياسية، أو المنفعة الاقتصادية - ولكن الواقع أن الاستعمار مرض يصيب المجتمعات فى داخلها - يخرب عقائدها، ويغير مثلَها، ويدمّر ما فيها من عوامل القوة والنمو الذاتى. يفعل ذلك حتى يضمن لنفسه البقاء.

إن الفرد فى المجتمع المستعمر يشعر بالخوف على نفسه - وعلى أسرته - فيدفعه هذا الخوف إلى الانكماش والابتعاد - يدفعه إلى الرغبة فى المحافظة فى ذاته فحسب - أعنى يدفعه إلى الفردية.

وأمتنا العربية المسلمة تخوض اليوم غمار معركة رهيبة مع الاستعمار، وهى لا تهدف من وراء هذه المعركة إلى طرد المستعمرين وتطهير الأرض فحسب، بل تهدف - ومن خلال المعركة - إلى تكوين مُثلها. ومبادئها القويمة.

إن المعركة واسعة الميادين - متعددة الجوانب - وإنّها لتصهر كل فرد فينا بنيرانها - وإنها لتربينا تربية جديدة أرأيتم إلى أبناء هذه الأمة اليوم يتسابقون إلى الموت، ويتدافعون إلى الشهادة.

لقد عادت لهم روح آبائهم - لقد ظلت بذور الخير والفضيلة حية فى ضمير هذا المجتمع الإسلامى، وإنها لُتنْبت اليوم أشجارا مورقة - لقد رواها على الزمن نبع التعاليم الإسلامية، وتُرويها اليوم دماء هؤلاء الشهداء وسيخرج المجتمع الإسلامى من المحنة متماسكا متعاونا كما أراد له الإسلام. وكما يجب أن يكون.

والحمد لله رب العالمين.

حزب الله

الحمد لله رب العالمين .. يارب .. ياستار العيوب استر عيوبنا ويا غفار الذنوب اغفر ذنوبنا ويا مفرج الكروب فرج كروبنا وقنا شر ما أهمنا وغمنا..

وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات.

أما بعد..

الإسلام دين الوحدة والأُلفة - لا تفريق فيه بين طائفة وطائفة، ولا تفضيل لجماعة على جماعة، والحزبية فيه بغيضة ممقوتة، لأنها تدعو إلى العصبية والفرقة، وتسبب الخذلان والضعف - لكنا نقرأ فى كتاب الله قوله تعالى : ﴿ **أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ سورة المجادلة آية ٢٢ - فما معنى ذلك؟

معناه - أن الله اختصّ جماعةً من الناس فجعلهم حزباً له، ومنحهم الفلاح والنجاح. وليس فى ذلك عصبيةُ ولا تفرقة - لأن هؤلاء القوم تميزوا بصفات خاصة، وكانوا أهلاً لرضوان الله، فجعلهم أهل كرامته، وأعطاهم شرف الانتساب إليه - فالتعبير هنا تشريف لهم وتكريم،هو كقوله تعالى ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ سورة الفرقان آية ٦٣ - وكقوله تعالى ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ سورة يونس آية ٦٢ - فحزب الله هم عباده المخلصون، وهم أولياؤه الذين اصطفاهم وكرّمهم، وأذهب عنهم الخوف والحزَن. وفى ذلك دعوة للناس جميعا، وترغيب لهم فى أن يكونوا من حزب الله، ومن أولياء الله، ليتحقق لهم الفلاح والفوز.

ولكن ليس من اليسير أن تكون واحدا من هذا الحزب - هناك شروط كثيرة ذكر الله بعضَها فى أول الآية فقال : ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم، أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم** ﴾ سورة المجادلة آية ٢٢ - فى الآية شرطان لابد منهما حتى تكون واحدا من أولياء الله، وحتى تستحق شرف الانضمام إلى حزبه وعباده.

الشـرط الأول - الإيمان بالله وباليوم الآخر - والإيمان ليس كلمة تقال، إنهُ تصديق بالقلب، وتنفيذ بالجوارح، ليس لفظا ينطق به، ولا أمنية نتمناها - إنه يقين وعمل - وصدق رسول الله (**ليس الإيمان بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل، وإن ناسا قالوا نحن نحسن الظن بالله، وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل**).

الشـرط الثانى - ألا يكون بينك وبين أعداء الله مودة، لا نتخذ من الكفار أولياء، ولا أصدقاء، بل يجب أن يكون ودك وحبك وإخلاصك كله لله ولرسوله وللمؤمنين - وإذا كان أهلك كفارا فابتعد عنهم، ولا تعطهم المودة، إذا خيرت بين الله وبين أهلك وعشيرتك فاختر الله سبحانه، ولا تعاد المؤمنين فى سبيل إرضاء الكافرين، ولا تكن عونًا لأعداء الدين على أبناء الدين، قال تعالى : ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء** ﴾ سورة آل عمران آية ٢٨ - وقال تعالى ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره - والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ سورة التوبة آية ٢٤.

فإذا ما تحققت الشروط، وصرتَ من حزب الله كان جزاؤك عند الله عظيما، اقرأ معى بقية الآية : ﴿ **أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ سورة المجادلة آية ٢٢.

اقرأ الآية وتأمل : الثواب ليس شيئا واحدا، بل هو ألوان متعددة، فيه تأييد بروح الله ورعايته وفيه جنات تجرى من تحتها الأنهار وفيه خلود فى هذه الجنات، وفيه رضوان من الله تعالى استحقوه حين سخطوا على أقاربهم فى سبيل الله، وفيه فلاح ونجاح فى الدنيا - وفيه بعد ذلك انتساب إلى الله تعالى، فهم أهل كرامته وهم عباده المخلصون، وهم أولياؤه وأحبابه - وليس بعد ذلك جزاء أو ثواب.

والله الموفق والمعين.

اعرف نفسك

الحمد لله وكفى وصلاة وسلاماً على عباده الذين اصطفى

وبعد..

أيها المسلم :

اعرف نفسك - هذه حكمة مأثوره قالها بعض الفلاسفة - وهى قطعا حكمة صادقة، لأن معرفة النفس هى أساسُ النجاح فى رحلة الحياة هذه التى نقطعها من الميلاد إلى الموت - وأنت تقضى هذه الرحلة مع نفسك، تصاحبها وتصاحبك، وتعتمد عليها فى كل أمورك - والنفس هنا هى ذاتك، هى أنت - ومعنى «اعرف نفسك» - ادرسها، واعرف مميزاتها وعيوبَها حتى تقطع رحلة الحياة على هدى وبصيرة . إذا عرفت ما أعطاك الله من مميزات استطعت استغلالها، وصقلها، والانتفاع بها - إن كانت عندك موهبة، نميتها، وهذّبتها، ووصلت بها إلى درجة تنفع بها الناس وتخدم البشرية، إن أعطاك الله علمًا علمت الناس، وإن أعطاك فنا أمتعت الناس - وهكذا .. وفى الجانب الآخر من الصورة تستطيع أن تعرف عيوبك، وأن تقف عندها طويلا، فتعالجَها وتصلحَ منها، والله سبحانه لم يخلق إنسانا كاملاً، وكل واحد منا له حسناته وسيئاته، وفضائله ورذائله، والعاقل من عرف النوعين، وتخلص من العيوب والسيئات.

ومن الغريب أن بعض الناس يظنون أنهم مُبَرأون من العيوب، وأن الله أعطاهم كل الفضائل، أعطاهم الفهم والذكاء، والعقل والمعرفة، ومنهم من يبالغ فى ذلك ويجعل من نفسه واعظاً لغيره، مرشداً لسواه. وليس عيبا أن تبذل النصيحة، فالدين النصيحة - ولكن العيب أن ترى عيوب الناس، ولا ترى عيوبك، وأن تأمرهم بالمعروف وتنسى نفسك، وأن تنهاهم عن المنكر وتُهمل ذاتك - هذا هو العيب كله، وهذا هو أكبر الأمراض النفسية.

كان اليهود يفعلون ذلك مع الناس، كانوا يعرفون الحق ويكتمونه، وكانوا يأمرون الناس بالبر والخير ويتناسون أنفسهم - ونزل القرآن الكريم يحكى عنهم، وفى الوقت نفسه يعلمنا نحن ويرشدنا - قال تعالى : ﴿ **ولا تلبسوا الحق بالباطل، وتكتموا الحق وأنتم**

تعلمـــون ﴾سورة البقرة آية ٤٢ - هو فى الأصل خطاب لليهود - لكنه تعليم لنا نحن المسلمين - ولقد سألهم الله بعد ذلك سؤالا فيه كل التوبيخ والإنكار، وفيه أيضا كل التوجيه والإرشاد لنا - قال تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر ، وتنسون أنفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب . أفلا تعقلون** ﴾ سورة البقرة آية ٤٤.

يا أخى المسلم - ابدأ بنفسك فاعرفها، وعلمها، وعالج عيوبها، ثم علم الناس وأرشدهم، وإلا صدق عليك قول الشاعر :

يأيها الرجـــل المعلـــمّ غيـره ... هلاَّ لنفسك كان ذا التعليمُ

تصف الدواء لذى السقام وذى القنا ... كيما يصحّ به، وأنت سقيمُ

ابدأ بنفـــسك فانهها عن غيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

النصيحة الصادقة الخالصة للنفس قبل أن تكون للناس، هذا خلق يتطلبه منا المنطق والعقل - إذ كيف تعلّم غيرك وأنت جاهل؟ كيف تدعو إلى فضيلة ليست فيك ؟ كيف تنهى عن رذيلة أنت غارق فيها؟ ستكون موضع السخرية، وسيكون نصحُك موضَع الرفض والإنكار. ولقد عاب الله على بعض المؤمنين أنهم تمنوا الجهاد، وقالوا كلاما عجزوا عن تنفيذه فقال ﴿ **يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ سورة الصف آيات ٢:٣ - وعلمنا شعيب ألاّ ننهى عن شىء ثم نفعلَه، وحكى القرآن الكريم عنه ذلك فقال ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنها كم عنه** ﴾ سورة هود آية ٨٨ - ومن الواضح أن المسؤولية تكون أخطر إذا كان هذا الناصح المخالف من العلماء الذين تصدوا للوعظ والإرشاد - روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتنزلق أقتابه فيدور بها فى النار كما يدور الحمار برحاه، فيُطيف به أهلُ النار فيقولون : يافلان - ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه».

وبعد

فإن معرفة النفس، والبدءَ بعلاج عيوبها - هما سرُّ النجاح فى رحلة الحياة.

فاللهم بصِّرنا بعيوبنا واهدنا إلى سواء السبيل

ولله الحمد فى الأولى والآخرة

معادن الناس

الحمد لله كاشف البلاء باسط الأرض ورافع السماء واختار من الناس أصفياء يحبهم ويحبونه فباعد بينهم وبين أعمال الأشقياء فتقبل منهم أحسن ماعملوا وتجاوز عن سيئاتهم يوم اللقاء.

وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ.

أما بعد..

فإن الحياة تجارب - تصهر معادن الناس ، وتكشف الأصيل من الزائف، وتخط سطورا فى كتاب الحياة يستفيد منها صاحب التجربة، ويستفيد منها غيره من الناس.

وتجارب الحياة أنواع :

تجربة بدنية وأخرى روحية - وتجربة فردية وأخرى جماعية، وتجربة خلقية وأخرى نفسية.

تجربة فيها من القسوة والعنف ما يذيب العزيمة، ويفتت الإرادة، ويُشقق جامد الصخر.

وتجربة فيها من الرقة واللطف ما يحيى ميت الأمل، ويبعث بالى العزم، ويسترد الطريدَ الخائفَ إلى ظلال الأمان والسلام.

تجربة تصيب البدن وحده لكنها تمتحن الروح وقد أصابت البدن، وتصل إلى الأعماق وقد وقفت عند الظواهر - وتُقطع نياط القلب وقد مسّت جارحة من الجوارح.

وتجربة تقصد إلى الصميم فتجرح اليقين، وتمزق الأعماق، وتسيل الكبد دماء صارخة بالألم والعذاب.

والناس أمام التجارب والمحن أصناف

من الناس من يقابل التجربة بالصراخ والعويل - ينسى كرامته، ويفقد شجاعته، يغفُل عن إيمانه - بل قد يُضيع هذا الإيمان. تصيبه المحنة، أو تناله التجربة فينقلبُ على وجهه، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين.

ومن الناس من يقابل التجربة بالجمود والغفلة، لا يدرك ما فيها من بلاء واختبار، ولا يعرف كيف يُقابلها، أو يتصرف أمام نوازلها، فهو كالبهيمة العجماء، تقف هادئة فى الحظيرة، وتجتر ناعمة طعامها، والجزار يشحذ لها سكينه الماضية - ولئن كانت البهيمة المسكينة تعرف المصير لما ساغ لها طعام - ولئن كان هذا الجامد الغافل يعرف معنى المحنة لما قابلها بالبله والسكون.

وكلا الرجلين خارج عن دائرة الإيمان.

أما الأول فلأنه فقد يقينه - **وأما الثانى** فلأنه فقد وسيلة التمييز والإدراك. **وصنف ثالث** - تُفزعه النقمة، وتبطره النعمة - إن أصابه خير فرح، وإن أصابه ضُرٌّ جزع، وعند الفرح لا يذكر ربّ النعمة، وعند الجزع لا يعرف إلا ربّه، يصدق عليه قول الله ﴿ **وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما . فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه - كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون** ﴾ سورة يونس آية ١٢. ويصدق عليه قول الله ﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا** ﴾سورة يونس آية ٢١.

وما أروع التصوير القرآنى حين يعرض علينا صورة المخادعين الكاذبين، الذين يرفعون إلى الله أكف الضراعة كلما نزلت نازلة، ويأخذون على أنفسهم العهود والمواثيق، حتى إذا مستهم رحمة الله كانوا أشد الناس بغيا وكفرانا. ﴿ **هو الذى يسيركم فى البر والبحر - حتى إذا كنتم فى الفلك . وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق - يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ سورة يونس آيات ٢٢:٢٣.

ومن الناس من ملأت حلاوة الإيمان قلبه، وسكنت الطمأنينة جوانبه - إن أصابه خير شكر - وإن أصابه ضُر صبَر - يرجو لقاء ربّه ، ويتجه بروحه وبعمله إلى الآخرة، يصدق عليه قول الله : ﴿ **وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله ، وإنا إليه راجعون** ﴾سورة البقرة آيات ١٥٥:١٥٦.

وبعد فيا أخى الكريم :

هذه أصناف من البشر، ومعادن من الناس أمام ألوان من التجارب ومحن الحياة - فأين أنت منهم ؟ وما مكانك بينهم؟

هل آثرتَ العاجلة على الآجلة؟ واخترت الدنيا على الآخرة، وكنت بين الجزعين الباغين؟

أو أنت ممَّن رضى بقضاء الله، وأقبل على المحنة يتعرف أبعادها، ويخبرُ أغوارها، ويخرج منها بزاد من الصبر واليقين؟

كن حيث أردت لنفسك - فقد وَضَحَتْ لك الحقائق، والله يقول : ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله - وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾ سورة النساء آية ٧٩.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

لئن شكرتم لأزيدنكم

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا كما ينبغى لجلال وجهه ولعظيم سلطانه اللهم إنى لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وصل اللهم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد ..

أيها الناس :

أمر الناس عجيب غريب - ترى الرجل منهم يعترف بالجميل لمن أحسن إليه، ويقدم له من الشكر والثناء ألوانا وصورا، فهو يمدحه فى كل مجلس، ويتفنن فى عرض صور الشكر - فيقدمه باللسان، أو يُعبّر عنه بالبيان، وقد يبالغ بعضهم فى ثنائه وشكره حتى يخرج به عن حدود الكرامة.

والشكر على النعمة فى ذاته خلقُ محمود - يدل على أصالة طبع شريطة أن يكون فى حدود الكرامة الإنسانية - بل هو فريضة توجبها الطباعُ السليمة، والعادات الكريمة. لكن الناس حين يقدمون الشكر للمخلوق ينسون تقديمه للخالق المنعم - لمن لا تحصى مِنَنُه - ولا تُعد مِنَحُه ، ولا تنتهى خيراته.

إن شكر الله فريضة «واجبة» - أليس هو الخالقُ البارئ المصور؟ جعل للإنسان عينين، ولساناً وشفتين، وهداه النجدين - أخرجه للدنيا سيدًا مطاعا، وفضّله على سائر خلقه - وسخرّ له الليل والنهار، والشمس والقمر، والبرّ والبحر، وضمن له الرزق : ولم يَطلب منه مقابل هذه النعم وغيرها إلا اعترافًا بربوبيته، وتقديسا لجلاله، وشكرًا لنعمائه ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ سورة النحل آية ١٨.

ولقد وضح الله لعباده قيمة الشكر فقرنه بالذكر حين قال : ﴿ **فاذكرونى أذكركم، واشكروا لى ولا تكفرون** ﴾ سورة البقرة آية ١٥٢ - مع أن درجة الذكر رفيعة - قال تعالى : ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ سورة العنكبوت آية ٤٥ - وسبحان الله - وصف نفسه فقال ﴿ **إنه غفور شكور** ﴾ سورة فاطر آية ٣٠ - ووصف عباده فقال : ﴿ **وقليل من عبادى الشكور** ﴾ سورة سبأ آية ١٣.

ومن دلائل فضل الله أنه حين طلب من عباده الشكر وعدهم بزيادة لا حدود لها، ولا

استثناء منها - فهى زيادة بلا نهاية، اقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾سورة إبراهيم آية ٧ - هكذا بدون تحديد للزيادة، ولا بيان لنوعها، فهى زيادة مطلقة، تناسب قدرة الله وكرمه.

مع أن الله تعالى قد جرت عادته أن يَعد ويجعل وعده مقيدا بمشيئته :

وعد عباده بالغنى، وجعله فى حدود المشيئة : ﴿**فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء**﴾سورة التوبة آية ٢٨.

ووعدهم بإجابة الدعوة فى حدود المشيئة : ﴿**فيكشف ما تدعون إليه إن شاء**﴾سورة الأنعام آية ٤١.

وجعل الرزق بغير حساب فى حدود المشيئة : ﴿**يرزق من يشاء بغير حساب**﴾سورة البقرة آية ٢١٢.

وجعل المغفرة فى حدود المشيئة : ﴿**ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾سورة النساء آية ٤٨.

وجعل قبول التوبة فى حدود المشيئة : ﴿**ويتوب الله على من يشاء**﴾ سورة التوبة آية ١٥.

أما الشكر فقد جعل ثوابه زيادة مطلقة، وعطاء غير محدود.

ولقد كان محمد صلوات الله وسلامه عليه أشدَّ الناس شكرا لله، لأنه كان أكثرهم رغبةً فى المزيد من فضل الله - غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأتم عليه نعمته، ومع ذلك كان أول الناس طلبا للقرب من الله، وكان أكثرهم ثناء على الله - كان يطيل السجود لله فى جوف الليل، فيطيل الدعاء، والبكاء - ويقول وجبينه الكريم على الأرض خضوعا لربه «أعوذ بعفوك من عقابك - وأعوذُ برضاك من سَخَطك، وأعوذ بك منك - لا أُحْصى ثناءً عليك - أنتَ كما أثنيت على نفسك».

ورُوى عن عطاء أنه قال : «دخلتُ على عائشة رضى الله عنها - فقلت : أخبرينى بأعجبِ ما رأيتِ من رسول الله ﷺ . فبكت وقالت : وأىُّ شأنه لم يكن عجبا؟

أتانى ليلة فدخل معى فى فراشى - أو قالت فى لحافى - حتّى مسّ جلدى جلدَه، ثم قال : يابنةَ أبى بكر ذرينى أتعبدّ لربّى، قالت قلتُ : إنى أحبُّ قربك لكنى أوثر هواك ،

فأذنتُ له فقام إلى قربة ماء، فتوضأ فلم يُكثر صبَّ الماء، ثم قام يُصلى فبكى حتى سالت دموعهُ على صدره، ثم ركع فبكى. ثم سجد فبكى - ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك يبكى حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة.

فقلت : يارسول الله : ما يُبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبكَ وما تأخر؟

قال : أفلاَ أكون عبدًا شكورا؟ ولِمَ لا أفعلَ ذلك وقد أنزل الله تعالى على﴿ **إن فى خلق السموات والأرض**﴾ سورة آل عمران آية ١٩٠.

أفلا أكون عبدا شكورا؟ هكذا كان رسول الله مع ربّه، فأين نحن من رسول الله مع ربنا؟ ورسول الله هو قُدوتنا الحسنة، ومثلنا الأعلى؟

أين نحن منه وقد جعلنا نعم الله علينا وسيلة للعصيان لا للشكران، وأداة للشرّ لا للخير، وصدق الله : ﴿ **وما يستوى البحران - هذا عذب فرات سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج - ومن كل تأكلون لحما طريا، وتستخرجون حلية تلبسونها، وترى الفلك فيه مواخر - لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾ سورة فاطر آية ١٢.

فعلينا أن نشكر الله سبحانه وتعالى عما نحن فيه

والحمد لله رب العالمين.

المؤمن بين الخوف والرجاء

إن الحمد لله نحمده ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله

أما بعد..

فيا أيها المسلمون :

الحديث عن الإيمان حديث ممتع ومفيد - فيه بحث ودراسة، وفيه معرفة وهداية، وفيه روحانية صافية، تمنح المؤمن شيئا من سلام النفس، وعذوبة التفكير، وراحة الضمير، والمؤمن الصادق يعيش دائما على صلة بربّه، يرجو ثوابه، ويخشى عقابه - يقرأ القرآن أو يستمع إليه - فيجد فيه من آيات الوعيد ما يذهب بعقله، ويطيش بُلبِّه ، ويملأ جوانبه بالخوف والرهبة - ويقرأ القرآن، أو يستمع إليه، فيجد فيه من آيات الرحمة، ما يعطيه الثقة والأمل، ويملأ قلبه بالرغبة والرجاء. وهكذا : يعيش بين الأمرين : الخوف والرجاء، مؤمنا صادقا مخلصا فى عقيدته وطاعته، كلما زاد خوفه زادت تقواه، وكلما كثر رجاؤه اقترب من الله.

ونخلص من هذا إلى أن الإيمان يعتمد على جناحين :

الخوف / الذى يُبعد عن الذنوب، وينجى من المهالك، ويعصم من الأخطاء.

والرجاء / الذى يدفع إلى الطاعة ، ويخفف من تكاليف العمل، وأثقال العبادة. وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تجمع للمؤمن صفتى الخوف والرجاء: قال الله تعالى فى سورة السجدة : ﴿**إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها ، خروا سجداً، وسبحوا بحمد ربهم، وهم لا يستكبرون - تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يدعون ربهم خوفا وطمعا، ومما رزقناهم ينفقون - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين، جزاء بما كانوا يعملون**﴾ سورة السجدة آيات ١٥ : ١٧.

وبهذا التعبير الرقيق صورت الآيات بعض صفات المؤمنين : إنهم عباد مخلصون - إذا تُليت عليهم آيات الله، خشعت لها قلوبهم، واطمأنت نفوسهم، وأطاعوها قولاً وفعلا. وسبحوا بحمد ربهم تسبيح الموحد الخاضع، البعيد عن الكبرياء والرياء، وهم يهجرون

مضاجعهم، ويتركون قومهم، ويتجهون إلى بارئهم فى عبادة ضارعة، ونجوى خاشعة، ويدعونه ويعبدونه خائفين طامعين. وكأنما يسبحون على جناحى رهبة ورغبة إلى رحاب الله الواسعة.

ويلتقى مع هذه الآيات ما رواه الإمام أحمد، عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ قال : «عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولحافه، من بين حبِّه وأهله، إلى صلاته، رغبة فيما عندى، وشفقة مما عندى - ورجل غزا فى سبيل الله تعالى، فانهزموا، فعلم ما عليه من الفرار، وماله فى الرجوع، فرجع حتى أهريق دمه، رغبةً فيما عندى، وشفقة مما عندى. فيقول الله عزّ وجل : انظروا إلى عبدى - رجع رغبة فيما عندى، وشفقة مما عندى، حتى أهُريق دمه».

وخلاصة الفكرة فى الحديث أن كل واحد من الرجلين، فعل ما فعل رغبة فيما عند الله ، وشفقة مما عند الله، والرغبة هى الرجاء، والشفقة هى الخوف.

ولا عجب - بعد ذلك - أن يكون جزاء المؤمن إذا خاف ورجا، فوق تصور العقول : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين، جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ سورة السجدة آية ١٧.

قال الحسن البصرى : أخفى قوم عملهم، فأخفى الله له ما لم تَرَ عَين، ولم يخطرِ على قلب بشر.

والجمع بين الخوف والرجاء نوعُ من الإحسان فى الطاعة، والإتقان فى العبادة، وعلامةُ على تمكن العقيدة من القلب - قال تعالى : ﴿ **ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعا - إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ سورة الأعراف آية ٥٦.

فالله سبحانه ينهى عباده فى هذه الآية عن الإفساد فى الأرض، وهذه صفة سلبية تمنع المؤمن عن المنكر - ثم يأمرهم بعبادته عبادة قائمة على ركنى الخوف والرجاء - وهذه صفة إيجابية - فى الأولى كف عن الفساد، وفى الثانية عبادة خائفة راجية - وهذا هو الإحسان ورحمة الله قريب من المحسنين.

ومن عظمة التعبير القرآنى أن هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى : ﴿ **ادعو ربكم تضرعا وخفية** ﴾ سورة الأعراف آية ٥٥ - والتضرع هو التذلل والاستكانة - والذلة لله نوع من الخوف، ونوع من الرجاء.

والله سبحانه وتعالى لا يرد دعوة الخائف الطامع، لقد استجاب لزكريّا حين ناداه ، فوهب له يحيى، وأصلح له زوجه، وأتم عليهم جميعا نعمته - وعلّل ذلك بأنهم عباد مخلصون، يسارعون إلى الطاعة، ويجمعون بين الخوف والرجاء - قال عزّ من قائل : ﴿ **وزكريا إذ نادى ربه، رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين، فاستجبنا له، ووهبنا له يحيى، وأصلحنا له زوجه - إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات، ويدعوننا رغباً ورهباً، وكانوا لنا خاشعين** ﴾ سورة الأنبياء آيات ٨٩ : ٩٠.

وخطب أبو بكر فى الناس فأوصاهم بالتقوى، وأمرهم بأن يجمعوا بين الخوف والرجاء، ثم قال لهم : «إن الله تعالى أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات، ويدعوننا رغباً ورهبا، وكانوا لنا خاشعين** ﴾ سورة الأنبياء آية ٩٠.

يا أخى المؤمن :

إذا أردت فلاحا فى دنياك، وأماناً فى أخراك فكن مع الله كما كان زكريا، واعبده خوفا من عقابه، ورغبة فى ثوابه - تكن من أحبابه وأصفيائه الذين قال فيهم : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين، جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ سورة السجدة آية ١٧.

إن الخوف والرجاء علامتان من علامات الإيمان، تجتمعان فى قلب المؤمن، ولا تغنى إحداهما عن الأخرى، فالمؤمن خائف راهب، والمؤمن مؤمل راغب.

وحقيقة الخوف تستحق منّا شيئا من تفصيل : إن المؤمن الخائف واحد من ثلاثة :

- **مؤمن قصّر** به عمله، ونظر إلى صحيفة حياته فوجدها سوداء بالذنوب، فاضطرب فؤاده، وخشى لقاء ربّه، وكلما زاد جرمه زاد خوفه - فالخوف هنا نتيجة للذنوب، وهو أقل الدرجات فى ميزان التقدير، وكل ما فيه من خير أنه قد يحمل صاحبه على الطاعة.

- **ومؤمن ثان يخشى الله لأمرين :**

لأن فى صحيفة حياته ذنوبا فهو يخشاها - ولأن فى قلبه معرفةً بالله فهو يخشاه وهذا أعظم درجة من صاحبه، لأنه جمع فى قلبه بين أمرين : الخوف من نتيجة أعماله، والخوف من الله لذات الله.

- **ومؤمن ثالث** لا يخاف الذنوب فصحيفته بيضاء، لكنه مع ذلك لا يأمن لمكر الله،

فهو يخاف الله لمقام الإكبار والإجلال، يخافه لمجرد الخوف من عظمته - وهذا أعرف بالله، وأقرب إلى الله، وعلى هذه الدرجة كان الأنبياء والمرسلون - وكان أوَّلَهم فى ذلك محمد بن عبد الله صلواتُ الله وسلامه عليه.

قال ﷺ : «أنا أخوفكم لله» - وفى رواية البخارى من حديث أنس : «والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له» - وبهذا وصل إلى التقوى عن طريق الخوف.

وفى رواية عن عائشة نعرف السبب الحقيقى للخوف وهو المعرفة بالله - قال ﷺ «والله إنى لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية».

فالخوف بالله إذا نشأ عن العلم بالله كان دليلا على صدق الإيمان وكمال اليقين - قال الله تعالى : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ سورة فاطر آية ٢٨ - أى إنما يخشاه حقَّ خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفةُ بالله أتم، والعلمُ به أكمل - كانت الخشيةُ له أعظم - والعالم بالله فى الآية هو العارف العابد لا من قرأ فى كتب العلم كما قد يتبادر إلى الأذهان.

عن ابن عباس رضى الله عنه : «العالم بالرحمن من عباده، من لم يشرك به شيئا، وأحّل حلاله، وحرّم حرامَه، وحفظ وصيتَه ، وأيقن أنه ملاقيه، ومحاسب بعمله».

وقال سعيد بن جبير : «الخشية هى التى تحول بينك وبين معصية الله عزّ وجل».

وقال الحسن البصرى : «العالم من خشى الرحمن بالغيب» . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : «ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلمَ عن كثرة الخشية»، وعن مالك : «ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما العلمُ نورُ يجعله الله فى القلب».

فهذا إجماعُ من علماء الأمة على أن كثرة القراءة والرواية والحفظ ليست دليلا على المعرفة، ولا سبيلا إلى الخوف والخشية، وإنما المعرفة الصحيحة هى إدراكُ عظمة الله، والوقوف عندأوامره، واجتناب نواهيه، والوصول بذلك كله إلى التقوى.

عرف يوسف عليه السلام ربّه، وحفظ غيبته، فحفظه ربّه ﴿**وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه، وغلقت الأبواب، وقالت : هيت لك. قال : معاذ الله - إنه ربى أحسن مثواى، إنه لا يفلح الظالمون**﴾ سورة يوسف آية ٢٣.

ما الذى يمنعه، والأبواب مغلقة، والعيون غافلة، وفاتنة المدينة وسيدتها تدعوه إلى

نفسها، إنه الخوف من الله، وصدق الله ﴿**كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، إنه من عبادنا المخلصين**﴾ سورة يوسف آية ٢٤.

وهذا واحد من سبعة يظلهم الله يوم القيامة بظله، يوم لا ظل إلا ظله - حدثنا عنه الصادق الأمين فقال : « ورجلُ دعته امرأةُ ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله» - هكذا إنى أخاف الله. فالخوف يباعدُ بين المؤمن وبين المعصية، ويقرّب بينه وبين الله، ولقد قيل : «من خاف شيئا هرب منه، ومن خاف الله هرب إلى الله».

والله لا يردّ طارق بابه، فالهروب إليه نجاة من عقابه، وسبيل إلى ثوابه، وثواب الخائف مضاعف - والقرآن الكريم يحدثنا عن ثواب الخائفين فى سورة الرحمن حديثا طويلا نكتفى منه بقول الله : ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان - فبأى آلاء ربكما تكذبان، ذواتا أفنان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، فيهما عينان تجريان، فبأى آلاء ربكما تكذبان، فيهما من كل فاكهة زوجان، فبأى آلاء ربكما تكذبان**﴾سورة الرحمن آيات ٤٦ : ٥٣.

فهما جنتان، فيهما من النعيم ألوان، ومن دونهما جنتان، وصدق الرسول : «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله هى الجنة».

وقد عرفنا أن أعلى درجات الخوف ما كان ناشئا عن معرفة الله، وتقديساً لذاته، ويقيناً بكماله، وأن مثل هذا الخوف ينتهى بالمؤمن الصادق إلى التقوى، فالأمر درجات - معرفة - فخوف، فتقوى. وهكذا كان ﷺ عرف الله فخافه كل الخوف، ثم اتقاه حق تقواه، ولهذا قال : «والله إنى لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية - وقال : «والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له» والخوف فضيلة محمودة، وطاعة مقبولة، ولقد مدح القرآن الكريم عباد الله الخائفين منه، وأثنى عليهم، وجمع لهم «الهدى والرحمة، والعلم والرضوان».

أما الهدى والرحمة ففى قوله تعالى : ﴿**ولما سكت عن موسى الغضب، أخذ الألواح، وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون**﴾ سورة الأعراف آية ١٥٤ - ذلك لأن موسى غضب على قومه بعد أن أضلّهم الهوى، وعبدوا العجل فألقى الألواح فتحطمت، ثم لما سكن عنه الغضب عاد يجمع بقايا الألواح فوجد فيها الهدى والرحمة لكل من خاف ربّه، وملأت الرهبة قلبه - لا لهؤلاء اليهود الذين ضلوا عن سواء السبيل.

وأما العلم ففى قوله تعالى : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ سورة فاطر آية ٢٨.

وأما الرضوان : ففى قوله تعالى : ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أولئك هم خير البرية، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم، ورضوا عنه - ذلك لمن خشى ربه**﴾ سورة البينة آيات ٧ : ٨.

فجزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار، وخلود فى هذه الجنات، ومدح من الله بأنهم خير البرية - ثم تبين الآيات سبب ذلك فتقول - ذلك لمن خشى ربَّه - وأعلى نعمة ينالها الخائف من ربّه هو الرضوان - ولا شىء يفوق ما عند الله من رضوان.

يا أخى المسلم :

إذا كان خوف المؤمن من ربّه يضمن له هذه النعم الأربع - «الهدى، والرحمة، والعلم والرضوان». فإنه يحقق له أمرين آخرين - التذكر والتقوى.

أما التذكر فلأن الله يقول : ﴿**سيذكر من يخشى**﴾ أى سيتعظ برسالتك يا محمد من يخشى الله بقلبه، ويعلم أنه ملاقيه، وسيصدق عليه الكتاب : ﴿**يأيها الإنسان - إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه، فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا، وينقلب إلى أهله مسرورا - وأما من أوتى كتابه وراء ظهره، فسوف يدعو ثبورا، ويصلى سعيرا، إنه كان فى أهله مسرورا، إنه ظن أن لن يحور . بلى : إن ربه كان به بصيرا**﴾ سورة الأنشقاق آيات ٦:١٥ .

الأولى خاف وتذكر فأمن - **والثانى** اطمأن إلى حياته، ونسى بارئه فكان جزاؤه الخسران المبين. وأما التقوى فلأنها غاية المؤمنين، والعاقبة للمتقين، ولهذا أضافها الله إلى نفسه حين قال : ﴿**لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم**﴾ . التقوى كف عن المعصية، ومسارعة إلى الطاعة نتيجة للخوف، ولهذا كانت غاية الإيمان.

وبعد - فما جزاء الخائف يوم القيامة عند الله؟

وأسارع إلى الإجابة فأقول : إن الخائف يصبح من أولياء الله، يتولاه برعايته وحمايته وعنايته، ويعطيه يوم القيامة، أماناً لا خوف بعده، وسكينة لا خشية بعدها، وسلاما فى النفس وبشرى تعلن على الأشهاد - اقرأوا معى : ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم**﴾ سورة يونس آيات ٦٢ : ٦٤.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء - قيل : من هم يارسول الله، لعلنا نحبهم؟ قال : هم قوم تحابوا فى الله من غير أموال ولا أنساب. وجوههم نور، على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» - ثم قرأ : ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾سورة يونس آية٦٢.

هذا هو الأمان والسلام والسرور - وأما البشرى فنوعان :

بشرى فى الدنيا - تتحقق بثناء الناس وحمدهم، وتتحقق بالرؤيا الصالحة، وبشرى فى الآخرة وضحها قول الله تعالى : ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة، ألا تخافوا ، ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا، وفى الآخرة، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم، ولكم فيهاما تدعون - نزلا من غفور رحيم**﴾سورة فصلت آيات ٣٠ : ٣٢. وصدق الله العظيم. وبلغ رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين.

رمضان شهر مبارك

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه

وبعد..

فقد قال الله تعالى ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾«سورة البقرة آيه ١٨٥».

أيها المؤمنون :

الشهر هو شهر رمضان المبارك وقيل إنما سمى رمضان لأنه يرمض الذنوب أى يحرقها بالأعمال الصالحة، من الإرماض، وهو الإحراق.

فها هو الزمن دار دورته...

وعادت الأيام المباركة، وهبت علينا نفحات الرضوان، حين أهلّ هلال رمضان. فهفت إليه القلوب وطابت به النفوس، وامتلأت أرجاء العالم الإسلامى بمواكب النور ودعوات الغفران.

ورمضان شهر مبارك، حدثنا عنه الرسول الأمين صلوات الله وسلامه عليه فقال : «أتاكم رمضان، شهر مبارك، فرض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب السماء، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغلّ فيه مَرَدة الشياطين - لله فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم».

وهكذا يثبت الحديث أن شهر رمضان فيه خير وبركة، وأن له فضلا متعدد المظاهر - فأبواب السماء فيه مفتوحة، وأبواب الجحيم فيه مغلقة، وليلة القدر وحدها خير من ألف شهر وهى واحدة من ليالى رمضان.

وفضل رمضان على غيره يدفعنا إلى الحديث عن قضية (التفضيل) فى نظر الإسلام لنوضح بعض الحقائق متخذين من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف سندًا لنا ومرجعا.

اقتضت حكمة الله أن يميز بعض خلقه على بعض، وأن يختار بعض المخلوقات فيمنحها فضلا ومنزلة حتى يستقيم أمر الكون، وحتى يتحقق التعاون والتكامل والترابط

بين عناصر الحياة، ومكونات الوجود وصدق الله ﴿ **وربك يخلق ما يشاء ويختار** ﴾.

فضل الله بعض المخلوقات، وجعل ذلك من أسرار التوازن فى الكون، ومظهرا من مظاهر القدرة، حتى تبقى هذه المخلوقات فى حدود المفاضلة والموازنة. وفى دائرة المقارنة بين النقص والكمال، وبيان عناصر التميز وأسباب الفضل - ويبقى الخالق العظيم وحده منزها عن المثيل والقرين، متفردًا بالكمال والجلال، وأول ما يبدو لنا من مظاهر التفضيل فى الكون تكريم بنى آدم، وتفضيلهم على كثير من خلق الله، ومصداق ذلك قول الله تعالى ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم، وحملناهم فى البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾«سورة الإسراء آيه ٧٠» والإنسان لهذا أحسن الحيوانات خلقة، وأجملها هيئة، وأبدعها صورة - يمشى قائما على رجليه، ويمشى غيره على بطنه أو على أربع، ويأكل بيديه، ويأكل غيره بفمه ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾«سورة التين آيه ٤» ﴿ **يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك، فى أى صورة ما شاء ركبك** ﴾ «سورة الانفطار الآيات ٦، ٧، ٨» - وللإنسان سمع وبصر كغيره لكنه يمتاز بالعقل والإدراك فيميز النافع من الضار، ويسيطر بفكره على الكثير من مظاهر الحياة فى الكون ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ «سورة النحل آيه ٧٨» - ونظير هذه الميزات تحمل الإنسان عبء التكاليف، ومسئولية الأمانة الكبرى ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا** ﴾«سورة الإسراء آيه ٣٦».

وحين ندخل دائرة الناس وحدهم نجد تفاوتا فى الرزق، وتفاوتا فى المعرفة :

أما التفاوت فى الرزق فمصداقه واقع الحياة، وسند فائدته للمجتمع البشرى قول الله ﴿ **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق** ﴾ «سورة النحل آيه ٧١» وقول الله ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات** ﴾. وحكمة ذلك وضحته بقية الآية الكريمة ﴿ **ليتخذ بعضهم بعضا سخريا، ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾«سورة الزخرف آيه ٣٢»

وأما التفاوت فى المعرفة فدليله قول الله ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم** ﴾ «سورة الأنعام آيه ٨٣»- ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ «سورة الزمر آيه ٩» ثم اصطفى الله من خلقه أنبياء ورسلا منحهم

الفضل، وجعلهم موضع وحيه فقال ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس﴾ «سورة الحج آيه ٧٥»- ثم فضل الله بعض الأنبياء والرسل على بعض، وجعلهم فى مقام القرب درجات ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض**﴾ «سورة البقرة آيه ٢٥٣» ﴿**ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض**﴾«سورة الإسراء آيه ٥٥».

ومحمد صلوات الله وسلامه عليه أفضل المرسلين، وخاتم النبيين ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾ «سورة الأحزاب آيه ٤٠»- وروى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لىَ الغنائم، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون».

وأمته صلى الله عليه وسلم هى خير الأمم، وصدق الله العظيم ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس : تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله**﴾«سورة آل عمران آيه ١١٠».

ولم تقف حدود التفضيل عند هذا - فإن الحكمة الإلهية امتدت إلى النبات والزرع، ففضلت بعض أنواعه على بعض، فهذا حلو وذاك حامض أو مر - وهذا شفاء ودواء، وذاك سم أو داء، وجلت حكمة الله ﴿**وفى الأرض قطع متجاورات، وجنات من أعناب، وزرع ونخيل، صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد - ونفضل بعضها على بعض فى الأكل - إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾«سورة الرعد آيه ٤».

وحتى فى الفرائض المكتوبة فضل الله بعضها على بعض، فالصلاة رأس العبادات - وهى فيما بينها درجات. والله سبحانه يقول ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وقوموا لله قانتين**﴾ «سورة البقرة آيه ٢٣٨»- فقد خص الله الصلاة الوسطى بمزيد ذكر وفضل : تكريما لها، وتعظيما لشأنها، وحثا على الحرص عليها.

والقرآن الكريم آخر الكتب السماوية ، جاء مصدقا لما سبقه من الكتب ومهيمنا عليه، قال تعالى : ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق، مصدقا لما بين يديه من الكتاب، ومهيمنا عليه**﴾ «سورة المائدة آيه ٤٨» فالكتب المتقدمة تضمنت ذكره ومدحه، وبينت أنه سينزل من عند الله على رسوله محمد- فكان نزوله تصديقا لما أخبرت به - ومعنى أنه مهيمن على ما قبله أن القرآن أمين على الكتب السابقة وشهيد عليها فما وافقه منها فهو حق، وما

خالفه منها فهو باطل محرف - لقد جعله الله حاكما على كل كتاب قبله، وأنزله فى آخرها فكان أشملها وأعظمها وأكملها.

وامتدت حكمة التفضيل إلى المكان والزمان :

أما فى مجال المكان فقد فضل الله المساجد لأنها بيوت الله، وصدق جل شأنه ﴿**إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر**﴾«سورة التوبة آيه ١٨» وفى الحديث القدسى «إن بيوتى فى الأرض المساجد، وزوارى فيها عمارها - فطوبى لمن تطهر فى بيته وزارنى فى بيتى» - وحتى هذه المساجد قد تفاوتت فى الفضل، وتباينت فى المنزلة، فمنها ما تشد له الرحال - قال صلوات الله وسلامه عليه : «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا (يعنى المسجد النبوى) والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى».

وأما فى مجال الزمان فقد فضل الله بعض الأشهر على بعض، وفضل بعض الليالى على سائر الأيام، قال سبحانه وتعالى ﴿**إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم، ذلك الدين القيم، فلا تظلموا فيهن أنفسكم**﴾ «سورة التوبة آيه ٣٦» وبين الرسول الأمين هذه الأربعة فى خطبة الوداع فقال : «أيها الناس - إن الزمان قد استدار، فهو اليوم كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم أولها رجب مضر بين جمادى وشعبان - وذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم».

ونصل إلى رمضان، فهو خير الشهور - هو شهر الصيام والقيام، شهر القرآن والغفران، شهر الدعاء والرجاء، شهر الجهاد بنوعيه : جهاد النفس وجهاد العدو - فيه انتصر المسلمون على أنفسهم، وفيه انتصروا على عدوهم - ورمضان شهر التقدير والتدبير، فيه يفرق كل أمر حكيم، ويتحقق للمسلمين الخير كل الخير، تحمله الملائكة فى ليلة القدر، وما أدراك ما ليلة القدر - ليلة القدر خير من ألف شهر.

الأخ المسلم :

هل نسوق هذا الحديث لنقف عن حدود المعرفة ونقول : صدقت يا أخى المتكلم، ثم نمضى كل منا لشأنه هان هذا الشأن أو عظم.

طبعا لا ياأخى الصائم، أعيذك من مثل هذا - فإن للحديث هدفين :

أولهما : أن نعرف ما نستطيع من أسرار الحكمة الإلهية حتى تمتلئ قلوبنا باليقين.

وثانيهما : أن نجعل المعرفة وسيلة للتغيير ، فنبدل من سلوكنا، ونعدل من نهجنا، ونجعل من هذا الشهر موسم طاعة، نقسم يومنا فيه بين ليل ونهار.

فى النهار عبادة الصيام التى تنمى العقيدة، وتبنى العزيمة، وتصهر الإرادة - تصون اللسان وتطهر الروح وتحفظ الجوارح، تربى الوجدان وتزيل فوارق الطبقية بين بنى الإنسان.

وفى الليل صلاة راضية، ونجوى خاشعة، وقرب من الله حين يهدأ الكون وتصمت الحياة ويلتقى مع هذا الصمت فكر العابد، وقلب الخاشع، وعمق اليقين على أكمل ما يكون اللقاء بين العبد وربه - وهذا شىء من فضل رمضان.

فطوبى لمن صام رمضان إيمانا واحتسابا وأمسك لسانه عن لغو الكلام وباطنه وحافظ على الصلوات فى أوقاتها وأقبل على ذكر الله وشكره، واتقوا الله عباد الله، وتوبوا إليه إنه تواب غفور رحيم.

بشرى للصائمين

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعد ...

فلقد أهل هلال رمضان، وبدت أنواره فى ظلال السماء - تداعب قلوب المؤمنين، وتناجى خواطر الموحدين. وتدعوهم إلى رحاب الهدى والطاعة - أهل هلال رمضان : فيه من ضياء التقى إشراق - وفيه من صفاء المحبة لآلئ، طلع الهلال، وتجاوبت آفاق الكون بالصوت الحبيب، صوت الأذان والإيمان : (الله أكبر - الله أكبر - أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله).

وتطلع المسلمون نحو السماء يرقبون الهلال الوليد، ويتسمعون إلى الدعوة الخالدة يتردد صداها من وراء الزمان والمكان - لقد رأوا الهلال من قبل، ولقد سمعوا الآذان فلماذا تبدو الأضواء اليوم أنقى ؟ ولماذ يحلو وقع الأصوات فى آذانهم؟

إنها البشرى بالعيد السنوى، إن رمضان موسم طاعة، فيه الخير والبركة، وفيه الصحة والعافية، وفيه المودة والألفة، وفيه من ذكريات الجهاد والنصر أمجاد وأمجاد.

روى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أتاكم رمضان - شهر مبارك، فرض الله عليكم صيامه - تفتح فيه أبواب السماء وتغلق فيه أبواب الجحيم - وتغل فيه مردة الشياطين، لله فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم».

لماذ لا يفرح المؤمنون بهذا الشهر إذن؟ لماذ لا تكون طلعة الهلال بشرى، وصوت المؤذن بشرى؟ لقد فتحت أبواب السماء، وأغلقت أبواب الجحيم - لقد حل موعد الخير وآن أن تتنزل ملائكة السماء يقودها جبريل الأمين ، وأن تطوف بالأرض حاملة رسالة السلام حتى مطلع الفجر.

وفى رمضان بشرى بالغفران والرضوان - عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه - ومن قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه - ومن قام ليلة القدر غفر له ما تقدم من ذنبه».

إن الصوم ربع الإيمان، فالرسول يقول « الصوم نصف الصبر» ويقول «الصبر نصف الإيمان» ورمضان على التاريخ كان على موعد مع الصبر والإيمان، التقى بهما عند ماء بدر، وكتب الله فيه للمؤمنين النصر ورمضان عبادة لله فى ليله ونهاره، وصدق الرسول العظيم : «كل عمل ابن آدم يضاعف - الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائه ضعف » قال الله تعالى (**إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ، يدع شهواته وطعامه من أجلى - للصائم فرحتان : فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه**).

هذه هى البشرى التى حملها لنا الهلال، وترددت مع الأذان - والسعيد فى هذا الشهر من لبى النداء، فصام نهاره، وقام ليله، وصان عن الهوى نفسه - والشقى فيه من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى هلم أيها المسلمون - هلموا إلى الريان فلقد قال صلى الله عليه وسلم «للجنة باب يقال له الريان لا يدخله إلا الصائمون».

ولقد قيل فى الآية الكريمة : ﴿**كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية**﴾ «سورة الحاقة آيه ٢٤» هى أيام الصيام، وقيل فى الآية الكريمة : ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**﴾«سورة السجدة آيه ١٧» كان عملهم الصيام لأن الله يقول : ﴿**إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾«سورة الزمر آيه ١٠» ومن أحق بصفةالصبر من الصائم .

أيها المسلم :

هذى بشريات يحملها لنا هلال رمضان ، حقق الله آمالنا فيه، وجمع لنا الفرحتين : فرحة الفطر ، وفرحة اللقاء بالله، .

واتقوا الله - عباد الله - وتوبوا إليه - إنه تواب رحيم.

من حكم الصوم وأسراره

الحمد لله الذى خص شهر رمضان بالفضل على سائر الأيام وجعل صيامه أحد أركان الإسلام، والصلاة والسلام على سيد الأنام خير من صلى وصام وقام.

وبعد..

فلقد جرت سنة الله فى خلقه أن يهيئ لهم أسباب الرشاد، وأن ينير لهم سبل الهدى - وهم عباده، يشملهم برحمته، ويعمهم بفضله - أرسل لهم الرسل على فترات، وجدد الدعوة فى كتاب بعد كتاب وفرض عليهم ألوانا من الطاعة، وجعل لكل فريضة غاية، ولكل عبادة حكمة.

ولقد كتب الله على عباده الصيام فى أيام معدودة - ونريد اليوم أن نقف على بعض حكمه، ونعرض ألوانا من أسراره، وسندنا فى ذلك كتاب الله الكريم، وسنة رسوله الأمين صلوات الله وسلامه عليه.

ففى التنزيل الحكيم نقرأ الآيات البينات فنعرف من أسرار الصوم ما نستطيع، وتبقى هناك حكم وأسرار ستكشف عنها الأيام كلما تقدمت المعرفة بالإنسان.

يقول الله تبارك وتعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون، أياما معدودات** ﴾ «سورة البقرة الآيتان ١٨٣، ١٨٤»

ونحن إذا تأملنا بداية الآيات نجد هذا النداء الموجه من الله إلى (المؤمنين) من عباده (يأيها الذين آمنوا) فنفهم أن الإيمان سبب داع إلى هذه الفريضة، وكأن المؤمن وحده هو الجدير بهذا الشرف، وبهذه الدعوة إلى الصوم والعبادة لأن الصيام يهدف إلى غايات كثيرة تتجمع ثم تلتقى عند غاية كبرى هى (التقوى) - ولهذا يقول الله تبارك وتعالى تعليلا لهذا الأمر بالصيام (لعلكم تتقون) ولا يستطيع أن يحقق هذه الغايات، ولا أن يصل إلى التقوى إلا المؤمن الذى كمل إيمانه، وصدق يقينه، واستعد لأعباء هذه

الفريضة - ولقد أراد سبحانه وتعالى أن يعالج ما طبعت عليه النفوس البشرية من ميل إلى الشعور بما فى التكليف من مشقة فقال ﴿ **كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم** ﴾ «سورة البقرة آيه ١٨٣» فلستم يا أتباع محمد بدعاً بين الأمم، والله لم يخصكم بهذا التكليف، ولقد جعل للصوم أياما معدودة هى بلا شك فى مقدرة الإنسان العادى منكم - ولو أحس العبد بمشقة، أو حالت ظروفه دون الاستطاعة فإن الله يبيح له التأجيل، ويبيح له أن يستبدل بها مايطيق على تفصيل رقيق واضح قدمته بقية الآيات - وغاية هذا التفصيل والتشريع أن الله رؤوف رحيم وأنه كما قال فى هذه الآيات : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة** ﴾ «سورة البقرة آيه ١٨٥»- وقد عرفنا أن الله لا يكلف العبد إلا ما يطيق ﴿ **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها** ﴾ «سورة البقرة آيه ٢٨٦».

بهذه الآيات صدر الحكم الإلهى، وتقررت الفريضة على كل مسلم قادر عاقل فى غير ما ضرر ولا أذى فلماذا صدر هذا الحكم؟ ولماذا كلفنا أداء هذه العبادة؟ ذلك ما نحاول أن نجيب عنه.

١ - الصوم (أيها المسلمون) وسيلة من وسائل التربية، وميدان واسع تصهر فيه النفوس البشرية تُهذّب، وتُنقى، ويُزال عنها ما تصيبها الأيام به من ضعف أو تخاذل لتخرج بعد ذلك صافية متماسكة، الصوم يكوّن العزيمة - ينمى الإرادة - يخلق ذاتية الفرد خلقا جديداً - أرأيتم إلى الذهب حين يكون ترابا بين التراب حتى إذا ما دخل النار صهرته وصفته وأخرجته لامعا صافيا نقيا؟ هكذا عزيمة المؤمن قد تصاب بشئ من الوهن أو الفتور، والله يريد لها أن تكون ماضية قوية نافذة، ونيران الصوم هى الوسيلة إلى ذلك - والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، ولعل المراد أن يكون قوى العزيمة ماضى الإرادة قبل أن يكون قوى الجسم، فإذا خرجت (أيها المسلم) من شهر الصوم وعزيمتك كما كانت فاعلم أن صومك غير كامل، وعد إلى إرادتك فزدها صقلا وصهرا حتى تصير كما أراد لك دينك مؤمنا كامل الإرادة قوى العزيمة هذه واحدة.

٢ - أما الثانية فهى أن الصيام صلة تربط العبد بربه - إن الصائم يتجه إلى الله وحده بهذه الطاعة، ويقصد بابه فى رغبة وانقياد - وهى العبادة الوحيدة الخالية من الرياء والسمعة، قد يصلى المسلم ويقصد المساجد ليقال إنه صالح عابد، وقد يخرج من أمواله ما يجعل ثناء الناس عليه حديث المجالس، وقد يحج إلى البيت الحرام لينال لقبا يرضيه أن يُعرف به بين الناس، وقد ، وقد - أما الصوم فسر بين العبد وربه، وفى الحديث القدسى (كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به، والحسنة بعشر أمثالها) وهكذا يصبح جزاء الصائم عند الله بدون حدود.

٣ - وأما الثالثة فغاية ملائكية تجرد الإنسان من بهيميته، وترتفع به فوق المادية الجسدية - وكل عيوب الإنسان إنما تصدر عن هذه المادية، وما من خطيئة يرتكبها بشر إلا ومن ورائها نوازع الجسد ونوازع المادة. فإذا ماخلع المسلم عن نفسه ثياب المادة، وانصرف بصيامه وقيامه إلى عالم الروح بما فيه من صفاء ونقاء وجلال كان ملائكيا، وبدت شفافية روحه ضياء ينير وجهه وقلبه، وهذا أسمى ما يسعى إليه إنسان.

٤ - وأما الرابعة : فإحساس المؤمن بكل هذا، وشعوره بجلال النعمة الإلهية التى خصه بها الخالق حين فرض عليه الصيام - هذا المعنى العميق يظل فى وجدان الصائم طول يومه - إنه يعيش فى ظلال الإحساس بهذه الفريضة، ويحس بقدرته على كف نفسه، والسيطرة عليها، ويستشعر عمق الصلة التى ربطته بالله تبارك وتعالى، وينقسم ريحان الرضوان الإلهى - فإذا تجمعت هذه المعانى فى نفسه، ذاق حلاوة الطاعة، ووجد فى الجوع لذة، وفى الحرمان عطاء، وفى الظمأ ريا وسقيا فيكبر الله على ما هداه - واقرأوا معى قول الله ﴿ **ولتكبروا الله على ما هداكم، ولعلكم تشكرون** ﴾«سورة البقرة آيه ١٨٥». ﴿ **إن الهدى هدى الله** ﴾«سورة آل عمران آيه ٧٣» ﴿ **من يهد الله فهو المهتد** ﴾«سورة الكهف آيه ١٧».

أخى فى الله .

هناك خامسة وسادسة وعشرات من حكم الصوم وأسراره، فتش عنها فى وجدانك، لكن تعال معى إلى غاية الصيام الكبرى التى تتجمع عندها هذه الحكم والأسرار - هذه الغاية هى (التقوى) كما قال الله تعالى ﴿ **كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم**

لعلكم تتقون ﴾«سورة البقرة آيه ١٨٣» - والصيام جُنة - والتقوى حفظ ووقاية - ولقد أعد الله تبارك وتعالى للمتقين مالا أصفه، إنما أترك الحديث عنه للمتفضل به ﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم : للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، خالدين فيها، وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله، والله بصير بالعباد، الذين يقولون : ربنا إننا آمنا، فاغفر لنا ذنوبنا، وقنا عذاب النار، الصابرين، والصادقين، والقانتين، والمنفقين والمستغفرين بالأسحار** ﴾ «سورة آل عمران آيات ١٥، ١٦، ١٧» وتأمل كيف يكون الصبر والصدق فى الصوم، وكيف يتحقق القنوت والإنفاق فى أيام الصوم- ثم كيف يقف العبد أمام ربه إذا ما جنه الليل، يسأله العفو والغفران، ليجمع إلى الصيام قياما - وهكذا يجمع بين الحسنيين : صيام النهار، وقيام الليل ، فطوبى للصائمين.

وتقبل الله منا ومنكم والله من وراء القصد .

رمضان شهر الغفران

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وصفوته من خيرة خلقه وحبيبه. الرحمة المهداة والنعمة المسداة والسراج المنير اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد..

فقد أصيب المجتمع الإسلامى اليوم بمرض خطير، يهدم العقيدة، ويدمر الضمائر، ويدعو إلى التراخى والتسامح فى أداء الواجبات والفرائض الدينية - هذا المرض هو مرض الأمانى والأحلام». كثير من المسلمين يعيشون اليوم على هذه الأمانى، يقولون : «نحن نحسن الظن بالله، ونرجو رحمته» ثم يقفون عند حدود القول يجترون الأمانى، ويمضغون الأحلام، ولايتبعونها بعمل، ولا يقدمون سببا واحدا من أسباب الرجاء.

وتكثر هذه الأمانى فى رمضان - ترى الرجل منهم قد امتلأ قلبه بالاطمئنان، وانصرف إلى أهداف دنياه يرجو الخير وهو لم يفعل ما يستوجب الخير، فيصدق عليه قول القائل : ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليابس.

جلس إلى واحد من هؤلاء يجادل ويناقش، ويتلو آيات من كتاب الله، أو أجزاء من آيات دون أن يعرف الغاية منها، أو أن يتلو بقية الآيات : قال : يا أخى : إن الله غفور رحيم - وهو القائل ﴿ **نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم** ﴾«سورة الحجر آيه ٤٩» والقائل ﴿ **ورحمتى وسعت كل شئ** ﴾ «سورة الأعراف آيه ١٥٦» والقائل ﴿**غافر الذنب وقابل التوب** ﴾ «سورة غافر ٣» ونحن الآن فى شهر المغفرة، قد فتح الله فيه أبواب الجنة، وأغلق أبواب النار، وصفد الشياطين، وسيعمنا برحمته فهو الغفور الرحيم.

قلت يا أخى : ذكرت شيئا وغابت عنك أشياء.

مبدأ الغفران لا شك فيه، وأزيد على ما ذكرت أن الله يقول : ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ «سورة النساء آيه ١١٦» لكن هذا المعنى يحتاج إلى توضيح - وأريدك أن تقرأ معى بقية الآيات التى أشرت إليها.

فالله حين قال : ﴿ نبئ عبادى أني أنا الغفور الرحيم ﴾ «سورة الحجر الآيات ٤٩، ٥٠» قال بعدها ﴿ وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾. وحين قال ﴿ ورحمتى وسعت كل شئ ﴾ أتبع ذلك بقوله ﴿ فسأكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾«سورة الأعراف آيه ١٥٦»

وحين قال «غافر الذنب وقابل التوب» أتبعه بقوله : «شديد العقاب ذى الطول».

حقيقة الرحمة الإلهية لا شك فيها ولكنها لن تكون إلا للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، وبآيات الله يؤمنون - ومبدأ الغفران لا شك فيه، ولكنه لن يكون إلا لمن يستحق الغفران بعمله وعبادته، وتمسكه بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وإن شئت زيادة إيضاح فاقرأ معى قول الله تعالى : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب، وآمن، وعمل صالحا، ثم اهتدى ﴾ «سورة طه آيه ٨٢» وسنرى أن الآية الكريمة تقرر الحقائق فى وضوح، وتقطع طريق الجدال والنقاش «الله غفار» هكذا تؤكد الآية بالكثير من أدوات التأكيد، وهى تسوق التعبير فى صورة المبالغة بكلمة «غفار» بدلا من كلمة «غافر» مثلا - ولكن : لمن هذه المغفرة؟ تضع الآية الكريمة أربعة شروط لا بد من اجتماعها حتى ينال العبد هذه المغفرة.

الشرط الأول هو التوبة - وهى الرجوع الصادق إلى الله بما فيه من ندم وحسرة. ومن عزم على عدم العودة، ومن التزام كامل بالفضائل، وإصرار على التكفير والتطهر حتى تكون توبة نصوحا تقرب العبد من ربه، وتجعله محبوبا من خالقه حتى يصدق عليه القول الحكيم ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾

الشرط الثانى : الإيمان هكذا وكأن الذنب قد خرج بالمؤمن عن عقيدته، سلبه شرف الإيمان، وهو مطالب بأن يعلن إيمانه القلبى من جديد حتى يستحق مغفرة الله.

الشرط الثالث : العمل الصالح لأن الإيمان عمل القلب وهو أمر يحتاج إلى تدعيم، فلا بد معه من عمل صالح تقوم به الجوارح فتنصب، وتتعب، وتبذل كل الجهد حتى تنال المغفرة - وهذا ما يوضحه الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه حين يقول :

«ليس الإيمان بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل، وإن قوما قالوا : نحن نحسن الظن بالله، وكذبوا - لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل».

الشرط الرابع : الالتزام، ودوام الاتباع - ويوضح ذلك قوله تعالى: «ثم اهتدى» . قال بعض المفسرين ثم اهتدى - أى لزم الإسلام حتى يموت.

أرايت يا أخى المسلم لمن تكون المغفرة؟ إنها لمن تاب، وآمن وعمل صالحا - ثم اهتدى.

يا أخى الصائم - لقد فتحت أبواب الجنة فى رمضان ولكن لمن يستحق بعمله أن يدخل الجنة، فأقبل على الطاعة فى شهر الطاعة، واعمل للمغفرة تنل المغفرة، وكن عند حسن الظن بالله عملا لا قولا. وتذكر قول الله : ﴿**إن الحسنات يذهبن السيئات**﴾«سورة هود آيه ١١٤»

إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها.

والحمد لله أولا وآخراً.

رمضان شهر القرآن

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :

قال تعالى ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** ﴾ «سورة البقرة آيه ١٨٥» القرآن هو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم من عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم لا يشبع منه العلماء ولا تلتبس به الألسن ولا تزيغ به الأهواء ومن تركه واتبع غير سبيل المؤمنين ولاّه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً.

وقال أحد المفكرين من رجال الغرب فى بحث له عن الإسلام : «سيظل هذا الدين عميق الجذور فى نفوس الملايين، ما بقيت فيه أمور ثلاثة - هى : القرآن ، والكعبة، وصلاة الجمعة فى كل أسبوع».

وليس فى هذا الكلام جديد ولا غريب علينا نحن المسلمين - وإنما نسوقه لنعرف ناحية من نواحى التفكير الغربى، ولنرى النتيجة التى انتهى إليها باحث «محايد يعتمد على العقل وحده فى تحليله، ولا يتهم بالخضوع لسيطرة وجدانية أو تأثير عاطفى موروث.

والقرآن - فى رأينا وفى رأيه وفى دلائل الحقائق - هو دعامة هذا الدين - وهو منارة للمسلمين : يهتدون بها فى بحر الحياة، منارة / لا يجف زيتها، ولا يخبو ضوؤها. وكلما ارتفعت منارات أخرى للعلم أو الفكر فى دنيا الناس - ظلت هى كما كانت : أنقى ضياء، وأصفى لآلئ، وأبهى إشراقا وسناء، وأقوى حجة ومضاء. ذلك - لأنها وحى الله لعباده، وهدية البارى لأصفيائه، نورها يهدى البصائر قبل الأبصار، ويرشد الأفئدة إلى حقائق الكون ومناهج الحياة، ويشفى القلوب من نزعات الشك، ونزغات الضلال. وصدق الله : ﴿ **ونتزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين - إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾ «سورة الإسراء آيه ٩»

والقرآن وثيق الصلة برمضان : فى لياليه تنزل من السماء - وفى لياليه رتله الأتقياء

الأنقـــيـــاء - ﴿ **شهـر رمضـان الذى أنزل فيـه القـرآن، هدى للناس، وبينات من الهـدى والفرقان** ﴾«سورة البقرة آيه ١٨٥».

والقرآن كتاب الله الخالد، وذكره الباقى ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد** ﴾ «سورة فصلت آيه ٤٢» أعجز البلغاء، وأفحم الأدعياء، وحقق فى كل زمان ومكان قول الله : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾«سورة الإسراء آيه ٨٨».

والقـرآن معجزة الإسلام، ودستوره الدائم على الأيام، يقوى المسلمون وتزحف جيوشهم تحت رايات النصر، وفى أيديهم كتاب الله، وعلى ألسنتهم آياته البينات - ثم تتجمع عليهم الأمم، وتسقط قلاعهم، وتتراجع حدودهم فلا يجدون ما يحفظ عليهم كلمتهم سوى القرآن : - هو سندهم، وهو سلاحهم، وهو فكرهم ويقينهم، وهو جوهرهم ووجودهم - بدأ نزوله فى مكان شريف هو البلد الحرام، وفى زمن شريف هو شهر رمضان فاجتمع له شرف الزمان والمكان.

هذا القرآن يحتاج منا اليوم إلى فهم جديد :

يجب أن نعود إلى تعاليمه لنجعلها قانون حياتنا، ومصدر تشريعاتنا، فلا تخدعنا النظم البراقة، ولا تبهرنا النظريات المستحدثة.

يجب أن نصونه عن العبث، فلا نجعله أحجبة وتعاويذ وتمائم، ولا نجعله مجرد زينة فى المجالس والمحافل، ولا نكتفى بالاستماع إليه فى المواسم، ولانستجدى به العطاء على أبواب المساجد، فهذا والله امتهان لقداسة القرآن.

ولقد ظهرت اليوم بدعتان جديدتان :

الأولـــى : - بدعة قوم فتنوا بعلمهم الغرب فأقدموا على تفسير القرآن تفسيرًا يخضعه لنظريات العلم، وعجبا : العلم الحديث مجرد فروض تتغير كل يوم وتتبدل - فكيف نخضع لها كتاب هداية وعظة، أراد له رب الكون البقاء والخلود؟

والثانيـة : - بدعة قوم ادعوا حرية الفكر : وأقدموا على تفسير القرآن، دون سند روحى، أو عمق لغوى، أو استعداد وجدانى وهو الكتاب المعجز ببلاغته، الآسر بروحانيته، القاهر للبشر جميعا ببيانه.

وبعد فيا أخى الصائم..

نحن الآن فى شهر القرآن - وعلينا أن نعود إليه فنقرأه فى خشوع وخضوع، وفى أناة وفهم، وفى تدبر وتأمل، لنجعل منه قانون الحياة - علينا أن نعتصم به، وأن نخضع سلوكنا له كأفراد أولا، وأن نطبع حياتنا بمثله، وأن نربى نفوسنا تربية قائمة على مبادئه، فقد أخذتنا المحن والفتن من كل جانب - ولقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أتانى جبريل فقال : يا محمد، أمتك مختلفة بعدك. قال : فقلت له : فأين المخرج يا جبريل ؟ قال : فقال : فى كتاب الله ، به يقصم الله كل جبار، من اعتصم به نجا، ومن تركه هلك - مرتين - قول فصل، وليس بالهزل، لا تخلقه الألسن، ولاتفنى عجائبه - فيه نبأ ما كان قبلكم، وفصل ما بينكم وخبر ما هو كائن بعدكم» رواه الإمام أحمد

فإن نحن اعتصمنا اليوم بالقرآن وأخضعنا سلوكنا كأفراد له نكون فى صدق المجتمع القوى الذى يقيلنا من عثرتنا، ويعيد إلينا مجدنا، ويحفظ علينا تراثنا وترابنا وتاريخنا.

والله من وراء القصد.

القرآن فى رمضان

ونمضى - أيها المسلمون - مع آيات الصيام، نستروح معانى الرضوان، ونفئ فى ظلالها إلى روح وريحان : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم : شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان، فمن شهد منكم الشهر فليصمه، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم، ولعلكم تشكرون** ﴾ صدق الله العظيم - سورة البقرة آية ١٨٥.

لقد أراد الله لشهر رمضان أن يكون مصدر الخير والبركة والنعمة، فحقق فيه للمسلمين النصر - وخصه بليلة القدر - وأنزل فيه القرآن الكريم، معجزة الإسلام، ورسالة السماء، وكلمة الله إلى عباده المؤمنين. والقرآن : فرقان بين الحق والباطل، وكتاب عربى مبين، ودستور إلهى محكم، فيه نبأ من قبلنا، وفيه خبر من بعدنا، كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، كتاب سمعه الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا، كتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. كتاب كله رحمة ونور، وهدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان.

لقد نزل القرآن فى رمضان.

حقيقة لا شك فيها فالآية هنا تقول ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** ﴾«سورة البقرة آيه ١٨٥». وفى سورة الدخان يقول الحكيم العليم ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين، فيها يفرق كل أمر حكيم، أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين. رحمة من ربك إنه هو السميع العليم** ﴾«سورة الدخان آيات ٣ : ٦». هذه الليلة المباركة هى ليلة القدر التى يقول الله تعالى فى شأنها : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر، وما أدراك ما ليلة القدر، ليلة القدر خير من ألف شهر، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر** ﴾ «سورة القدر».

أمام هذه النصوص، أجمع العلماء على أن القرآن قد نزل فى رمضان على معنى أنه أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر جملة واحدة فوضع فى بيت العزة فى سماء الدنيا، ثم كان جبريل ينزل بالآيات على مدى إحدى وعشرين سنة كلما اقتضت إرادة الله شيئا من ذلك - أو على معنى أن بداية نزوله كانت فى ليلة القدر من رمضان و(القرآن) اسم

لكلام الله تعالى ، ومعنى الكلمة (المقروء) - يقال قرأ فلان قراءة وقرآنا - واللغة تؤيد هذا المعنى - قال الشاعر العربى : (ضحوا بأشحط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا). أى قراءة.

ومن هذا كله نصل إلى ما نريد : إذا كان رمضان شهر الصيام فهو أيضا شهر القرآن، وأكاد أؤمن بأن الذى يكتفى بما فى رمضان من صيام، ولا يتجه إلى القرآن (قراءة - أو دراسة - أو استماعا) إنما يشوب عمله نقص واضح، رمضان للصيام وللقرآن - وما أجمل لياليه حين يؤوب المصلون من المساجد، ويتجمعون فى ديارهم تلفهم السكينة، وتجمعهم المحبة، ويشملهم الأمن والسلام، وينصتون فى خشوع وتأمل إلى آيات الله تتلى عليهم - لكأنى بالملائكة تتنزل من السماء، وتطوف بهذه المجالس، وتستمع إلى الترتيل العذب يتردد فى سمع الليل الساجى وكأنه صوت السماء يتساقط على القلوب الظامئة قطرات من رحمة الله.

ولقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك أسود - لا يهولهم حساب، ولا ينالهم فزع حتى يفرغ مما بين الناس - رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل، وأم به قوماً وهم به راضون - ورجل أذن فى مسجد، ودعا إلى الله عز وجل ابتغاء وجه الله - ورجل ابتلى بالرزق فى الدنيا فلم يشغله ذلك عن عمل الآخرة».

وقال أبو أمامه الباهلى : «اقرأوا القرآن - ولاتغرنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلبا هو وعاء للقرآن».

وعن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اقرأ على القرآن، فقرأ عليه : ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون**﴾«سورة النحل آيه ٩٠». فقال له : أعد فأعاد - فقال : والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمورق، وإن أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر.

هذه دلائل نشير بها إلى ما لقراءة القرآن من أثر فى تكوين المسلم، وإلى أن تلاوته عبادة، وإلى أن هذه العبادة تكون مفيدة محببة فى شهر رمضان - على أنه يجب على كل مسلم أن يعلم حقيقة دينية لا شك فيها هى أن لتلاوة القرآن آدابا - فالقارئ للقرآن

يجب أن يكون على طهارة ، وأن يتجه بتلاوته إلى الله فى رهبة وخشوع، وأن يقرأ فى أناة وتدبر وتأمل - أما الطهارة فلأن الله يقول : ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ «سورة الواقعة آيه ٧٩». وإذا كان ورق المصحف وظاهر جلدته يجب أن يصانا عن لمس اليد إلا إذا كانت طاهرة فكذلك باطن معناه يجب أن يحجب بحكم عزته وجلاله عن باطن القلب إلا إذا كان قلبا طاهرا - وأما التدبر والتأمل فلأن الله يقول : ﴿ **ورتل القرآن ترتيلا** ﴾«سورة المزمل آيه ٤» والتدبر لا يكون إلا عند الترتيل، وعجيب أن هؤلاء الناس الذين يقرأون القرآن فيخطئون وينطقون بما لا يحسنون، وتنطلق ألسنتهم بالقول الحكيم وكأنه لغو من الحديث - كيف يجوز هذا وقد كانت الآية الواحدة تشغل الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة كاملة يكرر فيها ويعيد حتى تتشربها روحه، ويستوعب معناها وجدانه، ويتمتع قلبه بما فيها من معنى المعرفة - عن أبى ذر قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة فقام بآية يرددها وهى ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ «سورة المائدة آيه ١١٨».

وعلى المسلم أن يعمل بما فى القرآن حتى يكون أهلا لقراءته، وحتى لا يلعن نفسه - فقد قال أحد العلماء : «إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم، يقول : ألا لعنة الله على الظالمين، وهو ظالم نفسه، ويقول : ألا لعنة الله على الكاذبين وهو منهم».

ومن آداب التلاوة أن تظل خاشعا متعظا فكيف بنا اليوم نجعل من القرآن غناء نقابله بالتصفيق أو التهليل ونسينا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** ﴾ «سورة الأعراف آيه ٢٠٤».

واختيار الزمان والمكان لون من التكريم والإعزاز للقرآن - وما أجمله حين يقرأ فى وقت السحر وما أعذب وقعه فى القلوب حين يردده القارئون فى سمع الليل، وقد بدت تباشير الفجر فى ظلام الليل، لكأنى بالفلك يقف فيسمع ويخشع، ولكأنى بالكائنات تصغى لهؤلاء المصلين القارئين فتهتز وتستكين ثم تنعطف فى إجلال وإكبار وتقديس.

وصدق الله حين صور قراءة القرآن فى صلاة الفجر فقال : ﴿ **وقرآن الفجر - إن قرآن الفجر كان مشهودا ، ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾«سورة الإسراء الآيتان ٧٨، ٧٩».

وفى قوله بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾«سورة الإسراء آيه ٨٨».

هذه آية من كتاب الله، تحدت الإنس والجن، وأثبتت بهذا التحدى أن القرآن هو آية الله الخالدة، ومعجزته الباقية - ولقد عاش المسلمون فى ظلاله منذ بدأت الدعوة إلى اليوم، فكان لهم نورا ورحمة، وكان لهم سندا وقوة، وكان لهم مددا من السماء - حفظ عليهم وحدتهم، وجمع على الحق كلمتهم - ونصرهم حين خذلتهم القوة - ومكن لهم فى الأرض حين تجمعت عليهم الأمم ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾«سورة الإسراء آيه ٨٢».

ولقد نسأل : لماذا كان القرآن معجزة الإسلام؟ - وكانت عصى موسى ثعبانا يلقف ما صنع الساحرون، وصنع عيسى من الطين كهيئة الطير ثم نفخ فيه فكان طيرا بإذن الله - هكذا كانت معجزات الرسل قبل محمد - فلما جاء محمد كانت معجزته كلاما يتلى، وآيات تتنزل من حول العرش؟

يا أخى الكريم : كان القرآن معجزة الإسلام لأمور نحاول توضيحها فى إيجاز ونذكر منها ثلاثة أسباب :

الأول : أن البشرية كانت قبل محمد فى عهد الطفولة الفكرية ، لا تستطيع أن تصدق بالرسل إلا عن طريق الحس - كالطفل الصغير لا يدرك حقائق الأشياء إلا عن طريق الحواس - ولقد كان الناس يظنون أن النبوة هى استطلاع الغيب، وكشف الأسرار، واتصال بما وراء الكون والحياة، ارتبطت فى أذهانهم بالطلاسم والطقوس - فلما جاء الإسلام كان بداية عهد الرشد والفهم عهد النضج العقلى - ولهذا كثرت فى القرآن الكريم الدعوة إلى التأمل والنظر، وإلى استخدام العقل ﴿ **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** ﴾«سورة يونس آيه ١٠١». ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾«سورة آل عمران آيه ١٩٠» - وبهذا نقول بكل الثقة : إن القرآن وضع حداً بين عهدين، ورفع البشرية إلى مستوى رفيع من الفهم والإدراك.

الثانى : أن الله أراد أن يعلمنا عن طريق القرآن ضرورة استخدام العقل والفكر، والاعتماد فى الحياة على البحث والتأمل - وبهذا نحقق النجاح فى كل أمورنا.

لقد فصل الإسلام بين الإيمان وبين المعجزة الحسية، ولم يجعل الأمر الخارق للعادة هو موضع الدليل، أو سبيل الإقناع. ووصل بالمسلم إلى درجة عالية من السمو الفكرى يعرف فيها أن كمال الإيمان يتم باعتماده على البحث والدراسة والتفكير - وأن واجب الإنسان فى حياته العادية أن يستخدم عقله لا عواطفه - وأن ينتفع بالعقل فى الكشف عن أسرار الكون وحقائق الوجود. ومن العجيب أن هذا الأسلوب العلمى هو ماينقص المسلمين اليوم. غيرهم يعتمد على التفكير العلمى، ويجعل التجربة والملاحظة وسيلة للمعرفة - وهم قانعون بالحسرة والألم والبكاء على التخلف. إن القرآن يعلمنا كيف نبحث ونفكر - ويدعونا إلى استخدام العقل والعلم - ولو استجبنا لدعوة القرآن الكريم لكنا اليوم حيث أراد لنا الإسلام - دين الفكر والعقل والعلم والتخطيط.

وثالث الأسباب : أن المعجزة الحسية تكون دائما معجزة مؤقتة، تنتهى بوقتها، ولا يتأثر بها إلا من شاهدها . فهى بنت زمانها ومكانها - وأثرها محدود فى عدد قليل من الناس، وربما كان هذا مقبولا فى الرسالات السابقة على الإسلام - لأنها كانت رسالات محدودة ولأن الرسول فيها بعث لقوم معينين - فى زمان معين، ومكان معين.

أما دعوة محمد فدعوة عامة - أما رسالة الإسلام فدائمة باقية - ولهذا وجب أن تكون معجزته دائمة باقية - ولهذا نزل القرآن الكريم فكان المعجزة - ومضى مع الزمن وهو المعجزة وسيبقى إلى أن يشاء الله معجزة - وكلما ارتقى العقل البشرى زادت قيمة الإعجاز فى القرآن ، وظهرت الأسرار التى أودعها الله فى هذا الكتاب العظيم.

وأثر القرآن الخالد يمتد على مجالين واسعين :

مجال المسلمين - وهو فى دنياهم - نور ورحمة ينير لهم الطريق كلما تكاثفت عليهم ظلمات المحن.

ومجال غير المسلمين - وهو فى دنياهم - دعوة حرة، وعلامة فكرية واضحة ، هو صوت الحق ، يستمع الناس إلى آياته فتجذب منهم الأذهان والأفهام، ثم تملأ الجوانح والقلوب، ثم تملك المشاعر والأحاسيس.

إنها قطرات من ندى الرحمة الإلهية - تتنزل على القلوب المحرومة فترويها وتشبعها.

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿**إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا**﴾«سورة الإسراء آيه ٩».

كيف نقرأ القرآن

اختار الله لوحيه المنزل على محمد أسماء جديدة لم يعرفها العرب من قبل :

فهو الكتاب - ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**﴾«سورة البقرة آيه ٢».

وهو الفرقان - ﴿**تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**﴾«سورة الفرقان آيه ١».

وهو الذكر - ﴿ **وهذا ذكر مبارك أنزلناه**﴾ «سورة الأنبياء آيه ٥٠».

وهو التنزيل - ﴿**وإنه لتنزيل رب العالمين**﴾ «سورة الشعراء آيه ١٩٢».

وهو القرآن - ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم**﴾ «سورة الإسراء آيه ٩».

والقرآن هو أشهر هذه الأسماء، سمى به الكتاب الكريم لأنه يقرأ ويتلى، وهو مصدر مشتق من (قرأ) بمعنى (تلا) وهو مرادف لمعنى (قراءة) وعليه جاء قول الله تعالى : ﴿**إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه**﴾ «سورة القيامة آيه ١٧، ١٨».

وهذه التسمية تدل على قيمة القراءة، وعلى أثرها وأهميتها بالنسبة لهذا الكتاب المقدس. إن من واجب المسلم أن يقرأ القرآن، وأن تكون قراءته له على صورة خاصة، وعلى هيئة لا يقرأ بها غيره، ومن واجب المسلم أيضا أن يعرف هذه الهيئة، وأن يطلبها من مصادرها الصحيحة، من القرآن نفسه، ومن الحديث النبوى الشريف.

أما فى القرآن فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿**ورتل القرآن ترتيلا**﴾ «سورة المزمل آيه٤». والترتيل هو القراءة على تمهل وأناة، وعلى تدبر وتفكير ﴿**أفلا يتدبرون القرآن - ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾ «سورة النساء آيه ٨٢». ويستحب مع الترتيل تحسين الصوت وترقيقه كما جاء فى الحديث : «زينوا القرآن بأصواتكم» وروى عن ابن مسعود أنه قال : «لا تنثروه نثر الرمل، ولاتهذوه هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة» وهذا توضيح لخصائص الترتيل القرآنى، إنه ترتيل ينسق الكلام ولا يبعثره، ينغمه ولا يقطعه تقطيع الشعر، يمده فى حلاوة ونداوة وعذوبة.

وأما فى الحديث الشريف فقد روى البخارى عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «كانت مداً . ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد (بسم

الله)، ويمد (الرحمن) ويمد (الرحيم) - وعن أم سلمة رضى الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان يقطع قراءته آية آية (بسم الله الرحمن الرحيم - الحمد لله رب العالمين - الرحمن الرحيم - مالك يوم الدين). وقالت عائشة رضى الله عنها (كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها) - وهذا كله يوضح لنا معنى الترتيل- فهو الهدوء والأناة، وهو التدبر والتأمل - وهو رقة الصوت وحسنه.

هذه هى الصورة الصحيحة لقراءة القرآن - صورة الترتيل الندى العذب، والتلاوة الهادئة الواعية، تعلمها محمد من ربه وكان من قبل يسرع إلى أخذ القرآن من الملك، وكان يسابق الملك حين ينزل عليه الوحى حرصا منه على حفظ القرآن وجمعه. ولكن الله علمه أن يتأنى، وأن يأخذ القرآن فى هدوء : ﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه** ﴾«سورة القيامة آيات ١٦، ر١٧، ١٨، ١٩».

وتعلم محمد - تعلم ألا يعجل عند أخذ القرآن ﴿ **ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل رب زدنى علما** ﴾ «سورة طه آيه ١١٤».

وتعلم أن الله قد تكفل بجمعه وحفظه فى صدره، وتيسير قراءته وتلاوته ﴿ **إن علينا جمعه وقرآنه** ﴾«سورة القيامة آيه ١٧». وتعلم أن الله قد ضمن له بعد الجمع والتلاوة توضيح المعنى ﴿ **ثم إن علينا بيانه** ﴾«سورة القيامة آيه ١٩».

وليس من حلاوة الصوت هذا التنغيم الذى يصل إلى الطرب، ويخرج بالسامع عن وقاره، ويجعل الصورة غناء بعيدا عن الجلال والوقار.

يجب أن نقرأ القرآن قراءة رقيقة ضارعة باكية - فيها رهبة وخشوع، وفيها نجوى ودعاء، وفيها اتصال كامل بالمعانى، وفيها تقديس كامل لخالق هذه المعانى، وما أحلى القراءة حين تتردد فى جوف الليل من قلب مؤمن صادق، فتنير المظلم من الليل، وتصل العبد بالرب، وتستجيب لقول الله.

﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ، وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهودا ، ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾«سورة الإسراء الآيتان ٧٨، ٧٩».

كيف نستمع إلى القرآن ؟

«عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اقرأ على» فقلت : يارسول الله - أأقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال : «نعم - إنى أحب أن أسمعه من غيرى». فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا** ﴾«سورة النساء آيه٤١». فقال : «حسبك الآن» - فإذا عيناه تذرفان.

هذا حديث شريف فيه كثير من المعانى والفضائل، ولكنى أكتفى منها بمعنى واحد هو كيفية الاستماع للقرآن، والاستجابة لما فيه من روحانية وهداية.

النبى صلوات الله وسلامه عليه كان يعلم أصحابه، ويقرأ عليهم القرآن، لكنه كان أيضا يحب أن يستمع إليه من غيره، ومن هنا نعرف أن للقراءة أثرها، وأن للاستماع فوائده. وأن على المسلم أن يجمع بين الأمرين حتى يكون اتصاله بالقرآن أعمق وأشمل.

ولقد استمع محمد صلى الله عليه وسلم إلى ابن مسعود وهو يقرأ، فلما وصل إلى قول الله ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنابك على هؤلاء شهيدا** ﴾ «سورة النساء آيه٤١». بكى، لأن الآيات خاطبت وجدانه، وهزت كيانه، وملأت لبه وفؤاده، وأثارت مشاعر التقديس لله ولكتابه فى كل جارحة من جوارحه - ولأنه صلوات الله عليه تذكر المسؤولية الكبيرة التى تحملها، فهو شهيد على أمته يوم القيامة، من كان فى زمانه، ومن جاء بعده وبلغته دعوته، ولهذا جاء فى بعض الروايات أنه قال صلى الله عليه وسلم - فيما معناه - بعد أن سمع هذه الآيات «شهيد عليهم ما دمت فيهم، فإذا توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم».

وفى المعنى نفسه روى الإمام أحمد والبخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : «خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «يأيها الناس، إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا ، ثم قرأ « كما بدأنا أول خلق نعيده، وعداً علينا إنا كنا فاعلين» ثم قال : «ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم - ألا وإنه يجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول : يارب - أصحابى - فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك - فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ **وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شئ شهيد** ﴾ .

والبكاء عند الاستماع للقرآن صفة من صفات المؤمنين الصادقين، والأبرار المتقين

﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء** ﴾ «سورة الزمر آيه٢٣».

إنهم يسمعون كلام الله فتقشعر جلودهم لما فيه من الوعد والوعيد، ومن التخويف والتهديد، ثم تلين جلودهم وقلوبهم لأنهم يرجون رحمة الله ولطفه - يسمعون الكلمات، ويفهمون ما وراءها من غايات فيزداد إيمانهم ويكتمل يقينهم ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليم آياته زادتهم إيمانا، وعلى ربهم يتوكلون** ﴾«سورة الأنفال آيه٢».

أين نحن الآن من هذه المعانى؟ إننا نسمع إلى القرآن فنهتز للأنغام، ونطرب للألحان، أو نتلهى بالحديث الهامس متظاهرين بالكبرياء والانصراف عن القارئ - وبعضنا يتمادى في غيه وينساق وراء جهله فيسخر من القارئ، ويتظاهر بالعظمة والترفُّع عن التأثر والاستجابة للمعانى، وما كان صلى الله عليه وسلم يخجل من إظهار تأثره - بل كان يبكى حتى يرى الناس دموعه، ولقد جاء فى بعض الروايات أنه ضرب يديه بجنبيه من شدة التأثر.

إن الذى ينصرف عن القرآن، ويستكبر عن التأثر بمعانيه يصدق عليه قول الله تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها، كأن فى أذنيه وقرا، فبشره بعذاب أليم** ﴾«سورة لقمان آيه٧».

فلنتعلم يا أخى من الرسول، وَلْنقف عند المعانى حتى تتشربها قلوبنا - فهذه هى صفات الأنبياء جميعا صلوات الله وسلامه عليهم.

وصدق الله حين وصف إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس فى سورة مريم، حين قال : ﴿ **أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين، من ذرية آدم، وممن حملنا مع نوح، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل، وممن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً** ﴾«سورة مريم آيه٥٨».

والله أسأل أن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

دعاء الصائم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده وبعد..

فثمة علاقة قوية بين الصيام والدعاء فَذُرَّةُ الدعاء هذه الآية وهى قوله تعالى ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون** ﴾«سورة البقرة آيه ١٨٦».

نعود مرة ثالثة إلى آيات الصيام، نستشف منها أنداء الرحمة، ونرى صورة القرب الإلهى يدنو ويدنو من عباد الله، ثم يضمهم جميعا إلى رحابه، ويؤوبهم إلى جنابه - ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم.

يقول عز من قائل : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم . وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون** ﴾«سورة البقرة آيه ١٨٦».

وهكذا بين آيات الصيام وأحكامه نقرأ هذه الكلمات الربانية التى سبقت على هذه الصورة تطمينا للنفوس، ثم نقف أمامها وقفة تأمل وتدبر وعظة :

أى عباد هؤلاء الذين خصهم الله بقربه؟ إن موضوع الحديث فى الآيات هو الصيام، فالعباد المقصودون هنا إذن هم الصائمون، والصائم إذن قريب من رحمة الله، مستجاب الدعاء، مقبول الرجاء.

ونحن لا ننسى القاعدة الأصولية التى تقول : إن العبرة بعموم اللفظ فكل عبد يتجه بالدعاء إلى ربه صائما كان أو غير صائم إنما هو عبد من عبيد الله تتناوله الآية بالقرب والرحمة، لكننا مع ذلك لا ننسى أن الدعاء مع الطاعة يكون أقوى فى تحقيق القرب، وأدل على شمول الرحمة.

وتأمل معى - أيها الأخ الكريم - هذه الكلمة (عبادى) فالله تعالى يقول : هم عبادى أنا - فهم لى وأنا لهم، كيف أحجبهم عن نفسى؟ وكيف أبتعد عنهم وقد أقبلوا على طاعتى، وزادت صلتهم بى، وتغلبوا على شهواتهم ونوازعهم المادية فأصبحوا من

الشفافية والطهر بحيث ينسبون إلى . فهم عبادى وأنا ربهم؟ أى تشريف هذا للصائمين؟ وأى تعظيم؟ وأى دعوة قوية إلى الصيام هذه الدعوة؟ إن الله تبارك وتعالى يضم الصائمين إلى رحابه، ويجعلهم من خلصائه وأحبابه ولهذا فهو قريب منهم إذا سألوا عنه.

ثم تأمل - إن السؤال لمحمد ﴿ **وإذا سألك عبادى** ﴾ وكان الترتيب المنطقى أن يكون الجواب، إذا سألوك يا محمد فقل لهم إن الله قريب منكم. ولكن البلاغة القرآنية أرادت أن تزيدهم كرامة فلم يترك الله الإجابة لرسوله، ولم يجعل الخطاب منه لمحمد بل تولى هو الإجابة بنفسه عليهم فقال (إنى قريب) وهذا هو معنى زيادة التشريف والتكريم ومن بلاغة القرآن أنه لم يغفل (تأكيد) هذا المعنى فجاء بأداة التأكيد القاطعة فى معناها وهى (إن) على ما جرت عليه أصول البلاغة القرآنية العالية، وزاد فأظهر فى مقام الإضمار حيث قال (دعوة الداع) ولم يقل دعوتهم تدليلا على أثر الدعاء، وتوضيحا لقيمته.

ثم تأتى كلمة ﴿ **قريب** ﴾ - إن فيها لسراً ، وما أكثر أسرار القرآن، إن مقتضى السياق أن يقال لمن يسأل عن شئ، إنه موجود - وظاهر ذلك أن تكون الآية على هذا التعبير ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى موجود** ﴾ لكن صفة (الوجود) لا تعطى معنى العطف والرعاية، وهما المقصودان فى هذه الآية، فالله موجود لكل كائن، وموجود لكل عبد آمن به أو لم يؤمن - أما صفة القرب فلا تكون إلا لمن رضى الله عنه، وخصه بنعيم عنايته، وكريم رعايته، ولذة حمايته.

وللقرب هنا معناه الخاص فهو ليس قرب مكان ولا زمان - تعالى الله عن المكان والزمان - والمعنى المقصود هو قرب الرحمة وسرعة الاستجابة ألا ترى إلى قوله بعد ذلك مباشرة ﴿ **أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ وكأن الآية الكريمة توضح بذلك معنى القرب، وتطمئن المؤمن الصائم إذا اتجه إلى الله وسأله العون والمغفرة. لكن قرب الله من عبده الداعى، والاستجابة للدعاء مشروطة بأن يستجيب المؤمن لله، وأن يكون كامل الإيمان - ﴿ **فليستجيبوا لى، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون** ﴾. والرشاد هو نهاية أمرهم، وما أعظمه من نهاية، لقد مضت هذه الآية العذبة الندية الحانية - تسقى برضوانها قلوب

المؤمنين، وتتنزل عليها كما يتنزل الماء الصافى على حبات الرمل أحرقها اللهيب، ثم تنبت ثمرها شهيا جنيا موصول العطاء.

والقرآن الكريم صفِّى بهذه الفكرة، حريص على دعوة المسلمين إلى ربهم - وهو يجدد هذه الدعوة فى كل مجال، ويسوق معها ألوانا من الترغيب والتحبيب - يقول الله تبارك وتعالى ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾. ويقول : ﴿ **له دعوة الحق، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشى** ﴾«سورة الرعد آيه ١٤» ويقول : ﴿ **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ «سورة غافر آيه ٦٠» ويقول ﴿ **قل ادعوا الله، أو ادعوا الرحمن - أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى** ﴾«سورة الإسراء آيه ١١٠».

فالله سبحانه وتعالى يطلب منا فى صور شتى أن نتجه إليه بالدعاء والله تعالى يفرح بعبده حين يقصد بابه، طالبا عونه، راجيا مغفرته، لأن الدعاء من أكمل صور العبادة، فالداعى عابد قانت خاشع، يستشعر جلال الله، ويحس عظمته، ويتمثل كماله وقدرته - ويقف منه موقف الذليل المعترف بربوبيته وجلاله - وليس هناك من صور العبادة ما هو أكمل من ذلك.

والذى يمتنع عن عبادة الله، ويرفض اللجوء إليه تكبرا وخيلاء - مأواه جهنم لأنه يعطى نفسه مكانة فوق مكانة العبد، ويضع نفسه فى غير موضعها، ويجعل لله شركاء يقصدهم أو يرجوهم، وبهذا يصبح من الكافرين، ويصاب بالصغار والهوان حين يدخل جهنم راغماً ذليلاً.

ومقام العبودية ليس مقام هوان - وليس فى الاعتراف بعظمة الخالق ذل للمخلوق - إنما هو وضع الأشياء حيث يجب أن توضع، ومقاييس البشر فيما يسمونه عزة وكرامة أبعد من أن تصور الصلة الصحيحة بين العبد وربه.

والدعاء لا يكون إلا لله ﴿ **والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ ، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه** ﴾«سورة الرعد آيه ١٤» وللعبد أن يدعو ربه بما شاء من أسماء فهو الله، وهو الرحمن وهو الرحيم ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾«سورة الأعراف آيه ١٨٠».

وإذا دعوت ربك فاعلم أنك تدعو سميعا، فأخلص النية، وهيئ الفرصة، وأعد العدة، ﴿ **فادعوا الله مخلصين له الدين** ﴾ «سورة غافر آيه ١٤»- ولا تتعجل نتيجة الدعاء ففى الحديث الشريف «إن العبد لا يخطئه من الدعاء إحدى ثلاث : إما ذنب يغفر له، وإما خير يعجل له ، وإما خير يدخر له». وفى رواية أخرى «إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخر له فى الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها» ولا تجعل بينك وبين الله حاجبا بالعصيان، فإن العبد المذنب يقول يارب يارب ومطعمه حرام، وملبسه حرام، وقد غذى بالحرام - فأنى يستجاب له.

والرسول الأمين يقول : «إن ربكم حيى كريم يستحى من عبيده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردها صفرًا» فارفعوا أيديكم بالدعاء، واسألوه من رحمته : أن يستر عيبنا، وأن يجبر كسرنا، وأن يحفظ لنا ديننا، وأن يجعلنا من عباده الذين قال فيهم : ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعو ة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون** ﴾«سورة البقرة آيه ١٨٦»

وأسأل الله لى ولكم الهداية والعافية والتوفيق.

توبة الصائم

الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل والله أكبر كبيراً، وصلاة وسلاماً على من أرسله الله شاهداً ومبشراً ونذيرًا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً.

ففى القرآن الكريم آية لا يملك القلب أمام معناها العميق إلا أن يسجد لله شاكراً فضله، مقدساً جلاله، راضيا مطمئنا إلى غفرانه ورحمته - هذه الآية الكريمة هى قوله تعالى ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم - قل يا عبادى الذى أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ «سورة الزمر آيه ٥٣» فالخالق العظيم يدعو عباده الذين تجاوزوا الحدود فى المعصية، وأسرفوا على أنفسهم إلى عدم اليأس من رحمته - ويسوق هذه الدعوة فى صورة من التلطف، ثم يقدم منته العظمى التى تشمل كل شئ حين يقول ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾، ثم يؤكد المعنى بقوله إنه هو وحده الغفور الذى يغفر ذنوب عباده، الرحيم الذى يرحم الطائعين والعاصين معا. سبحانه وتعالى.

الأخ المسلم :

إن الرحمة دليل المقدرة، وقدرة الله تشمل كل شئ فى كونه، ولهذا وسعت رحمته كل شئ ﴿ **ورحمتى وسعت كل شئ** ﴾«سورة الأعراف آيه ١٥٦».

ولقد عشنا فى شهر رمضان أياما راضية، ذقنا فيها لذة الطاعة، وعرفنا أن باب الله مفتوح لكل طارق، وما أحوجنا إلى أن نلبى دعوة الغفران، وأن نسرع إلى باب الرضوان - وإذا كان شهر الصوم وسيلة لتربية الروح والبدن، وفرصة للقيام والدعاء وقراءة القرآن فإنه أيضا فرصتنا التى يجب أن ننتهزها لننال مغفرة الله - ومغفرة الله لا تأتى هكذا عفوا بدون تعب، فهو سبحانه يقول بعد هذه الآية الداعية إلى عدم اليأس ﴿ **وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون** ﴾ «سورة الزمر آيه ٥٤» فالرجوع إلى الله، وإسلام القلب له، والعودة إلى طاعته شرط أساسى فى

غفران الذنوب - والتوبة لا تقبل من العبد إلا إذا صحبها عزم ثابت أكيد على عدم العودة إلى الذنب، وصحبها أيضا عمل صالح يدعها ويسندها ، ويكون معها شفيعا للعبد عند الله - ولذلك يقول الله تبارك وتعالى ﴿ **إلا من تاب وآمن، وعمل عملا صالحا، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفورا رحيما - ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا** ﴾ «سورة الفرقان الآيتان ٧٠، ٧١» فالعمل الصالح شرط لقبول التوبة - ومن هنا كان قولنا إن رمضان بما فيه من طاعة وعبادة وبما فيه من صيام وقيام وزكاة وقرآن وصبر - رمضان هذا عمل صالح نقدمه مع التوبة لتكون على رجاء من قبول الله سبحانه وتعالى.

ولا عجب فالله عز وجل يقول فى آية أخرى ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** ﴾«سورة آل عمران آيه ١٣٥» فالتوبة لا تكون إلا إذا ذكر العبد ربه، وللذكر هنا معانيه التى تحمل صورة الندم والخوف مقرونة بطلب الغفران مع العزم على عدم العودة إلى الذنب - ثم أرأيت - أيها الأخ المسلم إلى الذنب العظيم يصير فاحشة، ويصير ظلما للنفس، ثم يقابل بالصفح والغفران، وينتهى بهذا الاستفهام الرائع القاطع فى معناه، معنى الصفح والعفو والغفران، نعم يارب، من يغفر الذنوب غيرك؟ لا أحد أنت وحدك القادر على ذلك، وأنت وحدك الذى جعلت استغفار العبد صلاة فى محراب طاعتك، واعترافاً بجلال ربوبيتك، وأنت وحدك الذى قبلته بعد المعصية لينعم فى رياض جنتك.

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « فى كتاب الله عز وجل آيتان. ما أذنب عبد ذنبا فقرأهما واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله** ﴾ «سورة آل عمران آيه ١٣٥».

والثانية : قوله تعالى ﴿ **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه، ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما** ﴾«سورة النساء آيه ١١٠».

ومن عظيم فضل الله تعالى أنه جل شأنه لا يكتفى بالمغفرة فيمحو الذنب ، ويزيل المعصية - بل يضيف إلى ذلك ما هو جدير بفضله وكرمه - يضيف الرحمة والثواب لعبده نظير تذكره لجلاله، ورجوعه عن عصيانه، والعبد فى الدنيا لو ارتكب ذنبا، وندم على ما فعل، وقدم الاعتذار الكافى والعمل الصالح فإن ذلك لا يعفيه فى القانون الوضعى من العقاب - وحتى لو جدت ظروف وأسباب تساعد على العفو لكان منتهى أمله أن يقال له اذهب فأنت طليق، أما أن يضاف إلى ذلك ثواب وخير ففضل لا يتسع له إلا عفو الله أرحم الراحمين.

وكثير من آيات الكتاب الكريم تؤيد هذا المعنى - يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره . إنه كان توابا** ﴾«سورة النصر آيه ٣» - ويقول ﴿ **إن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين** ﴾ «سورة البقرة آيه ٢٢٢» ويقول فيصف نفسه بالرحمة ﴿ **حم - تنزيل من الرحمن الرحيم** ﴾«سورة فصلت آيه ٢» وفى فاتحة الكتاب يؤكد هذه الصفة ﴿ **الحمد لله رب العالمين - الرحمن الرحيم** ﴾ «سورة الفاتحة آيه ٢ , ٣» وفى القرآن الكريم سورة كاملة تسمى سورة (غافر) وفى أولها يقول سبحانه ﴿ **غافر الذنب ، وقابل التوب** ﴾ لكنه يقول أيضا ﴿ **شديد العقاب ذى الطول** ﴾ غير أننا نلاحظ أن مغفرته سبقت عقابه، ولهذا أعد طائفة من ملائكته المقربين كل مهمتهم بعد تسبيح الله والإيمان به أن يستغفروا للمؤمنين المذنبين، قال تعالى : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا - ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا ، واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ «سورة غافر آيه ٧، ٨»

ولعلنا نلاحظ هنا أن الملائكة يقولون : فاغفر للذين تابوا ، واتبعوا سبيلك - فالمغفرة لا تكون إلا لمن تاب، وسلك سبيل الهدى، وطريق الرشاد - بل إن الدعوة لتتجه إلى الله أن يشمل برحمته الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم - دليلا على اتساع فضل الله ، وعميم رحمته.

وإذا كان رمضان موسما للطاعة فإن علينا أن نتخير الوقت الملائم لهذه الطاعة، والوقت الملائم لطلب المغفرة من الله - وأكرم الأوقات عند الله هو وقت السحر - قال

تعـالى ﴿ **والمستغفرين بالأسحار** ﴾«سورة آل عمران آيه ١٧». فى الليل تنام العيون، وتهدأ الكائنات، لكن عيون الظامئين إلى رحمة الله لا تنام، وقلوبهم لا تهدأ، وجنوبهم لا تستقر ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا** ﴾ «سورة السجدة آيه ١٦» ولقد أراد صلى الله عليه وسلم أن يبين لنا قيمة الاستغفار فقال : «إنى لأستغفر الله تعالى ، وأتوب إليه فى اليوم سبعين مرة» مع أن الله سبحانه وتعالى قد غفر له ذنوبه فقال : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ «سورة الفتح الآيتان ١ ، ٢» لكنه جمال الطاعة، ولذة المناجاة، وندى الرحمة الإلهية يروى قلبه حين يرجع إلى ربه فيذكره، ويستغفره فى ليله ونهاره، وهكذا كان عباد الله الصالحين دائما ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، فاستجبنا له ، ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾«سورة الأنبياء الآيتان ٨٧، ٨٨».

هكذا كان شأن الأنبياء والصالحين مع ربهم - وهكذا تتنزل رحمة الله على عباده - وليست الفكرة أن تقدم على الذنب، ثم تستغفر، وليس الهدف أن تفرط فى جنب الله ثم تطرق بابه - ولكن الهدف أن تكون عبدا طائعا حتى إذا هفوت، أو زلت بك القدم على غير إرادة لجأت إلى ربك وكنت كمحمد صلى الله عليه وسلم الذى علمنا كيف نتوب حين كان يقول : «اللهم اغفر لى خطيئتى، وجهلى، وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى - اللهم اغفر لى هزلى - وجدى، وخطأى وعمدى - اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به منى - أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شئ قدير» وصدق رسول الله.

وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون

والحمد لله رب العالمين.

بعد رمضان

الحمد لله رب العالمين، له الحمد فى الأولى وفى الآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون، والصلاة والسلام على نبى الهدى والرحمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين.

وبعد ...

هكذا تدور الأيام، وهكذا تتوالى الشهور والأعوام - تأتى وتذهب - وتقبل وتدبر، وتحل وترحل - وهكذا أقبل رمضان ثم مضى.

أهل علينا بأيامه العابرة، ولياليه الأنيسة العامرة - جاء بالخيرات والبركات - ورحل يحمل الذنوب والسيئات - كان امتحانا عقدته السماء للمؤمنين، وكان اختباراً قدمته الشريعة للموحدين - ربح فيه من ربح، وخسر فيه من خسر - وإنها والله لنعمة سابغة للمسلم أن يكون من الرابحين الفائزين، وإنها والله لمحنة قاسية له أن يكون فى رمضان من الخاسرين النادمين.

لقد كان رمضان منحة من السماء، وفرصة أعطانا الله فيها من الخير ما يجل عن الوصف والبيان، يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : «أعطيت أمتى فى شهر رمضان خمسا لم يعطهن نبى قبلى - **أما الأولى** فإنه إذا كانت أول ليلة من شهر رمضان نظر الله عز وجل إليهم، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبدا - **وأما الثانية** فإن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك - **وأما الثالثة** فإن الملائكة تستغفر لهم فى كل يوم وليلة، **وأما الرابعة** فإن الله عز وجل يأمر جنته فيقول لها : استعدى وتزينى لعبادى أوشكوا أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى دارى وكرامتى - **وأما الخامسة** فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعا.

فقال رجل من القوم : أهى ليلة القدر؟ فقال : لا - ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من عملهم وفوا أجورهم».

وإذا كنا قد فرغنا من عملنا فى رمضان فإن علينا أن نقف لنعرف هل نحن من الرابحين أم من الخاسرين؟

إن نظرة واعية للحديث الذى قرأناه الآن تؤكد لنا عدة أمور :

أولهـــا : أن شهر رمضان شهر مغفرة ورحمة ورضوان - فيه ينظر الله إلى عباده المؤمنين نظرة لا يعذبهم بعدها أبدا - وفيه يأمر ملائكته أن تستغفر لهم ﴿ **الـذيــن يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم، ويؤمنون به، ويستغفرون للذين آمنوا، ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك، وقهم عذاب الجحيم** ﴾«ســـورة غافر آيه ٧» - وفيه يطلب من جنته أن تتزين لهؤلاء العابدين الصائمين فقد آن لهم أن يستريحوا من تعبهم - وفى نهايته يكون العفو الإلهى الشامل.

وثانيها : أن العطايا الإلهية التى ذكرت فى الحديث الشريف شئ آخر غير ما تقدمه ليلة القدر بما فيها من أمن وسلام حتى مطلع الفجر.

وثالثــهــا : أن ما يقدمه الله لعباده فى هذا الشهر إنما هو نتيجة عملهم وجزاء صيامهم - هو أجرهم الذى يستحقون، وسيوفى الله الصابرين أجرهم بغير حساب.

أيها الأخ الكريم :

لقد منحنا رمضان كل هذه النعم - فماذا بعد رمضان؟

هل نطمئن إلى هذا الخير، ونكتفى بهذا العطاء الربانى، ونقبل على الدنيا من جديد فننسى فى لذاتها حلاوة الطاعة وعذوبة اللقاء بالله؟

أظن أن بعض النفوس تمتلئ بهذا المعنى، أو تعيش اليوم فى ظلال هذا الشعور الخادع، وترجع إلى طبيعتها بعد هذه الرحلة الروحية، وتعود إلى مباهج الحياة من جديد - وما هكذا أراد الله لنا، ولا هكذا كانت الغاية من فرائض الإسلام وأركانه.

الإسلام يريد أن يربينا تربية متنوعة متجددة دائمة موصولة - يربى أبداننا بالصلاة، ويهذب شح نفوسنا بالزكاة، وينمى بالفريضتين قدراتنا الروحية والاجتماعية، ثم يزيد من التدريب البدنى والروحى، ومن التهذيب المالى فى فريضة الحج - وكل هذه

الفـرائض ذات صـفـة إيجـابيـة فـاعلة - وهو أيضـا يربى عـزائمنا وينمى صـلاتنا الاجتماعية، ويعالج مشكلاتنا الطبقيـة، وقضية الجوع والشبع، أو الغنى والفقر بفريضة سلبية فى مظهرها إيجابية فى مخبرها هى صيام شهر رمضان.

ومن رحمته سبحانه بعباده أنه جعل لكل فريضة وقتا معينا، وبيئة معينة، وسلوكا عمليا محددا، فإذا ما انقضى الوقت وتغيرت البيئـة لم يعش المؤمن فى فـراغ من الطاعة، ولم تنقطع صلته ببارئه.

إن الفرائض تتكرر وتتوالى حتى لا يحدث الفراغ الدينى، وحتى لا تنقطع صلة المؤمن بربه - ولقد مضت أيام الصيام فتغيرت بيئة العبادة، وانتهى زمنها - لكننا لا نجد أنفسنا فى انقطاع عن الله - ولا فى فراغ من الطاعة إنما هو النصب والتعب فى أركان أخرى.

إذا كان رمضان قد انتهى فليس معنى هذا أن يتخفف الناس من الطاعة، وأن يبتعدوا عن الله، فإن ألوان العبادات كثيرة، ووسائل القرب من الله عديدة.

ومن ناحيـة أخرى إذا كنا قد أدينا واجبنا الدينى فى شهر رمضان، ونجحنا فى الامتحان، فإننا نكون قد ربينا إرادتنا، وشحذنا عزائمنا، ونمينا قدراتنا، وخرجنا من الشهر الكريم ونحن أقدر على الاتصال بالله، وأنشط إلى العبادات الأخرى- وهذا وحده هو مقياس النجاح بعد شهر رمضان.

ونسأل الله تعالى أن يتقبل منا ومن المسلمين جميعاً الصيام والقيام والاعتكاف وأن يجعل كل أعمالنا إيمانا واحتسابا وأن يثبت قلوبنا على الحق وعلى الصراط المستقيم وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

المساجد - بيوت الله

الحمد لله رب العالمين ولى الصالحين ولا عدوان إلا على الظالمين.

والصلاة والسلام على إمام المتقين وقدوة الناس أجمعين وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد :

المسجد من المعالم البارزة فى حياة الإسلام والمسلمين، إنه علامة مميزة فى تاريخ هذا الدين، تحدث عنه الكتاب العزيز أكرم حديث، وأنزله الرسول الأمين منزلة الإعزاز والإكبار والعناية. والمساجد هي أحب البقاع إلى الله فى الأرض، هى بيوته التى يدعو إليها عباده، وفيها يشملهم برحمته بعد أن يلبوا النداء - فيها يلتقون على طهارة ووحدة، ويعبدون الخالق البارئ، ويقيمون مجتمعا للمعرفة والطاعة، ودينا من الطهر والجلال فى عالم امتلأ بالزيف والخداع.

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **فى بيوت أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه، يسبح له فيها بالغدو والآصال، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا، ويزيدهم من فضله، والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾. سورة النور آيات : ٣٦، ٣٧، ٣٨.

فى هذه الآيات يتحدث الله سبحانه وتعالى عن المساجد - وعن الرجال المؤمنين الذين يعبدونه فيها، وعما أعده لهم من ثواب.

أما الحديث عن المساجد نفسها، فالله يقول : إنها بيوت يجب أن ترتفع إلى السماء، وقد أمر الله بذلك، وبتعهدها وتطهيرها لأنها منارات للهدى، وواحات للخير يلجأ إليها المؤمنون حين تشتد عليهم تكاليف الحياة، وحين تزحمهم الدنيا بما فيها من مصاعب ومتاعب - وهناك فى هذه البيوت الطاهرة يجدون الأمن والسلام، ويستروحون نسمات الرضوان، الواحد منا يشعر فى كثير من الأوقات كأنه يسير فى صحراء قد اشتد عليه لفح الهجير، وطال به الشوق إلى الماء العذب النمير، فإذا ما دخل مسجداً من المساجد، خف عنه لفح الهجير، وزالت عنه هموم الدنيا، وارتوت أحاسيسه ومشاعره بالروحانية.

وبناء المساجد نعمة كبرى رغب فيها الرسول بعد القرآن - عن عثمان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله، بنى الله له مثله فى الجنة».

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد فى الدور، وأن تنظف وتطيب» - وأما السبب الذى ذكرته الآيات لبناء المساجد فكونها أماكن يذكر فيها اسمه، ويعبد فيها وحده، فهى خالصة لطاعته وتوحيده، لا يذكر فيها غيره، ولا يقدس فيها سواه ﴿**وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا**﴾ سورة الجن ١٨. والعبادة فيها قائمة على الإخلاص ﴿**وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد، وادعوه مخلصين له الدين**﴾ سورة الأعراف آية ٢٩. وهذا الدعاء المخلص يتم فى كل وقت، عند الصباح وعند المساء، وفيما بين الصباح والمساء ﴿**يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال**﴾ سورة النور آيه : ٣٦.

هذا عن المساجد - أما الرجال الذين يسبحون ويعبدون فى هذه المساجد فقد وصفتهم الآيات بأنهم رجال لا تشغلهم الدنيا عن ذكر الله، ولا عن الصلاة والزكاة وغيرهما من الفرائض - إنهم يجمعون بين العمل والعبادة، إنهم يبيعون ويشترون حتى إذا ما ارتفع صوت المؤذن بالنداء الحبيب تركوا التجارة والعمل، وأسرعوا إلى الله مخلصين، لا تشغلهم الدنيا بزخارفها، ولا التجارة بأرباحها ومكاسبها، للمسجد وقته، وللعمل فى الدنيا وقته، عن عبدالله بن عمر أنه كان فى السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم، ودخلوا المسجد فقال ابن عمر: فيهم نزلت ﴿**رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله**﴾ سورة النور ٣٧ - ولقد وضع القرآن الكريم القاعدة السليمة للجمع بين العبادة والعمل فى قوله تعالى : ﴿**يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله، وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون - فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض، وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون**﴾. سورة الجمعة آيات : ٩، ١٠، ١١.

فى وقت الصلاة نحن مطالبون بالعبادة ﴿**فاسعوا إلى ذكر الله، وذروا البيع**﴾. سورة الجمعة آية ٩.

وفى وقت العمل نحن مطالبون بالسعى. وطلب الرزق ﴿**فانتشروا فى الأرض، وابتغوا من فضل الله**﴾ سورة الجمعة آية ١٠.

وأخيرا تتحدث الآيات الكريمة عن الثواب - فالله يجزي هؤلاء الرجال بأحسن ما

كانوا يعملون. ذلك لأنهم فعلوا ما فعلوا خوفاً من الله، وخشية من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، والله كريم، ولا يحب أن يكون عطاؤه على قدر العمل، فهو يزيدهم من فضله، والزيادة لا تكون إلا من فضل الله، وفضل الله لا حدود له.

﴿ **ليجزيهم الله أحسن ما عملوا، ويزيدهم من فضله - والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ سورة النور آيه ٣٨.

مجتمع المسجد

ومجتمع المسجد ظاهرة فريدة فى الحياة، وصورة من صور اللقاء والطاعة بين المسلمين، ورابطة من الروابط المتينة القائمة على أصول من تقارب الأرواح ولقاء المشاعر.

وإذا كان لكل مجتمع صفاته وأهدافه، فإن مجتمع المسجد يقف شامخاً بين كل المجتمعات، لأنه يرتكز على أسس متينة من الألفة والمحبة، ومن الصفات التى لا يمكن أن توجد فى غيره.

وأول ما يمتاز به هذا المجتمع / الطهارة - فهو مجتمع طاهر - الناس فيه لا يلتقون إلا على طهارة، ولا يذهبون إلى اللقاء إلا بعد أن يتخلصوا من الدنيا وما فيها من مظاهر مادية - وبهذا نستطيع أن نقول : إن الطهارة فى مجتمع المسجد نوعان - طهارة البدن، وطهارة الروح والفكر.

أما طهارة البدن - فقد عرفنا أن الإسلام يشترط للصلاة طهارة كاملة فى الجسم، وفى الملابس وفى المكان - ولا تصح الصلاة إذا كانت هناك نجاسة فى أى واحد من هذه الثلاثة، فالطهارة شرط لصحة الصلاة والرائع الذى يلفت النظر أنك لا تجد واحدا ذهب للعبادة فى هذا المجتمع إلا إذا كان طاهرا - فهل يوجد مثل هذا فى أى مجتمع آخر؟.

إن الإسلام ليذهب إلى أبعد من هذا. إنه لا يكتفى بالطهارة الحسية، بل يطلب من المسلمين أن يكونوا على زينة واضحة، ونظافة كاملة، وعلى رونق وبهاء كلما ذهبوا إلى مجتمع المسجد ﴿ **يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ سورة الأعراف آيه ٣١. والزينة هي اللباس النظيف، والهيئة الجميلة، وهذا أمر محبوب مرغوب فيه عند كل صلاة، لأنك تذهب للقاء الحبيب، وتقف بين يدى خالقك ورازقك، ومن الواجب ذوقا وأدبا أن تكون على زينة مناسبة - وأنت أيضا فى هذا المجتمع تلتقى بإخوانك المسلمين، ومن واجبك أن تكون نظيفا، طيب الرائحة، مقبول الهيئة.

ومن كمال الطهارة البدنية فى مجتمع المسجد ألا تأكل شيئا توذى رائحته جيرانك فى الصلاة، والزينة حلال للمسلم فى كل مكان حتي فى غير الصلاة، قال تعالى : ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده، والطيبات من الرزق** ﴾ سورة الأعراف آية ٣٢. وروى البخارى عن ابن عباس أنه قال : «كل ما شئت، والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : «سرف أو مخيلة». فإذا ابتعدت عن الإسراف، وعن الخيلاء والكبرياء فتزين، وتجمل فى طعامك وشرابك ولباسك، وكن حسناً نظيفا، فإن الله جميل يحب كل جميل، وجمالك مطلوب منك وبخاصة فى المجتمع الطاهر : مجتمع المسجد، ويناسب هذا المجتمع أن تستعمل الطيب حتى تفوح فى المسجد رائحة زكية، وتلف القائمين فى رحاب الله بجو معطر ندى - روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : «كنت أطيب النبى صلى الله عليه وسلم بأطيب ما يجد، حتى أجد وبيص الطيب فى رأسه ولحيته» - أى حتى ترى بريق الطيب ولمعانه فى رأس النبى صلى الله عليه وسلم وفى لحيته، وكانت رضى الله عنها ترجل له شعره ، وإذا كان هذا مطلوبا من المؤمن اقتداء بالرسول فى كل مكان وفى كل وقت، فهو أشد طلبا فى المجتمعات الإسلامية الكبيرة - كمجتمع المسجد، ومجتمع الحج - هذه هى طهارة البدن فى مجتمع المسجد.

أما طهارة الروح والفكر - فهى فريضة على المؤمن، وشرط فى صحة الإيمان وكماله، لابد أن تكون نقى الروح صافى السريرة، سليم الوجدان حتى تكون مؤمنا صادق الإيمان، ومع ذلك فطهارة الروح والفكر أمر ضرورى فى المسجد - إذا ذهبت إلى المسجد فتخلص من كل ما يربطك بالدنيا، تخلص من الضغينة، والحقد، والشهوة. وحب المال، كن ربانيا روحانيا، حتى تلتقى بإخوانك من المسلمين على نقاء وصفاء، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه - فيه رجال يحبون أن يتطهروا، والله يحب المطهرين** ﴾سورة التوبة آيه : ١٠٨.

مجتمع المسجد، مجتمع الطهارة بكل صورها، ولهذا يحب الله أهله، لأن الله يحب المطهرين.

النظام

إن مجتمع المسجد مجتمع إسلامى فريد فى نوعه، وفيه مميزات وصفات لا توجد فى غيره من المجتمعات، وتحدثنا عن أول هذه الصفات ، وهى الطهارة وسوف نتحدث عن صفة أخرى لهذا المجتمع ، وهى النظام.

والنظام ظاهرة واضحة فى مجتمع المسجد، وله صور وأشكال : انظر إلى المسلمين حين يقفون فى الصلاة وراء الإمام، تجد صفوفا متراصة متماسكة - الكتف إلى الكتف والعقب بجوار العقب، والوجوه كلها نحو البيت الحرام، والقلوب كلها تناجى الله خاشعة مطمئنة، والألسنة كلها تهتف باسمه ضارعة، والجوارح كلها سكون وسلام، نظام دقيق كامل - لا يتحرك أحد إلا إذا تحرك الإمام، ولا يرتفع صوت فوق صوت الإمام، ولا يجرؤ مخلوق على أن يعكر صفو هذه الساعات الروحية.

والإسلام بهذا يريد أن يجعل النظام أسلوب حياة فى مجتمعنا الإسلامى الكبير، ولهذا يدربنا عليه فى المجتمع الصغير، مجتمع المسجد - إنه نظام مثالى دقيق - فيه وحدة المظهر، ووحدة فى السلوك، والتزام بقوانين معينة، فهل وعينا هذه الدروس؟ وهل جعلنا من النظام أسلوبا فى حياتنا كلها؟ يؤلمنى أن يكون الجواب لا - نحن ننهض إلى أعمالنا فى غير نظام، ونسير فى شوارعنا على غير هدى، وإذا أقدم أحدنا على عمل أقدم عليه بدون تخطيط أو ترتيب - سلوكنا يأتى عفوا وبدون نظام، ومنهج حياتنا قائم على غير تخطيط، فإذا نظرنا إلى المجتمعات الأخرى وجدنا النظام والترتيب تماماً كما أمرنا ديننا - يقولون عنا إننا شعوب غير منظمة، وإننا نعتمد على الارتجال فى كل أمورنا - وشبابنا الذين يعيشون فترات من حياتهم فى المجتمعات الأخرى تبهرهم هذه الصور، وتسيطر عليهم فكرة التقدم هناك والتخلف هنا، ويطالبون بتقليد هؤلاء المنظمين فى سلوكهم وعاداتهم - ونحن نقول لشبابنا : أنتم أبرياء، ولكم العذر، لقد ظلمناكم حين لم نقدم لكم صورة صحيحة للمجتمع الإسلامى - من أول يوم أشرقت فيه أنوار الرسالة الإسلامية وُضعت أسس النظام فى هذا المجتمع - ومجتمع المسجد واحد من المجتمعات التى يدربنا فيها الإسلام على النظام وعلى الطاعة، وعلى أمور أخرى كثيرة. عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فلا تختلفوا عليه، فإذا ركع فاركعوا، وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا لك الحمد - وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلى جالساً فصلوا جلوسا أجمعون، وأقيموا الصف فى الصلاة فإن إقامة الصف من حسن الصلاة» أى أن النظام فى المسجد جزء من تمام الصلاة - وقال صلى الله عليه وسلم : «سووا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة».

فهل بعد ذلك عناية بالنظام؟

والنظام فى المسجد مظهر من مظاهر الوحدة فى الشكل وفى الجوهر، وتدريب على الطاعة لأولى الأمر، وعلى الالتزام بالقوانين والتعاليم - والنظام فى مجتمع المسجد مظهر آخر من مظاهر المساواة بين المسلمين، فالجميع أمام الله سواء ، لا يتقدم غنى لغناه، ولا يتأخر فقير لفقره، بل إنك لترى الضعفاء من الشيوخ والفقراء يسبقون إلى الأماكن الأولى فى المسجد، لأنهم يبكرون فى الحضور، ولهم من الاحترام والإجلال ما يثبّت معنى المساواة فى القلوب - فى أى مجتمع آخر نرى هذه الصورة؟ فى أى مكان فى الدنيا نجد هذا المجتمع؟ فى أى حضارة يتحقق هذا السلوك الإنسانى الرفيع؟ لا شئ من ذلك إلا فى الإسلام.

الإمام هو القدوة، إذا ركع ركع المصلون، وإذا رفع رفعوا، وعلى الأرض تطمئن الجباه كلها، لتعلن الخضوع لله، ولتعلن فى الوقت نفسه الحقيقة الكبرى التى فقدتها الدنيا ووجدها الإسلام وحده فطبقها أروع تطبيق - حقيقة المساواة، جبهة العظيم على الأرض إلى جوار جبهة الفقير - وربما كانت خلف أقدام جافة شققتها قسوة الحياة الخشنة، ولا نفور ولا ترفع، بل خضوع لله وخشوع، والكبرياء لله وحده.

أقول لك الحق يا أخى المسلم - لقد ظلمنا ديننا وتعاليمه. وظن بعضنا أنها مجرد طقوس لا معنى لها، ونحن مخطئون - فلنفهم الدين كما يجب أن يفهم، ولنقف عند حدوده وشرائعه، ولنجعل من تعاليمه دستور حياتنا. ويومئذ نعرف ويعرف شبابنا أنه دين كامل.

المعرفـــة

لقد رأينا فى هذا المجتمع من قبل طهارة بدنية وروحية. ورأينا فيه سلوكا قائما على النظام والوحدة والمساواة، فماذا فيه بعد ذلك؟

فى مجتمع المسجد الكثير والكثير من سمات الكمال الإسلامى.

مجتمع المسجد مجتمع علم وفقه - إلى جانب كونه مجتمع عبادة وطاعة - فيه بحث ومعرفة، وفيه هداية وإرشاد - ولعل هذه الفكرة كانت بعيدة عن أذهان شبابنا، أو بعضهم على الأقل - إنهم يذهبون إلى المسجد للعبادة، وحسبهم أنه مكان طاهر نعبد الله فيه ثم نعود إلى بيوتنا.

والحقيقة أن المسجد مكان للدراسة وللبحث العلمى. ومجال للتزود من المعرفة والتفقه فى الدين، ولا أحسبنى أكون مخطئا حين أقول : إن العبادة معرفة وعمل فى سبيل الله، وفى سبيل الحياة الأخرى، وأن المعرفة عبادة بما فيها من كفاية للنفس، وحفظ لها من الجهل - ومعروف أن العبادة يمكن أن تتم فى كل مكان، وهذا من مزايا الإسلام - وأن المعرفة تحصل أيضاً فى كل مكان لكن يحسن أن يكون لهما مكان معين هو المسجد، تتهيأ فيه الظروف، وتتحقق الوسائل التى تساعد على المعرفة وعلى العبادة.

بهذه الصورة بدأت المعرفة. وبدأ العلم فى الإسلام، فى المسجد كان العلم، وكان التعليم- ولقد اتخذ الرسول صلوات الله وسلامه عليه مدرسة يلتقى فيها بأصحابه فيعلمهم، ويتلو عليهم القرآن، ويشرع لهم الشرائع - وفى هذه المدرسة تربى أبو بكر وعمر وكل الصحابة رضوان الله عليهم، وكان محمد صلى الله عليه وسلم حريصا على أن يبين للناس قيمة العلم، وأن يوضح لهم أن المسجد مكان للعلم كما هو مكان للعبادة، روى عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا هو بمجلسين أحدهما يذكرون الله تعالى، والآخر يتفقهون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كلا المجلسين على خير، وأحدهما أحب إلى من صاحبه، أما هؤلاء فيذكرون الله ويسألونه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه، ويعلمون الجاهل، وإنما بعثت معلما» وجلس إلى أهل الفقه.

ولقد اتبع الصحابة سنة رسول الله ، وسار الخلفاء على هديه، فما نزلت بالمسلمين شدة ، أو حزبهم أمر إلا لجأوا إلى المسجد يخطبون، أو يتشاورون - وبهذا كان المسجد مجتمع المعرفة، ومجتمع الشورى، وكان أيضا مجتمع القضاء والفتوى، وكان مجتمع الخير كله.

فى صحيح البخارى : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد فأقبل ثلاثة نفر - فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذهب واحد - فأما أحدهما فرأى فرجة فجلس، وأما الآخر فجلس خلفهم - فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألا أخبركم عن الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه».

وعلى مدى التاريخ الإسلامى كله صارت المساجد مدارس علم، ومعاهد فقه - تخرج فيها صفوة من العلماء الذين نعتز بهم - والذين حفظوا للدين ثروته العلمية، وزادوا ما

فيه من ألوان المعرفة، واذكروا معى الحرم المكى، والحرم النبوى ، والمسجد الأقصى، والأزهر الشريف، وجامع الزيتونة، والمسجد الأموى، اذكروا هذه المساجد، وما كان فيها من حلقات العلم والبحث لتعرفوا قيمة المساجد فى البحث وفى نشر العلم والمعرفة.

من هنا كان علينا حين نفد إلى المسجد يوم الجمعة، أن نقصد إلى المعرفة والعلم، كما نقصد إلى العبادة والطاعة، وأن نجعل من اجتماعاتنا فى المساجد ندوات علمية.

ومجتمع المسجد - بعد هذا - مجتمع الوفاق والحب والصفاء - كل من فيه إخوة متحابون، يسلم بعضهم على بعض، كلمتهم واحدة، ودعوتهم واحدة، والتعامل بينهم قائم على الرفق والاحترام.

وفى المسجد من الأدب والهدوء، ومن حسن السلوك، وخفض الصوت، ومن احترام مشاعر الناس - ما لا تراه فى مجتمع آخر - لا تسمع فيه كلمة نابية، ولا ضحكة عالية، ولا ترى سلوكا شاذا ولا فعلا قبيحا - الناس فى طاعة - تحفهم السكينة، ويلفهم الوقار.

وبعد - فما أكثر ما فى مجتمع المسجد من صفات - وليس المهم أن نعرفها فحسب - وإنما المهم أن نجعل منها نماذج نطبقها فى مجتمعنا الإسلامى الكبير.

أيها المسلمون

أقول ما تسمعون وأستغفرالله العظيم لى ولكم

ولسائر المسلمين فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

شعائر الله

الحمد لله حمداً حمدًا والشكر لله شكرا شكراً

والصلاة والسلام على المعلم الهادى إلى سواء السبيل الناطق بالحكمة والمسدَّد فى الرأى الذى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة وجاهد فى الله حق الجهاد حتى أتاه اليقين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

وبعد....

أيها الناس..

قال الله تعالى : ﴿ **ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب** ﴾ سورة الحج آية ٣٢.

الشعائر جمع شعيرة، وهى ما ندب الشرعُ إليه، وأقر بالقيام به - فهو الفريضة المحكمة، والإرادة الإلهية النافذة - وشعائر الله أوامره التى يجب أن تطاع تعبداً وخضوعا - فَهِمَ العبدُ سرَّها أو لم يفهم، أدرَك غايتها أو لم يدرك - ويكفى أن الله سبحانه نسبَها لنفسه حتى تأخذ حقها من التعظيم والتقدير.

وقد وردت هذه الآية فى سياق آيات تتحدث عن الحج - ولهذا قال بعض المفسرين : إن شعائر الله هى أوامره الخاصة بالحج كرمى الجمار، ونحر الإبل، والسعى بين الصفا والمروة - وزاد بعض المفسرين رأيا يقول : إن الشعائر هى (الإبل) التى تساق للذبح تكفيرا عن الذنوب - وتقرُّبا إلى الله بإراقه الدماء - قالوا إن الشعائر هى (البُدْن) أى الإبل. وتعظيمها هو اختيار السمين الحسن منها - ويؤيد ذلك قولُ الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **والبدْن جعلناها لكم من شعائر الله . لكم فيها خير** ﴾ سورة الحج آية ٣٦.

وكل هذا يتعلق بالدماء، وبأثرها فى التقرب إلى الله فى الحج ويوم النحر.

عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال :«ما عمل ابن آدم يوم النحر عملا

أحبَّ إلى الله من إهراق دم - وإنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها - وإن الدمَ ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض - فطيبوا بها نفسا».

وعن أبى رافع أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحّى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين - فإذا صلى وخطب الناس أُتَى بأحدهما - وهو قائم فى مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية - ثم يقول : اللهم هذا عن أمتى جميعها - مَن شهد لك بالتوحيد، وشهد لى بالبلاغ. ثم يُؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول : «هذا عن محمد وآل محمد - فيطعمها. جميعا للمساكين - ويأكل هو وأهله منها».

ولا جدال فى أن الذبح شعيرة من شعائر الله، لها موقعها عند الله - لكن الذى لا شك فيه أيضا أن الذبح شعيرة واحدة من الشعائر، وليست هى كلَّ الشعائر - والآية الكريمة تقول : ﴿ **والبدن جعلناها لكم من شعائر الله** ﴾ سورة الحج آية ٣٦ - فهى من الشعائر - وقوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله** ﴾ سورة المائدة ٢ - يدعم هذا الرأى - وقد قال أكثر المفسرين : إن الشعائر هنا هى المحرمات، أى لا تجعلوا المحرمات حلالا.

وإذا كانت الآية قد سيقت مع الحديث عن الحج فإن هذا لا يمنع أن تكون الشعائر هى كلَّ أوامر الله تعالى فى الحج وفى غير الحج - وهى تلتقى فى المعنى مع قوله تعالى ﴿ **ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه** ﴾ سورة الحج آية ٣٠ - فالحرمات هى الأشياء التى حرمها الله - وتحريمُها أمر يجب أن يُطاع، وفيه الخير لصاحبه - لأنه إذا كان فعلُ الطاعَات يستحق الثواب - فإن ترك المعاصى يستحق، أيضا الثواب - لأنه يحمل معنى الخضوع لله، ولأن فيه امتثالا لأوامره سلبا أو إيجاباً.

والحقيقة أنّ الآيتين صعيد واحد - لكن الأولى تتناول الأوامر الإيجابية التى يحملنا الشرع على القيام بها ﴿ **ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب** ﴾ سورة الحج آية ٣٢.

والثانية تتناول الأوامر السلبية التى ينهانا الشرع عن إتيانها ﴿ **ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه** ﴾ سورة الحج آية ٣٠.

وبعد : ..

ففى آخر الآية لمحة من بلاغة القرآن تظهر فى قوله تعالى : ﴿ **فإنها من تقوى القلوب** ﴾ سورة الحج آية ٣٢ - فإن التعبير (بمنْ) هنا يُفيد أن تعظيم الشعائر وتنفيذ الأوامر جزء من التقوى، وليس هو كلَّ التقوى - ذلك لأن التقوى منزلة سامية وغاية بعيدة لا يكفى فيها مجرد اجتناب الحرمات، وإطاعة التعليمات. التقوى وراء ذلك.

إنها درجةُ القرب، وغايةُ الهُدى - ﴿ **والعاقبة للمتقين** ﴾ سورة الأعراف آية ١٢٨.

واسأل الله لى ولكم التوفيق والهداية والحفظ والرعاية

والحمد لله رب العالمين.

لبيك اللهم لبيك

الحمد لله الذى جعل بيته العتيق مثابة للناس وأمنا

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده.

وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ﷺ - وبعد : -

لبيك اللهم لبيك - لبيك / لا شريك لك. لبيك / إن الحمد والنعمة لك والملك - لا شريك لك.

أيها الموحدون :

بهذه التلبية الصادقة - أهَلَّ محمد صلواتُ الله وسلامه عليه، عندما استوت راحلتُه قائمة عند ذى الحليفة.

وبهذه التلبية الصادقة أهل أصحابه معه - وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يُهِلُّ بما أهلّ به رسول الله ﷺ - من هذه الكلمات، ثم يقول :

«لبيك اللهم لبيك - لبيك وسعديك، والخير بين يديك، لبيك، والرغباء إليك» ويمضى الزمان - وتمتد الأيام - وتتغير الدنيا - جيلا بعد جيل، وحضارة تعقب حضارة، وتأتى أفكار ومبادئ وتذهب أفكار ومبادئ، ولا تزال الفكرة الإسلامية عميقة الجذور فى قلوب الملايين، ولا يزال الدعاء الصادق يتردد فى جنبات الأرض المقدسة.

هناك - فى كل مكان - فى السهول والبطاح، فى السفوح والوديان، على التلال والآكام، هناك - ترى الوفود الزاحفة، والجموع المتسابقة، وتسمع الدعاء: يدور فى كل قلب، يدوّى فى كل نفس - يتصاعَد من كل فم، فيملأ الدنيا روعة ويقينا - ويهزّ فكرة الحياة الرتيبة فى الصحراء النائمة، ويبعث فيها روحا من حياة عابدة مؤمنة، ويعطى الإسلام معنى التجدد، كلما مضى الزمان ودارت الأيام.

إنه دعاء محمد بن عبدالله، تردده الملايين من بعده - بكل لغة، وبكل لسان، تردده : والقلوب عامرة، والنفوس زاكية، والحياة عندها طريق إلى الآخرة.

هذه الجموع الملبيةُ الزاحفة نحو الحرم الآمن، قد تركت الدنيا، وأقبلت على الله، وتجمعت فى مشهد رائع خالد، مشهد لم تر الدنيا له مثيلا، ولن ترى الدنيا له مثيلا - فى غاياته وأهدافه، فى ملامحه ومظاهره، فى أسبابه ودوافعه، فى قداسته وصفاته وروحانيته.

وهناك على عرفات يكون اللقاء الأكبر - يلتقى الأبيض والأسود، والعربى والعجمى، والغنى والفقير، والسيد والمسود - الكل فى صعيد واحد - يتجه إلى رب واحد - ويؤمن بفكرة واحدة. ويلبى دعوة واحدة هى دعوة إبراهيم عليه السلام.

﴿ **وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا، وعلى كل ضامر - يأتين من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم** ﴾ سورة الحج آيات ٢٧ : ٢٨.

وأى منفعة أعظم من أن يجمعوا كلمتهم، ويوحدوا رايتهم ، ويستردوا عزتهم؟

أى منفعة أولى من أن يعود المسجد الأقصى إلى أهل التوحيد واليقين؟

أيها الأخ الكريم:

لقد أرشد الله إبراهيم إلى مكان البيت الحرام، وأمره أن يقيم بناءه على اسمه وحده، ليكون خالصا من الوثنية، طاهرا من الشرك، نقيا لله ربّ العالمين، بهذا تحدث القرآن الكريم ﴿ **وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود** ﴾سورة الحج آية ٢٦.

وصريح القرآن يدلل على أن البيت أقيم من أول يوم للعبادة الصحيحة، فلا شرك فيه ولا وثنية - وأنه مثابة للطائفين والقائمين والعابدين.

﴿ **وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع والسجود** ﴾سورة البقرة آية ١٢٥ - وصدع إبراهيم بأمر الله، وعاونه ابنه اسماعيل، وقام البيت الحرام، فكان منارا للهدى ومهوى للأفئدة، ومثابة يأوى إليها كل خائف باحث عن الإيمان.

﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا ، وهدى للعالمين - فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا** ﴾سورة آل عمران آيات ٩٦ : ٩٧.

ولما تم البناء جاء أمر الله لإبراهيم ﴿ **وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر** ﴾سورة الحج آية ٢٧ - وسمع إبراهيم الأمر، فوقف على الصفا ينادى : «يأيها الناس - إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه» ونحن اليوم نلتقى هناك تلبية لهذا النداء - لقد سمعه السعداء، فأتوا من كل مكان، وسالت بهم البطاح والوديان، وأصواتهم تردد الدعاء الصادق :

لبيك اللهم لبيك - لبيك لا شريك لك لبيك - إن الحمد والنعمة لك والملك - لا شريك لك، فإذا رفعت أيها المسلم صوتك بالدعاء، فاعلم أنك تلبى دعوة الله على لسان إبراهيم، وتُهل بما أهلَّ به محمد الأمين - وإذا كنت فى رحاب البيت الحرام فاعلم أنك فى رحاب الله، وأنها فرصة العمر لتعود - وقد صدق عليك قول الرسول ﷺ.

(الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة).

دعوة إبراهيم

إن الحديث ذو شجون، ومن شجونه فى هذه الأيام المباركة - أن نعود إلى الماضى البعيد، لنرى كيف وُضعت دعائم الإيمان فى الأرض المقدسة، وكيف قام البيت الحرام لتهوى إليه أفئدة المؤمنين - استجابةً لدعوة إبراهيم عليه السلام.

والحقيقة الواضحة أن إبراهيم أكثر من الدعاء، وأن الله سبحانه وتعالى قد استجاب له - فلم يُخب له دعوة، ولم يردّ له رجاء - دعا بها إبراهيم مرتين : مرةً قبل بناء البيت الحرام، ومرة بعد بنائه.

أما مضمون الدعوة فيتضح فى أمرين : **أولهما** الأمان والسلام للبلد الحرام - **وثانيهما** : تحقيق العقيدة الموحّدة له ولذريته من بعده، فهو يرجو لنفسه صلاحا، ويرجو لذريته خيرا وفلاحا. قال الله تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام - رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ، فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم** ﴾ سورة إبراهيم آيات ٣٥ : ٣٦.

وأما الهدف من ذكر هذا الدعاء فى القرآن - فهو أن يعرف المشركون أن مكة كانت منذ وجدت : موطن التوحيد، وأن الذين عمروها كانوا من ذرية إبراهيم - ومع ذلك فقد تبرأ إبراهيم ممن خرج على فكرة التوحيد - وإن كان قد طلب له المغفرة والهداية ﴿ **فمن تبعنى فإنه منى - ومن عصانى فإنك غفور رحيم** ﴾ سورة إبراهيم آية ٣٦.

وأما نتيجة الدعاء فهى الاستجابة، وتحقيق ما طلبه إبراهيم من ربّه - ويأتى ذكر ذلك فى القرآن الكريم صريحا، وفى أكثرَ من موضع : قال تعالى : ﴿ **أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا، ويتخطف الناس من حولهم** ﴾ سورة العنكبوت آية ٦٧ - ﴿ **أو لم نمكن لهم حرما آمنا، يجبى إليه ثمرات كل شيء - رزقا من لدنا، ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾سورة القصص آية ٥٧.

فمكة حرمٌ آمن تجبى إليه الثمرات من بقاع الأرض، والناس من حولها فى خوف ورعب : وصدق الله : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا، وهدى للعالمين - فيه آيات بينات مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمنا** ﴾سورة آل عمران آيات ٩٦ : ٩٧.

والمتأمل فى كتاب الله يجدُ هذا الدعاء قد تكرر مرتين :

فهو فى سورة إبراهيم كما ذكرنا - وهو من قبلُ فى سورة البقرة - قال تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا، وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر** ﴾سورة البقرة آية ١٢٦.

والفرق بين الدعاءين : أن إبراهيم فى سورة البقرة يقول عن مكة ﴿ **رب اجعل هذا بلدا آمنا** ﴾ بصيغة التنكير - وفى سورة إبراهيم يقول : ﴿ **رب اجعل هذا البلد آمنا** ﴾سورة إبراهيم آية ٣٥ - بصيغة التعريف - والسبب أن دعوة إبراهيم التى ذكرت فى سورة البقرة كانت قبل بناء البيت، ولهذا طلب إبراهيم من ربه أن يجعلها بلدا آمنا، وأن يرزق أهلها من الثمرات ﴿ **من آمن منهم بالله واليوم الآخر** ﴾ - فلما أقيم البناء ونظر إليه إبراهيم كان من الطبيعى أن يشير إليه وهو يدعو فيقول : ﴿ **رب اجعل هذا البلد آمنا** ﴾ - ثم يطلب لذريته أن تكون من أهل التوحيد فى بلد التوحيد.

وبعد : فهذه دعوة نبى امتلأ قلبه بالرحمة - فماذا نتعلم منها؟ نستطيع أن نتعلم منها الكثير يا أخى المسلم :

- نتعلم أن تكرار الدعاء أمر مستحب، فإن كثرة الرجاء تدل على شدة الثقة بالله، وعدم اليأس من رحمته - ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون - والدعاء لون من العبادة.

- ونتعلم أن الإنسان حين يدعو يجب أن يعم بدعوته كل إخوته المؤمنين:

هذا إبراهيم دعا لنفسه، ودعا لوالديه -ودعا لذريته من بعده - ودعا للمؤمنين جميعا :

فهو يقول : ﴿ **ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين** ﴾سورة إبراهيم آية ٤١ .

ويقول : ﴿ **رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى** ﴾سورة إبراهيم آية ٤٠ .

وحين منحه الله نعمتّه وكلمته، وجعله للناس إماما - طلب الإمامة لذريته - قال تعـــالى : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن - قال إنى جاعلك للناس إماما - قال ومن ذريتى ؟** ﴾سورة البقرة آية ١٢٤.

ولا ننسى أنه هنا فى دعوته التى تحدثنا عنها كان يدعو للبلد الحرام قبل أن يدعو لنفسه، ولم ينس مع ذلك ذريته : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام** ﴾ سورة إبراهيم آية ٣٥.

وهذه دعوة جديدة - وردت فى قول الله تعالى : ﴿ **ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم - ربنا ليقيموا الصلاة - فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم - وارزقهم من الثمرات - لعلهم يشكرون** ﴾ سورة إبراهيم آية ٣٧ - وهذه - دعوة نبى - ودعوة أب.

فيها من دلائل النبوة وأسرارها - وفيها من ملامح الأبوة وحنانها :

- أمّا دلائل النبوة **فأولها** : ذكر البيت الحرام. فالذرية التى تركها إبراهيم إنّما تركها فى جوار بيت الله. لأنه علم - أن هذا البيت سيكون مهوى الأفئدة - وموطن الأمان والسلام. **وثانيها** أن إبراهيم ترك الذرية فى جوار البيت - رجاء أن يعمروا هذا البيت بالعبادة، وأن يقيموا الصلاة دليل الطاعة والإيمان.

وكان ما أراده النبىّ بدعوته - فمن ذريته الطاهرة جاء محمد بن عبدالله فحقق للبيت ما أراده ربّ البيت من أمان وطهارة.

- وأما ملامح الأبوة فتظهر فى أمرين : **أولهما** أن الأب يشير إلى هذه الذرية الضعيفة التى أسكنها فى واد غير ذى زرع استجابة لدواع بشرية : ودوافع أرادتها السماء امتحانا لهذا الأب المؤمن الصابر، وتعليما لغيره من الآباء والأبناء، **وثانيهما** : أنه يطلب لهذه الذرية رفقاء - يُؤْنسون الوِحدة، ويُذهبون الوَحشة - ويطلب لهم رزقا يحفظ عليهم نعمة الحياة.

وشخصية النبى هى شخصية الأب - فلا فرق بين ملامح الشخصيتين، ولا تعارض إذن بين جوانب الدعوة - إنما هى دعوة - ترجو لهذه الذرية خيرى الدنيا والآخرة - فإذا كان خيرُ الدنيا رجاء أب يحنو على أولاده - وكان خيرُ الآخرة رجاءَ نبىّ يطلب الخير لأتباعه - فإن النتيجة فى الحالين واحدة - الخيرُ لهذه الذرية التى حملت للدنيا رسالات النبوات، ثم برزت فى آخر الزمان فكانت خير أمةٍ أخرجت للناس ببركة هذه الدعوة.

وليس عجيبا أن يهتم إبراهيم بمكة - والبيت الحرام - فقد ترك هناك ذريته - وترك عقيدته ورسالته - لقد كانت مكة مدينة إبراهيم - قال صلوات الله وسلامه عليه «اللهم إن إبراهيم حرم مكة حراما - وإنى حرمت المدينة حراما».

ونعود إلى الآية فنجد الكثير من أسرار الإعجاز القرآنى :

أ - هذا إبراهيم يمهد لرجائه، فهو يتقدم إلى ربّه بأسباب الطلب قبل الطلب - يقول فى ضراعة : ياربّ - لقد أسكنت بعض ذريتى فى هذا الوادى - إنهم جزء منى - والوادى صحراوى مجدب - وعند بيتك الحرام تركتهم - فبحق هذا كله هب لهم رفقاء حياة، وهب لهم رزقا من ثمار الأرض - ومن إبراهيم نتعلم أن نقدم بين يدى الدعاء ما يزكيه عند الله.

٢ - وإبراهيم زيادة فى الطاعة والضراعة يكرر النداء العذب (ربّنا) فهو يقوله فى أول الكلام وفى أثنائه أكثر من مرة - ﴿ **ربنا إنى أسكنت - ربنا ليقيموا الصلاة - ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن - ربنا اغفر لى ولوالدى** ﴾.

٣ - وفى هذه الآية وردت كلمة (مِنْ) ثلاثَ مرات - ﴿ **ربنا إنى أسكنت من ذريتى** ﴾ ﴿ **فاجعل أفئدة من الناس** ﴾ - ﴿ **وارزقهم من الثمرات** ﴾.

- أما قوله ﴿ **أسكنت من ذريتى** ﴾ فبيان للواقع، لأنه ترك إسماعيل وحده من الذرية مع أمه هاجر.

- وأما قوله ﴿فاجعل أفئدة من الناس﴾ فلتكون دعوته خاصة بقوم معينين - هم المسلمون من بعده، ولو قال «فاجعل أفئدة الناس» لا زدحم عليهم كما قال ابن عباس اليهود والنصارى - ولكنه حين قال «من الناس» أصبح ذلك خاصّاً بالمسلمين.

- وأما قوله ﴿ **وارزقهم من الثمرات** ﴾ فدليل قناعة، واكتفاءٍ باليسير القليل من الثمارِ - وما كان لنبى أن يطمع فى كل ثمرات الأرض لتكون رزق أولاده.

ومن بدائع التعبير القرآنى قول إبراهيم «فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم» فإنه جعل الإقامة معهم نتيجة رغبة قلبية - وهوى نفسى حتى لا يقيم معهم كاره - وكم من راغب فى جوار البيت إلى أن يشاء الله - يترك أهله وثروته، ويسعى ليقيم فى الحمى الآمن، وفؤاده سّرهواه.

وياربّ ما أعظم كتابَك، وما أروع ما فيه من أسرار وعبر

فاجعلنا ياربّ أهلا لأن نفهم، ولأن نعتبر.

اللهم آمين.

عرفات - يوم البلاغ

الحمد لله الذى جعل بيته العتيق مثابة للناس وأمنا وجعل الحج إليه فريضة العمر وتمام الأمر والطريق إلى مغفرة الذنوب جميعها، بل إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة وأشهد أن لا إله إلا الله قال لخليله إبراهيم : ياإبراهيم أذن فى الناس بالحج قال إبراهيم وما يبلغ صوتى يارب العزة فقال له مولانا تبارك وتعالى يا إبراهيم عليك الأذان وعلينا الإبلاغ فصعد إبراهيم على جبل أبى قبيس ونادى ياأيها الناس إن ربكم بنى بيتا فحجوه فقالت الأرواح فى عالمها الأمين لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، وأشهد أن سيدنا ونبيناً محمداً رسول الله يقول «الحجاج والعمار وفد الله ، إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم»

أما بعد : فياأيها المؤمنون:

عرفات : هو يوم الإسلام - فيه نلتقى، وفيه نجتمع، وليتنا ندرك لماذا نلتقى ونجتمع كنا نلتقى لقاء الأشقاء الأحباء، فأصبحنا نلتقى لقاء الغرباء.

كنا نلتقى والقلوب متآلفة، والنفوس صافية، فعدنا نلتقى والجمع شتيت، والقريب بعيد. لقد جمعنا الإسلام بوحدة الفكر والمشاعر، ووحدة اللباس والمظاهر، ثم فرقتنا الأيام باختلاف الرأى والهوى، وابتعاد المصلحة والغاية، ولم يبق لنا - وا أسفاه - إلا وحدة اللباس والمظاهر.

عرفات : هو يوم الأمة الإسلامية، يوم الخلود للدعوة المحمدية، يوم يجب أن تتجدد فيه الحياة، وتعود كما كانت حين نزلت رسالة الله، فملأت الأرض عدلا وحقا، وجعلت العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

عرفات : هو يوم الأمة الإسلامية. فيه : تعود إلى نفسها، وتثوب إلى رشدها، وتلتقى بمجدها وتاريخها، ولعلها أن تلتقى بغدها ومستقبلها، لتصبح من جديد خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله.

عرفات : هو يوم البلاغ، وقف فيه محمد بن عبدالله على صخرات الرحمة، وخاطب الجموع والتاريخ فوعظ ونصح، وبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ورضى الله عنه ، وأتم عليه نعمته، ورضى هو عن نفسه : ألاهل بلغت ؟ اللهم فاشهد.

عرفات : هو يوم التشريع - فيه وضع محمد المبادئ والقواعد، وفيه وضح الحدود والمعالم، وفيه أعطى كل ذى حق حقه :

- دماء المسلمين وأموالهم حرام حتى يلقوا ربهم.

- كل ربا موضوع، وللناس رؤوس أموالهم لا يظلمون ولا يُظلمون.

- استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا.

- تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا - كتاب الله وسنة نبيه.

صدقت يا رسول الله - لقد بلغت - وكل مسلم يحمل اليوم مسؤولية الوفاء.

عرفات : هو يوم الشهادة، فيه قال محمد والجموع تسمع وتشهد، والتاريخ يعى ويحفظ : «اسمعوا قولى واعقلوه. تعلمُن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم - اللهم هل بلغت؟ وتجيب الجموع والتاريخ يشهد : اللهم نعم - ويرد الرسول الأمين : اللهم فاشهد.

عرفات : هو يوم الوداع - جمع فيه محمد أصحابه كما يجمع الأب عند الفراق أبناءه، فوعظ ونصح، ووصى وقال : «إنى لا أدرى، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا»، فكان أبلغ مودع، وأصدق ناصح - ويومها : سالت الدموع، وتمزقت الضلوع، وفهم الصِّديق أنه الوداع، وكان ما أراده الله.

ومضى الزمن، والمسلمون يزحفون فى كل عام إلى عرفات، يستعيدون التاريخ، ويتطلعون إلى المستقبل، وإنه لموقف مشهود يتجدد كل يوم على عرفات.

على عرفات : يفنى الزمان، يتلاشى فى ملكوت الله، يلتقى أوله بآخره، وتعود نهايته إلى بدايته، وتتجمع الأمة المحمدية كلها فى وجود واحد، فى لحظة واحدة ويتصل كل مسلم على ظهر الأرض بهذا المكان، لا يفرق بينهم ليل، ولا يباعد بينهم نهار - لقد التقى الجديد بالقديم، وعاد الأبناء إلى الآباء، وارتفعت أصوات الملبين إلى السماء، لبيك اللهم لبيك.

على عرفات : يذوب المكان، تختفى سجوره وسهوله، عليه تلتقى الوفود والحشود، وإليه تهوى الأفئدة والقلوب، وفيه يتسع المكان، ويمتد إلى اليمين واليسار، ويصبح ملء الأرض حتى تضيق عنه الأرض فيلتقى بالسماء.

على عرفات : الجموع يظللها الغمام، ويلفها الرضوان، ويعلو هاماتها نور الإيمان، فى كل قلب لوعة، وفى كل عين دمعة - الأكف ضارعة، والدعوات إلى الله صاعدة، والجوارح ذابت فى فيض من جلال - امتزج الغبار بالضياء، واختلط البياض بالسواد، واتحدت الأرواح بالأجساد، وتغلبت الشفافية على كل جماد، فلا ترى إلا نوراً ينبع من نور. هنا وهناك على الجبل الحبيب - الناس يفترشون الأرض، والرقعة الفسيحة تنبسط فى الطول والعرض،، ذاك شيخ فان يدب على عصاه، وهذا فتى غض يشرق بالغناء ومحياه وهذه عجوز ترفع يداً مهزولة إلى السماء، وتلك صبية ناضرة يفيض وجهها بالضياء، وفوق الجبل ترتفع تراتيل الضارعين، وزفرات الباكين، ودعوات الوجلين الخاشعين. لقد أتعبهم السرى، وأضناهم السهر، فلا ترى - حيث رأيت - إلا ملائكة فى ثياب بشر.

على عرفات : تعود الذكريات - تتجسم الرؤى . هنا وقف محمد ولبى - وهنا دعا محمد وصلى. وهناك بلغ وودع. وعلى هذه الصخرات خطت منه الأقدام. ألا ما أطيب العبير حين يفوح من وراء الزمان والمكان، ألا ما أجمل الذكرى حين تطوف بالوديان.

وفى مساء عرفات، ومع الشمس الزاحفة نحو الغروب، تزحف الجموع إلى منى، وتترك وراءها الجبل الحبيب لقد هدأت الأصوات - وتلاشت الدعوات - وسكتت الزفرات - وجفت العبرات. خلا الجبل من زواره، وعاد إلى صمته وسكونه، ولفت رماله أثواب الليل بجلال الرهبة والخشوع.

ولكن - أحقا سكت الجبل ؟ أنصت يا أخى، تسمع من جديد - إن الجبل يهتز - إن الرمال تتحرك، إن الأصوات لازالت هناك - إنها لم تسكت، ولن تسكت أبدا - ستبقى، وستسمع الدنيا دائما هذا الدعاء : لبيك اللهم لبيك - لبيك لا شريك لك لبيك - إن الحمد والنعمة لك والملك - لا شريك لك.

إنه صوت الإسلام - فى يوم البلاغ.

أسأل الله لكم حجا مبروراً وذنبا مغفوراً وسعيا مشكوراً.

خير الزاد

الحمد لله الذى كان بعباده خبيراً بصيراً وتبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذَّكر أو أراد شكوراً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خيرة خلقه وحبيبه اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد..

علمتنا الحياة - فيما تُعلم - أننا على سفر - سفر طويل شاق - بدايته صرخة وليد، ونهايته نعيم دائم أو عذاب مقيم - وعرفنا - فيما عرفنا - من التربية الإسلامية أننا نمضى على طريق الآخرة، وهو طريق محفوف بالمكاره والصعاب - والعاقل من أعدّ العُدة، ورسم الخطة، وحدد المنهج - وتزود فى رحلته بخير الزاد.

وخير الزاد فى سفرنا هذا هو التقوى، والحكيم العليم يقول : ﴿**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى**﴾ سورة البقرة آية ١٩٧.

نعم - خيرُ زاد نُعده فى دنيانا لأخرانا هو تقوى الله - لأن التقوى هى جماع الفضائل، وخلاصة الأخلاق، وغاية التربية، والهدف الأسمى فى حياة المؤمن إذا صدق إيمانه.

ولقد تحدث القرآن الكريم عن (التقوى) فى أكثر من موضع فمنحها ما تشير إليه من مكانة، وجعلها نهاية المطاف - وإذا كانت هذه الآية قد نزلت فى قوم كانوا يفدون إلى مكة لأداء فريضة الحج بدون زاد ويقولون (نحن المتوكلون) فإذا ما قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله قوله هذا (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) ليُبين لهم أن التزود لا ينافى التوكل، بل هو عدة المتوكل وسنده ۰ إذا كان هذا هو سبب نزول الآية فإن المعنى عام يشمل كل زاد وكل رحلة، بل ويقصد إلى سفر الآخرة بدون شك بدليل قوله تعالى (فإن خير الزاد التقوى) - والتقوى هى زاد الآخرة.

ونحن نقرأ قول الله تعالى : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم، وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾ سورة آل عمران آية ١٣٣ - فنعرف أن الله يدعونا - ونحن فى طريق الآخرة - أن نسارع إلى مغفرته وجناته - ثم يبين لنا أن المغفرة والجنة الواسعة العريضة لا يمكن الوصول إليها إلا بالتقوى فإذا أردناهما فلنكن من هؤلاء المتقين.

ولكن. كيف نصل إلى التقوى؟ الأمر شاق وصعب، ومن أراد أن يسلكه الله فى صفوف المتقين فإن عليه أن يبذل الجهد المضاعف، وأن يتخذ من الأسباب والأعمال ما يحقق له هذه الغاية البعيدة. وها هى ذى أيام فضيلة. قد أظلتنا، وهى فرصتنا لنتخذ هذه الأسباب عسى الله أن يجعلنا من أصفيائه المتقين الذين وصفهم فى بقية الآيات السابقة فقال : ﴿ **الذين ينفقون فى السراء والضراء - والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين، والذين إذا فعلوا فاحشة، أو ظلموا أنفسهم، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا، وهم يعلمون** ﴾ سورة آل عمران آية ١٣٤ :١٣٥.

وفى آيات أخرى من نفس سورة آل عمران يصف الله المتقين فيقول : ﴿ **الذين يقولون ربنا إننا آمنا، فاغفر لنا ذنوبنا، وقنا عذاب النار، الصابرين، والصادقين، والقانتين، والمنفقين، والمستغفرين بالأسحار** ﴾ سورة آل عمران آية ١٦ : ١٧.

جوانب متعددة تتناول العمل، وتتناول العقيدة، وتتناول الوجدان - وكلها تحقق هذه الغاية الكبرى - التقوى وزاد التقوى لاينفع الإنسان فى أخراه فقط كما قد يتبادر إلى الأذهان فإنه زاد ينفع صاحبه فى أثناء الطريق وفى غايته ونهايته - ينفعه فى دنياه وفى أخراه، ويكفى دليلا على نفعه فى الدنيا قول الله تعالى : ﴿ **واتقوا الله، ويعلمكم الله** ﴾ سورة البقرة ٢٨٢ - فالتقوى تمنحك فى الدنيا خير ما فيها - تمنحك العلمَ بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى - العلم بكل صوره، العلم بمفهومه الدينى وبمفهومه الدنيوىّ، العلمَ الذى تفوق علينا فيه الغربيون، كل ذلك نستطيع أن نحققه بالتقوى.

والتقوى تحقق للإنسان فى دنياه الأمن والنجاة، وتعطيه الرزق الواسع الكثير.

أما الأمن والنجاة فلأن الله يقول : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا** ﴾ سورة الطلاق آية ٣- وأما الرزق الواسع فلأنه يقول بعد ذلك : ﴿ **ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ سورة الطلاق آية ٣.

والتقوى بعد ذلك تكفّر الذنب، وتعظم الأجر، وصدق الله العظيم : ﴿ **ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا** ﴾.

وصدق الله : ﴿ **للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار - خالدين فيها، وأزواج مطهرة، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد** ﴾ سورة آل عمران آية ١٥.

أقول ما تسمعون وأستغفر الله العظيم لى ولكم ولجميع المسلمين فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الجهاد فريضة

الحمد لله رب العالمين يحق الحق وهو خير الفاصلين

وأشهد أن لا إله إلا الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله إمام المجاهدين ورحمة الله إلى الناس أجمعين..

وبعد ..

أيها المسلمون..

الجهاد فريضة

حقيقةٌ لا شك فيها - وأمامنا مَصْدَر التشريع الإسلامى أمامنا القرآن الكريم، وأمامنا الحديثُ الشريف - وفيهما نقرأ الدليل بعد الدليل - أما فى القرآن فنقرأ :

١ - فى سورة الحج يقول تبارك وتعالى : ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا - وإن الله على نصرهم لقدير**﴾ سورة الحج آية ٣٩ - فهو إذن بالقتال فى أول الآية - لكنه فى نهايتها تكليف صريح - فإن الله قادر على نصرهم بدون قتال أو حرب، ولكنه يعطيهم شرف القتال ليعلِّمهَم معنى العزة والكرامة، وليمنحَهم شرفَ الاشتراك فى نُصرة دينهم.

٢ - وفى سورة البقرة نقرأ قوله تعالى : ﴿**وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا - إن الله لا يحب المعتدين**﴾ سورة البقرة آية ١٩٠ - فهو أمر بالقتال فى سبيل الله - مع وضع للحدود والقوانين، واستكمال لمواد القانون عند تشريعه.

٣ - وفى نفس السورة نقرأ الأمر الصريح : ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم - وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ سورة البقرة آية ٢١٦ - فالقتال فريضة مكتوبة، كتبها الله على كل قادر دون تفريق أو تخصيص - وهذا تعبير لا يحتاج إلى تأويل أو تفسير.

٤ - وفى سورة النساء نقرأ هذه الآيات : يقول تعالى :

أ - ﴿**فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة - ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما**﴾ سورة النساء آية ٧٤ - فهو أمر بالقتال وبيان للأجر سواء قتل المؤمن أو انتصر ويقول :

ب - ﴿**وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما**﴾ سورة النساء آية ٩٥ - وهو بيان لفضل المجاهدين على القاعدين المتخلفين. ويقول :

جـ - ﴿**فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك - وحرض المؤمنين على القتال**﴾سورة النساء آية ٨٤.

فالقتال فريضة على الرسول - وعلى المؤمنين - وعلى الرسول أن يحث المؤمنين عليه بكل وسيلة.

٥ - وفى سورة الصف نقرأ : ﴿**يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم - تؤمنون بالله ورسوله - وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم**﴾ سورة الصف آيات ١٠ : ١١ - فتجارة المؤمن الرابحة تعتمد على قاعدتين هما الإيمان الصادق، والجهاد القاصد - وكلٌّ فى سبيل الله.

وأما فى حديث الرسول فقد روى :

أ - وقف الرسول يوم بدر يُسوى الصفوفَ فقال لأصحابه : «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض».

ب- وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : يا أبا سعيد : مَنْ رضَى بالله ربّا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولاً ونبيا - وجبت له الجنة - قال : فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدّها علىّ يارسول الله ، فَفَعل، ثم قال رسول الله ﷺ : وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة ما بين كُلِّ درجتين كما بين السماء والأرض». قال : ما هى يارسول الله ؟ قال: الجهاد فى سبيل الله». رواه مسلم.

جـ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «تضمّن اللهُ لمن خرج فى سبيله، لايُخرجه إلا جهادًا فى سبيلى، وإيماناً بى، وتصديقًا بُرسُلى فهُوَ على ضامن

أن أُدخله الجَنَّةَ، أو أرجعَهُ إلى مسكنه الذى خرج منه نائلاً مَا نال من أجر أو غنيمة - والذى نَفسُ محمد بيده ما مِن كَلْمٍ يُكْلَمُ فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلم، لونُه لونُ دم، وريحُه مسكٌ - والذى نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدتُ خلافَ سريَّةٍ تغزو فى سبيل الله أبدا - ولكن لا أجد سَعَةً فأحملهم ، ولا يجدون سَعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى والذى نفس محمد بيده لوَددْتُ أنِّى أغزو فى سبيل الله فأقْتَلُ، ثم أغزو وأقتل، ثم أغزو فأقتل». صدق رسول الله.

أيها الأخ الكريم.

هذه آيات من كتاب الله، وأحاديث من بيان رسول الله وكلها تعطيك فرضيّة القتال ووجوبَهُ، وتوضح لنا معنى الواجب فى سبيل الله، وفى سبيل العقيدة والمبدأ، وفى سبيل الوطن والشرف.

فإذا نحن عدنا إلى واقعنا اليوم وسألنا أنفسنا هل نحن مسلمون حقا؟ وهل نصدر فى أفعالنا وأقوالنا عن عقيدة تؤمن بفرضية القتال ووجوبه؟ إذا نحن عدنا إلى أنفسنا وسألنا تحيَّر الجواب على ألسنتنا - وجالت فى العيون دمعات، وتحركت فى القلوب زفرات. ولكنها واأسفاه لا تمنحنا شرف الرجولة ولا شرف الإسلام.

إنما ننال هذا الشرف : حينَ تجف الدموع، وحين تقف الزفرات - وحين تنطلق الجموع تحت : راية الحق الإسلامى تعصف بفلول الأمم، وتدمّر صرح اليهودية الزائف، وتستعيد للإسلام عزته. حقق الله الرجاء.

ونسأل الله تعالى أن ينصر الإسلام وأن يعز المسلمين.

والحمد لله رب العالمين.

ثواب الشهداء

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين

وأشهد أن لا إله إلا الله - لايخيب عنده الحق ولا يُسانَد الباطل.

وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعد ..

فيا أيها الموحدون..

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون. وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن - ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به - وذلك هو الفوز العظيم** ﴾سورة التوبة آية ١١١.

أيها الأخ الكريم - هذا عقد بيع وشراء - البائع فيه هم المؤمنون - والمشترى هو الله تعالى اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وأعطاهم الجنة والفوز العظيم ثمنا عزيزا غاليا.

قال الحسن البصرى : بايَعهم والله فأغلى الثمن.

والحق أنه عقد عجيب - ففى دنيا الناس يبيع الفرد منا ما يملكه، ويشترى ما لا يملكه، أما هنا : فالناس لا يملكون شيئا. والله سبحانه وتعالى يملك كل شىء، يملك الأنفس والأموال، ويملك الجنة والنار - ولكنه بعزة الكريم وكرم العزيز يشترى ما يملك، ويدفع الثمن الغالى، وزيادة فى التدليل على فضله وكرمه كتب سبحانه على نفسه هذا العقد، وجعله وعداً يستحق الوفاء، وسجله فى كتبه الخالدة : التوراة كتاب موسى - والإنجيل كتاب عيسى، والقرآن كتاب محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم يؤكد الله هذا الوعد حين يسوق هذا الاستفهام المنفى فيقول : ﴿ **ومن أوفى بعهده من الله؟** ﴾ سورة التوبة آية ١١١ - بمعنى أنه ليس هناك من يوفى بوعده كما يوفى الله،

لأن مقام الربوبية والقدرة هو مقام الوفاء، ولأنه أراد ذلك وإرادتُه غير قابلة للتخلف، ولأنه وعَدَ وعْدَ القادر، وجلالُ القدرة يضمن تحقيق هذا الوعْد - وصدق الله : ﴿ **ومن أصدق من الله حديثا** ﴾سورة النساء آية ٨٧ - ﴿ **ومن أصدق من الله قيلا** ﴾ سورة النساء آية ١٢٢- ﴿ **إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾سورة آل عمران آية ٩.

ونتيجةً لكل هذه المعانى يحق للمؤمنين أن يفرحوا، وأن يستبشروا، وأن ينعموا بهذه المنة الإلهية التى عزت على النظير والمثيل، ﴿ **فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به - وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ سورة التوبة آية ١١١ - وما قدمناه فى هذه الآية الكريمة بشرى يسوقها القرآن الكريم فيما ساق من بشريات للشهداء ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ **يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون** ﴾ سورة التوبة آية ١١١ - وبشريات القرآن للشهداء من المؤمنين كثيرة متعددة:

منها أنهم ضمنوا الجنة وهم فى الدنيا بدليل هذه الآية.

ومنها أنهم يُمَيـزَّوُن يوم القيامة بنور يزيد على الأجر المألوف للمؤمنين - اقرأ معى قول الله تعالى : ﴿ **والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم** ﴾ سورة الحديد آية ١٩ - ولعلّ من فضل الله أنه يذكر لهم هذه الميزة من النور فى سورة الحديد بعد أن تحدث عن أنوار تسعى بين يدى المؤمنين/ لنَفهم أنه نور جديد، وذلك حين قال : ﴿ **يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم - بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم** ﴾سورة الحديد آية ١٢.

ومن بشريات الشهداء، أنهم رفقاء الأنبياء فى الجنة، ينزلون معهم أعلى الدرجات، ويتطلع إليهم غيرهم من المؤمنين، واقرأ معى أيها الأخ الكريم قول الله تعالى فى سورة النساء : ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا - ذلك الفضل من الله.** ﴾سورة النساء آية ٦٩.

ومن بشرياتهم أنهم أحياء عند ربهم، قد عصمهم الله من الخوف، وأمّنهم من الحزن، ومد لهم أسباب الرجاء بشرى تتبع بشرى، وفرحة تتلو فرحة، واستمع معى إلى قوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا - بل أحياء عند ربهم يرزقون - فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا**

خوف عليهم ولا هم يحزنون - يستبشرون بنعمة من الله وفضل - وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾سورة آل عمران آيات١٦٩ :١٧١.

وبعد ..

فمهما حاولنا أن نصور ثواب الشهداء عند الله فلن نبلغ من روعة هذه الآيات شيئا - وسنقف موقف العجز لا نملك من البيان ما يساعدنا ويُسعدنا - فنعود إلى حديث الصادق الأمين، الذى أعطى جوامع الكلم، ونكتفى بهذا الحديث:

روى عن جابر بن عبدالله قال : نظر إلىَّ رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : «يا جابر - مالى أراك مهتما؟» قلت يارسول الله : استُشهد أبى، وترك دَيْنًا وعيالا. قال : فقال : «ألا أخبرك - ما كلّم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب - وإنه كلّم أباك كفاحا «أى مواجهة» . قال : سلنى أُعْطِكَ قال أسألك أن أُرد إلى الدنيا فأُقتل فيك ثانية فقال الربّ عزّ وجَلّ : قد سبق منى القول (إنهم إليها لا يرجعون) قال : أي ربٍّ فأبلغ مَنْ ورائى فأنزل الله : ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا - بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾سورة آل عمران آية ١٦٩.

وأقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

أسباب النصر

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد :

فيا أيها الأحباب..

هو سؤال - يدور فى الأذهان، ويملأ كل وجدان - متى يكون نصر الله؟ وإلى متى تظل الأمة الإسلامية فى وضعها هذا المهين؟

سؤال يدور بين الناس فرادى وجماعات - وفكرة تَخْطِر على البال كلما تلاحقت أحداث الحياة. وأخشى ما يخشاه المسلم الغيور على دينه أن يرتبط بالإسلام فى أذهان الناس معنى التخلف والضعف فيقال : هؤلاء هم المسلمون - ضلت بهم السبيل، وحار أمامهم الدليل، وأصبحوا نهبا موزعا بين أظافر الشعوب وأنياب الوحوش - طمع فيهم من لا يدفع عن نفسه، ورغب فى أرضهم من كان بالأمس حليف هوان، ورفيق ذلة.

وهذا خطأ فى التفكير يتبعه خطأ فى التعبير - «انتصر اليهود على العرب لأنهم مسلمون». خطأ فى التعبير نتيجة لخطأ فى التفكير، والأولى أن يقال : انتصر اليهود على العرب لأنهم تحللوا من شريعة الإسلام. وهذه هى الحقيقة المرة - نحن مسلمون بالوراثة، مسلمون بالأمانى - أما جوهر الإسلام فنحن أبعد الناس عنه، ولو كنا مسلمين حقا لكان لنا النصر ولكانت لنا العزة، وصدَق اللهُ ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ سورة المنافقون آية ٨.

وعودوا معى إلى التاريخ. لم ترتفع راية العزة لأمة بمثل ما ارتفعت راية العزة الإسلامية. ولم يكن النصر حليف دين ودعوة بمثل ما كان حليف الدعوة المحمدية يوم خرجت من جزيرة العرب، وشملت أقطار الأرض من شرق ومن غرب فى أروع فتح

عرفه التاريخ، جاء النصر والفتح - ودخل الناس فى دين الله أفواجا - ولم يكن ذلك وليد صدفة وإنما كان وليد أسباب يحسن بنا أن نشير إليها فى إيجاز - **أول هـــذه الأسباب** - إيمان بالله وبالدعوة ليس وراءه إيمان - ملأ كل قلب، وسيطر على كل نفس، ولم يقف عند حدود الأمانى تحقيقا لقول الرسول : «ليس الإيمان بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلب وصدّقه العمل». **وثانى هذه الأسباب** - رغبة فى الموت ترتفع فوق الخوف، وفوق طبيعة البشر - وما أعجب أمر هذا الصحابى الذى فاته أن يشترك فى غزوة بدر مع الرسول فشق عليه ذلك، وقال : إن أرانى الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرانى الله ما أصنع - فلما كان يوم أحد اندفع إلى المعركة وهو يقول : واهًا لريح الجنة أجدُه دون أحد وقاتل حتى قُتل، ووُجد فى جسده بضعُ وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية، حتى قالت أخته (الرّبيّعُ بنت النضر) فما عرفت أخى إلا ببنانه ونزل قول الله ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا** ﴾ سورة الأحزاب آية ٢٣ - بمثل هذه الرغبة فى الموت يُطعن الرجل ويُضرب ثمانين مرة، ولا يبقى فى جسمه موضع سليم تتعرف منه عليه أختهُ إلا أطراف أصابعه - وبمثل هذه الرغبة يكون النصر والفتح المبين.

وثالث الأســبــاب - أن المسلمين أعدوا العدة لعدوهم - لم ينتظروا بدء القتال ليستعدوا - بل كانوا دائما تحت ظلال السيوف لأن الرسول العظيم قال لهم : «الجنة تحت ظلال السيوف»، ولأن ربهم قال لهم : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوَّ الله وعدوكم** ﴾سورة الأنفال آية ٦٠.

ورابع الأسباب - أنهم كانوا أمة واحدة، وكيانا واحدا، ورأيا واحدا- ينزل كبيرهم على مشورة صغيرهم، وتجمعهم كلمة الله ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا، ولا تفرقوا** ﴾سورة آل عمران آية ١٠٣.

وخامس الأسباب - أن أموالهم كلَّها كانت فى سبيل الله - فواحد منهم يجهز جيش العسرة وحده، وثانٍ منهم يحمل كل أمواله ويضعها أمام الرسول فإذا ما سأله الرسول عما ترك لعياله أجاب فى ثقة المؤمن - تركت لهم الله ورسوله - وآخرون لم يجدوا ما

ينفقون فقدموا على الرسول ليساعدهم فلما لم يستطع تولوا وأعينُهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون.

وسـادس الأسـبـاب تضحية بالنفس، وإيثار يدفع ثلاثة من الجرحى إلى الموت على ظمأ- لأن كلَّ واحد منهم آثر أن يُقَدمْ الماء لأخيه قبله.

ونقف - فلا نذكر سابعا وثامنا ومائة من الأسباب لأنها كلَّها ترجع إلى مبدأ واحد هو : «نصرة الله».

لقد نصروا الله، ونصروا دين الله فنصرهم الله - وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

ونسأل الله النصر على الأعداء

- اللهم آمين والحمد لله رب العالمين.

اليهود كما يصورهم القرآن

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تنزه عن النقص والقصور وخلق الإنسان فأبدع خلقه، وهداه فأحسن هديه وأشهد أن محمدا عبده ورسوله خير نبى لخير أمة أخرجت للناس بلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد فى الله حق جهاده.

أما بعد ...

فيا أيها الإخوة المسلمون

اليهود أشد الناس عداوة للمسلمين - هذه حقيقة لا شك فيها : ترويها أحداث التاريخ، ويؤكدها الواقع المرير، ويصورها القرآن الكريم فى قوله تبارك وتعالى : ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا، وأنهم لا يستكبرون**﴾. سورة المائدة آيه ٨٢.

والآية الكريمة تعرض علينا الصورة فى بلاغة وقوة، وفى وضوح ودقة، فإذا ما تأملنا الألفاظ والمعانى وصلنا إلى كثير من ملامح الصورة :

فالعداوة مذكورة فى تعبير مباشر، وبلفظ صريح - وهى عداوة صادرة من جانب واحد، هو الجانب اليهودى، ولا تقابلها عداوة من جانب المسلمين، وشأن العداوات فى الدنيا أن تكون نابعة من خلاف بين طرفين، وأن تقوم على التناحر والتصارع. أما هذه العداوة فنابعة من قلوب حاقدة، وتهدف دائما إلى التدمير حتى ولو قوبلت بالصفح والصبر. عداوة شربت سم الضغينة والكراهية، وعاشت على المقت والحسد والشر.

والآية الكريمة تصف هذه العداوة بالشدة والمبالغة، فهى أشد الأنواع، وأصحابها أشد الناس مقتا وكرها للمسلمين، هكذا - أشد الناس بدون استثناء.

والتعبير القرآنى يسوى بين عداوة اليهود وعداوة المشركين من عبدة الأوثان - بل لعله أشار إلى أن عداوتهم أشد حتى من عداوة المشركين حين قدمهم فى الذكر على المشركين - وفى هذا نوع من التوبيخ لهؤلاء الأعداء، ودليل على أن عداوتهم عداوة غير شريفة، فهم فى الأصل أهل كتاب، يجمعهم مع المسلمين نبع واحد من ينابيع الإيمان هو وحى السماء واليهود يعرفون فى كتبهم محمدا باسمه وصفته ﴿ **ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** ﴾سورة الصف آية ٦ - ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل** ﴾. ويعرفون أنه داعية خير، وسلام، ورحمة، وطاعة لله ﴿ **يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم، والأغلال التى كانت عليهم** ﴾. سورة الأعراف آيه ١٥٧. ومع هذا كله فقد فاقوا فى عداوتهم عباد الحجر، فكانوا بهذا أبلغ الناس نذالة وضعة، وأبعد الناس عن الشرف والعفة/ قد يعذر المرء إذا عادى عن جهل، أو عادى عدوه الذى يؤذيه - أما أن يعادى المرء من يعرف فضله وأمانته وصدقه، اما أن يعادى من يحل له الطيبات، ويحرم عليه الخبائث - فهذا دليل على منتهى الفساد فى العقيدة، والإسراف فى الظلم والهوى.

ومن بلاغة التعبير القرآنى أن الآية تؤكد العداوة من أول كلمة بهذه اللام الداخلة على الفعل، وبهذه النون المشددة فى آخر الفعل (لتجدن)، وكلاهما يعطى المعنى قوة، ويسحب هذه القوة على كل كلمة تأتى بعد ذلك فى الآية.

والآية البليغة تشير إلى شئ من أسباب هذه العداوة فى موضعين :

الأول : حين عبرت عن المسلمين بقوله تعالى (للذين آمنوا) فى الوقت الذى عبرت فيه عن اليهود باسمهم الدال على جنسهم - وكأنه لا سبب لهذه العداوة الشديدة إلا هذا الإيمان الذى أصبح صفة للمسلمين - ويالروعة الدلالة، ويالعمق الأسى - حين يكون الإيمان بالله سببا من أسباب العداوة الباغية.

والثانى : أن الله سبحانه وتعالى قارن بين اليهود والنصارى، ووصف النصارى بأنهم أقرب مودة للمسلمين، وبيّن العلة فى ذلك وهى أن بعض النصارى اتصفوا بأربعة أمور

هى : العلم – والعبادة – والتواضع – والاستجابة للحق» وذلك كله مفهوم من قوله ﴿ **ذلك بأن منهم قسيسين، ورهبانا** ﴾. أى علماء وعبادا ﴿ **وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** ﴾. سورة المائدة آيات ٨٢، ٨٣. ويفهم من هذا صراحة أن اليهود لم يتصفوا بشئ من تلك الصفات، فإذا كان النصارى أقرب مودة من المؤمنين لهذه الأسباب، فاليهود أشد الناس عداوة لبعدهم عن هذه الأسباب، وهذه حقيقة معروفة :

– فليس بين اليهود علماء دين يدعون إلى الخير، وأحبارهم دعاة شر ورذيلة.

– وليس بينهم نُسَّاك يعبدون الله عبادة طاعة وتقوى – وإنما ديانتهم عقيدة موروثة، تعطيهم (كما يتصورون) معنى التفوق على الناس، والامتياز المطلق على البشر.

– ولهذا كانت لهم كبرياء مرذولة، وكان لهم غرور وجنون بالعظمة والاستعلاء.

هذه هى عداوة اليهود للمؤمنين كما يصورها القرآن الكريم.

عداوة قاسية عنيفة، نابعة من الحقد الأسود، طافحة بالمقت البغيض، عداوة تأصلت وامتدت جذورها مع التاريخ، ومضت عبر الأجيال.. تغذيها الدسائس والمؤامرات، وتسقيها الحروب بالدماء والخصومات، فتنحرف إلى أساليب بعيدة عن الشرف منذ بدأت مع التاريخ إلى اليوم.

وما نريد من شبابنا ورجالنا إلا أن يعرفوا ليعملوا.

إن معرفة عدونا واجب دينى وقومى – وهى بداية العمل الناجح ووسيلة من وسائل النصر.

ولقد تحدث القرآن الكريم عن عداوة اليهود للمسلمين، وصورها فى أبلغ عبارة حين قال : ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا** ﴾. سورة المائدة آية ٨٢.

وقد عرفنا أنها عداوة ظالمة باغية، شربت من سم الحقد البغيض، وتغذت من داء

الحسد القبيح، وعاشت فى ظلال سوداء من الدسائس والمؤامرت، والتاريخ شاهد على ما نقول، والمحنة التى نكتوى الآن بنارها شاهد آخر على ما نقول :

أمـــا نار المحنة فقد أكلت من شبابنا، ودمرت من مصانعنا وبيوتنا، وشردت من شيوخنا وأطفالنا، ورملت من نسائنا، ومزقت من أسرنا - ولا تزال تحرق القلوب، وتشوى الأكباد فتغنينا عن الحديث والبيان.

وأما التاريخ فيروى من أحداثه الكثير :

يروى التاريخ أن محمدا صلى الله عليه وسلم حين هاجر من مكة إلى المدينة وجد اليهود - كانوا يعرفونه فى كتبهم، وكانوا واثقين من صدقه - لكنه حين وفد عليهم ناصبوه العداء، وأوقدوا نار الفتنة، وقعدوا له فى كل مكان، دبروا له المؤامرات، وناقشوه بالباطل، وجادلوا فى الحق بعدما تبين لهم - ولم يتورعوا عن التخطيط لقتله مرة بعد مرة.

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى النضير يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر لحلف بينهما - فلما كلمهم فى ذلك قالوا : نعم يا أبا القاسم - نعينك على ما أصبت، ثم خلا بعضهم ببعض - فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد إلى جنب جدار من بيوتهم - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه، فتقدم لهذا رجل منهم اسمه عمرو بن جحاش وقال : أنا لذلك. فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال ، لكن رسول الله علم بما أراد القوم فقام ورجع إلى المدينة، ولقى أصحابه فأخبرهم بما أرادت اليهود من الغدر به.

ويروى التاريخ عن صفية بنت حيى بن أخطب، وكان من زعمائهم قالت : كنت أحب ولد أبى إليه، وإلى عمى أبى ياسر - لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذانى دونه - قالت : فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، ونزل قباء، غدا عليه أبى وعمى مغلسين - أى مبكرين فى غلس الصبح - فلم يرجعا حتى كانا مع غروب

الشمس، فأتيا كالّين ساقطين يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع فو الله ما التفت إلى واحد منهما مع ما بهما من الغم، وسمعت عمى أبا ياسر، وهو يقول لأبى : أهو هو ؟ - يعنى أمحمد هو الرسول الذى نعرفه وننتظره حقا؟ - قال أبى : نعم والله - قال : أتعرفه وتثبته؟ قال : نعم - قال فما فى نفسك فيه؟ قال : عداوته والله ما بقيت.

فهذا اليهودى يعرف أن محمدا هو رسول الله حقا، لكنه لا يجد فى نفسه إلا العداوة ما دام حيا، وهو يقسم على ذلك.

ويروى التاريخ عن جماعة من الأنصار قالوا : كنا قد علونا اليهود فى الجاهلية، ونحن أهل شرك، وهم أهل كتاب - وكان اليهود يقولون لنا : إن نبيا سيبعث الآن، نتبعه - قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم - فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به - وعلة كفرهم فى هذه الرواية أنه بعث من العرب ولم يبعث من اليهود.

ويروى التاريخ عن ابن عباس رضى الله عنهما :

أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وحجدوا ماكانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل : يا معشر يهود : اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته - فقال أحد بنى النضير : ما جاءنا بشئ نعرفه، وما هو بالذى كنا نذكره لكم، فأنزل الله فى ذلك من قولهم : ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين** ﴾. سورة البقرة آية ٨٩.

يا أخى فى الله :

هذا جانب من شهادة التاريخ - إذا ذكرناه اليوم مع قصة المحنة الى نعيشها اتضحت لنا جوانب الصورة - صورة العداوة التى ملأت قلوب اليهود، وصبغت علاقاتهم بنا على هذا الزمان الطويل.

فلنقابل العداوة بالعداوة، والحقد بالحقد، والظلم بالظلم، فكتابنا الصادق الحق يقول :

﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ .سورة البقرة ١٩٤ .

واليهود شعب ملعون، لعنه الله فى كتبه المقدسة، ولعنه التاريخ بأحداثه المختلفة ولعنته الشعوب فى كل زمان ومكان. هذا أمر لا يختلف فيه اثنان.

ولقد صور القرآن الكريم هذه اللعنة، ووضح جوهرها وأسبابها ونتائجها فى قوله تعالى : ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم - ذلك بما عصوا، وكانوا يعتدون - كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون، ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم، أن سخط الله عليهم، وفى العذاب هم خالدون، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء، ولكن كثيرا منهم فاسقون** ﴾ . سورة المائدة آيات ٧٨ : ٨١.

والتصوير هنا دقيق واضح. فاليهود ملعونون، ولعنتهم جاءت فى الكتب المقدسة كلها، وهي لعنة أبدية دائمة تطاردهم عبر الأجيال والأحداث، واللاعن الساخط هو الله سبحانه وهذه اللعنة وردت على ألسنة الأنبياء والرسل، وفى الآية مثال فقط ﴿ **على لسان داود وعيسى بن مريم** ﴾ - وليس المراد الحصر - قال ابن عباس : لعنوا فى التوراة والإنجيل وفى الزبور، وفى الفرقان.

ومن بلاغة التعبير القرآنى هنا أن فعل اللعن مبنى للمجهول (لعن) حتى توحى الجملة بأن اللعن منصب عليهم من كل شئ، فهم ملعونون من لاعن غير مذكور، فهو الله سبحانه، وهو الناس، وهو كل كائن حى.

ثم تسجل عليهم الآية الكفر، فلم تقل «لعن اليهود» بل قالت «لعن الذين كفروا من بني إسرائيل» وبهذا أيضا نجا من اللعنة الأنبياء والصالحون من بنى إسرائيل، وحلت اللعنة على الكافرين منهم - وهذا أمر طبيعى يتمشى مع سنة العدل الإلهى، ويتفق مع

وعد الله لإبراهيم عليه السلام حين طلب الإمامة لذريته، وأبت عناية الله أن تشملهم جميعا ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن - قال إنى جاعلك للناس إماما، قال ومن ذريتى، قال لا ينال عهدى الظالمين** ﴾ سورةالبقرة آيه ١٢٤.

بعدذلك انتقلت الآيات إلى بيان الأسباب التى استحق اليهود من أجلها هذه اللعنة وهى - بعد ما ذكرناه من الكفر - أربعة أسباب :

«العصيان - والعدوان - والرضا بالمنكر - وموالاة المنافقين، ومعاونتهم ضد المسلمين».

وأمر واحد من هذ الأمور يكفى لأن يدفع صاحبه بالخزى والعار - فكيف إذا اجتمعت كلها فى شعب واحد - ووجدت أرضا خصيبة من الكفر - إن هذا الشعب يصبح أهلاً لكل نقيصة، وموضعا لكل سخط، وهدفا لكل نقمة - ومن وراء ذلك كله (لعنة الله).

أما العصيان فطبيعة فيهم - خالفوا موسى وأخاه هارون فى كل الأمور، وارتكبوا من الذنوب كل ما نهتهم عنه التوراة - وهذا مثال واحد من عصيانهم صوره القرآن الكريم أجمل تصوير فى سورة المائدة :

لقد طلب منهم موسى أن يدخلوا الأرض المقدسة التى رحلوا عنها إلى مصر أيام يوسف عليه السلام، وأن يستردوها من العمالقة الجبارين، ومهد لهذا الطلب تمهيدا ذكّرهم فيه بنعم الله عليهم ﴿ **وإذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم - إذ جعل فيكم أنبياء، وجعلكم ملوكا، وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين - يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم** ﴾ سورة المائدة آيات ٢٠ : ٢١.

فكان جوابهم العصيان الصريح :

﴿ **قالوا يا موسى - إن فيها قوما جبارين - وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها** ﴾ سورة المائدة آيه ٢٢- وأكدوا العصيان مرة أخرى ﴿ **قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها** ﴾ - ثم

بلغ بهم الكفر منتهاه، وتمادوا فى عصيانهم حين قالوا ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا – إنا ها هنا قاعدون** ﴾سورة المائدة آية ٢٤.

ولجأ موسى إلى ربه مستغفرا من هذا الذنب الكبير، متبرئا من هذا العصيان الفاجر : ﴿ **قال رب – إنى لا أملك إلا نفسى وأخى، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين** ﴾ .سورة المائدة ٢٥.

وعاقبهم الله فكتب عليهم التيه فى الأرض ﴿ **قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض، فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾سورة المائدة آية ٢٦.

إن هذا الموقف يذكرنا بموقف المسلمين الأولين حين كانوا مع محمد بن عبدالله فى غزوة بدر، وقال لهم محمد : (**أشيروا على أيها الناس**) – قال بعض الأنصار – كأنك تعرض بنا يا رسول الله – لا نقول لرسول الله كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا – إنا ها هنا قاعدون** ﴾ سورة المائدة آية ٢٤– وقال سعد بن معاذ : «والذى بعثك بالحق لواستعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، ومانكره أن تلقى بنا عدونا غداً».

هنا يتضح عصيان اليهود – وروعه الإيمان عند أصحاب محمد.

وهنا يصاب المؤمن منا بصدمة عميقة حين يرى الأوضاع اليوم وقد تغيرت، وأصبح اليهود (وهم أهل العصيان والجبن) – أصبحوا أدعياء نصر، وحلفاء كبرياء وعزة، وأصبح المسلمون كما نرى من تفرق وضعف – ولا أقول ذلة وهوان.

والأمر بعد ذلك لا يرجع إلى شئ أكثر من العقيدة واليقين – فإن أردنا لديننا الصدق، وهو الصدق – وإن أردنا لقرآننا أن يكون الحق – وهو الحق فلنعُدْ كما كان أصحاب بدر مع محمد حينئذ يتحقق لنا النصر – ويصدق الوعد – ونتلو القرآن لنزداد يقينا بأنه اليقن والحق ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم – ذلك بما عصوا، وكانوا يعتدون** ﴾. سورة المائدة ٧٨.

أما العدوان فله معنيان - العدوان على الناس فى أموالهم وأنفسهم - والعدوان على حدود الله، بمعنى تجاوز هذه الحدود ، والخروج عليها - والعدوان على أى معنى فهمناه صفة أصيلة من صفات اليهود، فهم يعتدون على الناس فى أى مجتمع كانوا، وتحت أى ظروف عاشوا، وهم يتجاوزون حدود الله، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه - ولقد ذكر القرآن الكثير من صور العدوان اليهودى - قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ، فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ سورة البقرة آيه ٦٥ - ووضحت هذا العدوان آية أخرى فى سورة الأعراف - قال تعالى : ﴿ **واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ، إذ يعدون فى السبت ،إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون** ﴾ سورة الأعراف آيه ١٦٣ .

لقد ابتلى الله اليهود فحرم عليهم الصيد فى يوم السبت، وشاءت حكمته أن يكثر السمك فى هذا اليوم، فاحتالوا لمخالفة أمر الله، ورموا أدوات الصيد فى البحر يوم السبت، ثم تركوها ولم يسحبوها إلا فى اليوم التالى، وهذا فى حقيقته عدوان ومخالفة - ولقد حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من مثل هذا العمل فقال : «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» هذا هو العدوان عند اليهود، ونتيجته ما قاله الله ﴿ **فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾. سورة البقرة آيه ٦٥ .

وأما الرضا بالمنكر فقد حدثنا عنه الصادق الأمين فيما رواه عنه ابن مسعود - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل - كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا - اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده - فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض - ثم قرأ قول الله ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم** ﴾ سورة المائدة ٧٨ - إلى قوله تعالى : ﴿فاسقون﴾ ثم قال : (والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، أو تقصرنه على الحق أصرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه.

ولهذا حثنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه/ على الأمر بالمعروف، والنهى عنى المنكر، حتى لا نكون كاليهود فتحل علينا لعنة الله.

عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وعن عدى بن عميرة رضى الله عنه - قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة».

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام خطيبا، فكان فيما قال : «ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه».

وأما موالاة اليهود للمنافقين والمشركين، ومساندتهم لهم ضد المسلمين - فواضح من قول الله تعالى : ﴿ **ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا** ﴾ سورة المائدة آيه ٨٠ - أى يناصرون الكفار من المنافقين والمشركين ، ويؤيدونهم فى محاربة المسلمين، وهذا حق وصدق، ظهر فى كل موقف وقفه المنافقون من الرسول، وظهر فى غزوة أحد وفى غزوة الخندق وغيرهما من الغزوات، ولو أن اليهود كانوا من أهل الخير والإيمان لما نصروا الكافرين على المسلمين ﴿ **ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما تخذوهم أولياء** ﴾. سورة المائدة آيه ٨١.

وحين ذكرت الآيات الكريمة هذه الأسباب - وضحت فى كل نقطة سوء ما كان اليهود يفعلون، فالله يقول : ﴿ **لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ سورة المائدة ٨٩ - ويقول : ﴿ **لبئس ماقدمت لهم أنفسهم** ﴾ - والتعبير القرآنى هنا يؤكد الحكم بلام القسم، وبالتكرار - وفى النهاية يوضح القرآن الكريم النتيجة ﴿ **أن سخط الله عليهم، وفى العذاب هم خالدون** ﴾. سورة المائدة آيه ٨٠.

وليس هناك جزاء أفظع من هذا الجزاء، ولا أعدل من هذا الجزاء - سخط الله، والخلود فى النار - والله أعدل العادلين.

روائع التصوير القرآنى :

وإن من روائع التصوير القرآنى لليهود قول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله - ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا، وكانوا يعتدون** ﴾. سورة البقرة آيه ٦١.

وقوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ **ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا، إلا بحبل من الله، وحبل من الناس، وباءوا بغضب من الله، وضربت عليهم المسكنة، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾. سورة آل عمران آيه ١١٢.

والآيتان الكريمتان - تلتقيان على تصوير هذا الشعب فى صورته الصحيحة، صورة الذلة والمسكنة والهوان - صورة الضعة والخسة والاستعباد، هكذا كانوا وعاشوا ، وهكذا سيبقون إلى الأبد على الرغم من الصورة الزائفة التى تطالعنا اليوم من وراء الأحداث.

لقد مضت إرادة الله أن يعيش اليهود أذلاء فى الأرض - من وجدهم أهانهم، ومن عاشرهم استعبدهم ومن عرفهم احتقرهم - إنها فريضة إلهية ألزموا بها شرعا وقدرا وعاشوا فى ظلها الأسود الرهيب منذ كانوا وكان التاريخ إلى اليوم.

كانوا أذلة فى أرض مصر، استعبدهم الفراعنة، وجعلوهم خدما، وبنوا على اكتافهم معابدهم وهياكلهم - ﴿ **وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يقتلون أبناءكم، ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾. سورة الأعراف آيه ١٤١.

وما رحلوا من الأرض المقدسة إلى مصر إلا نتيجة للهوان الذى كانوا فيه ، وهو هوان يكفى أنه حملهم على الرحيل من بلاد عاشوا فيها زمنا طويلا.

ولما جاء الإسلام وجدهم أذلة فى شمال الجزيرة العربية، يتحكم فيهم عبدة الأوثان من الكفار، وكانوا يعيشون على أمل الرحمة فى هذا النبى الذى آن أوانه، وظنوا أنه

سيكون منهم، فلما بعثه الله من العرب حاربوه، وناصبوه العداء فاضطر إلى طردهم من ديارهم، وبهذا يتحقق دائما قول الله ﴿ **ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا** ﴾. أى فى أى مكان وجدوا، وفى أى زمان عاشوا، وهكذا كانوا على مر الزمان، لم تأت عليهم فترة واحدة من نصفة أو أمان - ولقد كانت حضارة القرن العشرين، ومدنية الغرب المعاصرة أقسى عليهم من كل ما سبق.

فكثير من البلاد الأوروبية تخصص لهم مطاعم وفنادق - وليس من الغريب أن تجد لافتة على أحد المقاهى أو المطاعم وقد كتب عليها «ممنوع دخول الكلاب واليهود».

وبعض البلاد كانت تفرض على اليهود أن يضع على لباسه شارة معينة حتى يعرف الناس أنه يهودى فيعامل معاملة تليق به. وإنهم إلى اليوم ليعاملون معاملة الذلة والهوان على الرغم مما فى أيديهم من سلطان الذهب والجنس والإعلام.

أبداً - ما قال القرآن إلا الحق والصدق، وما كذب التاريخ شيئا من إرادة الله : ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباؤا بغضب من الله** ﴾. سورة البقرة آيه ٦١.

ولقد يسأل سائل : كيف يتفق هذا الكلام مع ما نراه اليوم من سلطان وجبروت؟ إن لهم دولة، وإن لهم قوة، وإنهم سادة المال والإعلام فى هذا العصر، وإنهم ليتحكمون فى مصير الأمم بالجاسوسية، وبالمذاهب السرية، وبالجمعيات الغامضة، وبالإرهاب الفكرى، والتعصب العنصرى، والإغراء الجنسى.

وأقول : إن هذه الوسائل نفسها هى وسائل الذليل - إن الذى يلجأ إلى المال أو الجنس، أو الجمعيات السرية. إلخ ما ذكرناه هو الذليل الذى لا يجد له سندا من حق مشروع.

وإنها لمحة قصيرة فى التاريخ تلك التى يعيشونها اليوم وكأن لهم دولة، إنها برهة من الزمن الطويل، لاتنقض الحكم، ولا تكذب الحق، إنها ثانية من الزمن لا تساوى فى عمر الدنيا شيئا إذا قيست إلى الماضى الطويل، أو الغد الممتد على التاريخ والذلة أنواع - وذلة الغنى قد تكون أقوى وأقسى من ذلة الفقير ومع ذلك - فأى عزة لهم فى العالم؟

إنهم لا يزالون يعاملون معاملة الكلاب - لهم مساكنهم ومشاربهم، وما من مدينة كبيرة فى العالم اليوم إلا وفيها ما يعرف «بحارة اليهود» - ولا تزال شارة الإرهاب توضع على معابدهم فتصيبهم بالهلع والرعب، وإن الدول التى تساعدهم على الهجرة إلى فلسطين تريد فيما تريد أن تتخلص منهم كما يتخلص الإنسان من وباء بغيض - إن ما فعله هتلر بيهود أوروبا يكفى وحده لأن يدمغهم بالهوان إلى أبد الآبدين - وسيسلط الله عليهم فى كل فترة من الزمان من يحقق قوله - إن دولتهم دولة مصنوعة ، دولة غير شرعية، ونصف دول العالم أو أكثر لا يعترف بها، ومن هادنهم أو صادقهم فترة عاد فانقلب عليهم ولعنهم، وفى الغد ستعم اللعنة، وتتم النقمة، ويتحقق قول الله، وهو الحق دائما.

ونعود إلى الآيتين الكريمتين لنستكمل الصورة فنجد القرآن الكريم يوضح أسباب هذه الذلة التى فرضت على اليهود.

﴿ **ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا، وكانوا يعتدون** ﴾ سورة البقرة آية ٦١. فهو الكفر الفاجر - الكفر بالله ورسله - والكفر بالقيم الأخلاقية - والكفر بالضمير الحى الشريف - وهو العدوان على الأنبياء ، وقتلهم - لا لذنب إلا أنهم يدعون إلى الخير والمعروف - قتلوا زكريا ويحيى، وهموا بقتل عيسى لولا أن أنجاه الله منهم. قيل كانوا يقتلون النبى فى الصباح، ويقيمون الأسواق فى المساء - وكأنهم ما ارتكبوا جريمة تهتز لها الأرض والسماء.

ثم هو العصيان وهو العدوان، ولا تزال فى جوانب الصورة القرآنية ظلالا وظلالا - لونت حياتهم بالسواد والهوان.

النفس اليهودية :

ولقد حلل القرآن البليغ النفس اليهودية أدق تحليل، ووصف الخلق اليهودى وصفا واضحا، وبين ما ينطوى عليه من قسوة وطغيان، وكذب وافتراء، وجبن وخديعة .

ونلفت النظر إلى صفة (القسوة) التى صبغت القلب اليهودى بصبغة دامية، كلها إجرام وغلظة وفجور.

فلقد ظهرت قسوة اليهود فى قصة يوسف عليه السلام، إذ تآمر عليه إخوته غيرة وحسدا، ودبروا لجريمة التخلص منه بالقتل، أو بالإلقاء فى الجب حتى يصبح قلب أبيهم خاليا لهم بما فيه من حب وعطف.

﴿**إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة - إن أبانا لفى ضلال مبين، اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم**﴾. سورة يوسف آيات ٨، ٩.

وفى هذه الجريمة من القسوة والعنف ألوان : فيها قطيعة الرحم وفيها عقوق الأب وفيها عدم الرأفة بالطفل الصغير، أو بالشيخ الكبير - وفيها معاقبة من لا ذنب له - ولقد بلغت القسوة غايتها لأنهم أجمعوا على إلقائه فى ظلام الجب ليصبح بعد ذلك عبدا يباع ويشترى مع أنه من دمهم، وصلة الدم تمنع الحيوان الأعجم من قتل أخيه الحيوان - ولقد وضح الإجماع فى قوله تعالى : ﴿**فلما ذهبوا به ، وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون**﴾. سورة يوسف آيه ١٥.

ولقد مهدوا لجريمة الجب بجريمة أخرى - وأتبعوها بجريمة ثالثة - فهى جرائم متتابعة متوالية تدل على تعمق القسوة فى القلوب - أما الجريمة السابقة فهى جريمة الخداع والزيف والرياء.، والظهور بمظهر الأخ الحبيب، والشقيق الأمين ﴿**قالوا يا أبانا - مالك لا تأمنا على يوسف، وإنا له لناصحون - أرسله معنا غدا يرتع ويلعب، وإنا له لحافظون**﴾ سورة يوسف آيات ١١، ١٢. وهذا منتهى الرياء والخداع. وأما الجريمة اللاحقة فهى جريمة الكذب والنفاق ﴿**وجاءوا أباهم عشاء يبكون - قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب، وما أنت بمؤمن لنا، ولو كنا صادقين**﴾. سورة يوسف آيات ١٦، ١٧.

إنها لوحة رسمتها القدرة الإلهية لتصور الإجرام البالغ، والعنف الوحشى، وصدق الله حين صور القسوة فى سورةأخرى فقال : ﴿**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله - وما الله بغافل عما تعملون**﴾. سورة البقرة آية ٧٤.

تصوير واضح ودقيق وشامل - والخطاب موجه فيه لليهود - والقرآن يقول لهم : إن قلوبكم أشد قسوة من الحجارة الصماء التى لا تحس ولا تلين، مع أن قلوبكم من لحم ودم - وفى هذا الخطاب سخرية واستهزاء، وفيه توبيخ لأن القلوب قست بعد أن ظهرت آيات الله، وتكلم الميت فى قصة البقرة، وأرشد إلى قاتله : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك** ﴾ - أى من بعد ظهور الآيات - وتزيد الصورة عمقا وشمولا حين توضح الآية ما يعترى الحجارة الصماء - إن بعضها يلين فتتفجر منه المياه فى شلالات هادرة، أو قنوات سائلة، وإن بعضها ليتشقق عن عيون من الماء الصافى، وإن بعضها ليهبط من خشية الله وعظمته، أما قلوب اليهود فبعيدة كل البعد عن هذه المعانى .

وقسوة القلب علامة على الطرد من رحمة الله، ولهذا نهى الله المؤمنين عن هذه القسوة، وطالبهم بالرأفة والرحمة حتى لا يكونوا كاليهود : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون** ﴾ سورة الحديد آية ١٦ .

وقسوة القلب صفة صحبت اليهود على الزمان قديمه وحديثه.

- جاء فى الكتاب الثامن والسبعين الذى وضعه المؤرخ كاسيوس - فى الفصل الثانى والثلاثين عن سنة (١١٧)م قوله «حينئذ عمد اليهود بقيادة أندريا إلى ذبح الرومان واليونان، وأكلوا من لحمهم، وشربوا دماءهم وسلخوا جلودهم ولبسوها».

- ونشرت جريدة «الديلى ميل» البريطانية بعددها الصادر بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٩٣٦م تصف بعض مشاهد الحرب الإسبانية - قالت :

«فى مقاطعة قرطبة وجد (٩١) مذبوحا، وآخرون وجدوا محروقين وهم أحياء وفى ساقيل هجم الشيوعيون بقيادة امرأة يهودية، وقتلوا السجناء ثم صبوا البنزين على أجسامهم، وأشعلوا فيها النيران».

- وفى التاسع من أبريل ١٩٤٨م كانت مذبحة دير ياسين التى ذهبت مثلا فى الإجرام والقسوة والتى أصابت مندوب الصليب الأحمر الدكتور (لينر) بالإغماء ، لأنه لم يقو على مشاهدة الآثار الرهيبة للجريمة الظالمة.

هذه ألوان من الجرائم تؤيد ما أثبته القرآن منذ أربعة عشر قرنا - وما كان القرآن فى حاجة إلى دليل ، ولكنا نذكرها حتى يسمع الغافلون.

وإنها لإرادة الله التى قضت على هؤلاء اليهود بالقسوة ، وبحياة الظلام.

﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم، وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه** ﴾. سورة المائدة آية ١٣.

جريمة التحريف :

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى كتبه المقدسة على رسله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليبين لهم الحق من الباطل، ولتبقى هذه الكتب بعد الرسل / هداية للضال، ومرجعا للحائر، ونورا على طريق الحياة الطويل.

والقرآن الكريم يعترف بهذه الكتب، ويدعو المسلمين إلى الإيمان بها - قال تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم - نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل، من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان** ﴾. سورة آل عمران آيات ٢، ٣، ٤.

ومن الطبيعى أن تقُبل كل أمة على كتابها بالبحث والدراسة، وأن تصونه من كل زيف أو تغيير، لكن اليهود بما طُبعوا عليه من خبث وشر عمدوا إلى التوراة إلى كتابهم المقدس، فحرفوه وبدلوه ، وغيروا فيه تغييرا كبيرا، وأخفوا من الآيات مالا يتفق مع رغباتهم وشهواتهم فكانوا بهذا أعداء للحق والصدق والفضائل كلها.

ولقد صور القرآن الكريم هذه الجريمة تصويرا واضحا صادقا، وبين أبعادها المختلفة وأشار إلى بعض أسبابها ونتائجها فى إيجاز ودقة وقوة.

أما إثبات الجريمة فواضح فى آيات كثيرة، قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون** ﴾ سورة البقرة آيه ٧٥ - وقال سبحانه فى سورة النساء : ﴿ **من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون سمعنا وعصينا، واسمع غير مسمع، وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعنا فى الدين** ﴾ .سورة النساء آيه ٤٦.

وقال عز من قائل فى سورة المائدة :﴿ **ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب** ﴾. سورة المائدة آيه ١٥- وقال فى نفس السورة ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم، وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به** ﴾ .سورة المائدة آيه ١٣.

ويمكننا أن نثبت جريمة التحريف والتزوير فى التوراة بأمور أخرى كالتناقض الموجود بين كثير من العبارات - وكالعبارات التى تهين الأنبياء وتنسب إليهم أمورا بعيدة عما يجب لهم من تشريف وتقديس - وكالقصص والعبارات الجنسية التى يجب أن يتنزه عنها كل كتاب مقدس أو غير مقدس - يمكننا أن نثبت ذلك بنصوص من أسفار التوراة لكنا نريد أن نبقى فى ضوء القرآن الكريم، وقد أثبت على اليهود جريمة التحريف والتزوير بوضوح وجلاء ولا شك أن هذه الجريمة ذات أبعاد مختلفة، وأسباب متعددة، وغايات كثيرة، ونكتفى هنا من الأسباب والغايات بأمرين نذكرهما على سبيل المثال.

الأول : أن التوراة الصحيحة كما أنزلها الله على موسى دعت إلى كثير من الفضائل، وحرمت الكثير من الرذائل، وهذا لا يتفق مع طبع اليهود فحياتهم كلها شر ورذيلة، والغاية عندهم تبرر الوسيلة، ومقياس الخير والشر عندهم هو المصلحة - فما وافق مصلحتك فهو الخير كل الخير، وما خالف هواك فهو الشر كل الشر، لهذا عمدوا إلى الحلال فجعلوه حراما، وعمدوا إلى الحرام فجعلوه حلالا مباحا، وظنوا بذلك أنهم نجوا من العقاب والجزاء، غيروا التوراة المقدسة فى سبيل غرض تافه، ومأرب دنيوى لا قيمة له، وباعوا الفضائل والقداسة والحق والشرف بثمن بخس - قال تعالى: ﴿ **فويل**

للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون ﴾. سورة البقرة آيه ٧٩.

الثـــانى : أن التوراة قد تكلمت عن محمد صلى الله عليه وسلم، وأكدت أنه خاتم الرسل، وقد عرف اليهود ذلك، وتأكدوا من صدق الرسول صلوات الله وسلامه عليه، لكنهم كرها منهم فى محمد ورغبة منهم فى إخفاء ما يؤيد دعواه عمدوا إلى توراتهم فغيروا فيها وبدلوا وأزالوا كل الآيات التى تثبت صدق هذا الرسول . وبهذا بلغ بهم الحقد الأعمى درجة من التزوير لم يسبق لها مثيل. قال تعالى مبينا أنه سيكتب رحمته لمن يؤمن منهم بمحمد : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث** ﴾سورة الأعراف الآية ١٥٧ - ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ **يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب** ﴾ سورة المائدة آية ١٥.

- وأما أبعاد الجريمة فواسعة متعددة، وأكتفى هنا بذكر هذه النقاط :

١ - لم يحرف اليهود كتابا عاديا، أو كتابا من وضع البشر، بل حرفوا كتابا مقدساً أنزله الله إليهم لهدايتهم، فعدوانهم هذا عدوان بشع يتعدى حدود البشر إلى الذات الإلهية وما يصدر عنها .

٢ - لم يغير اليهود ما ظنوه سهوا أو خطأ فى الكتاب السماوى رغبة منهم فى صيانة كتابهم المقدس إن جاز لبشر أن يتصور هذا - لكنهم عرفوا الحق وعقلوه وفهموه ثم عمدوا إلى تغييره وتزييفه وصدق الله : ﴿ **وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** ﴾. سورة البقرة الآية ٧٥.

٣ - لم يحدث التحريف من اليهود نتيجة جهل أو نسيان أو خطأ بشرى بل حدث نتيجة لتدبير وتخطيط. وجاهروا بذلك وأعلنوه مبالغة منهم فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم. ووصل بهم الأمر إلى السب والشتم للرسول الكريم قال تعالى : ﴿ **من الذين**

هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا، واسمع غير مسمع، وراعنا ليًا بألسنتهم وطعنا فى الدين﴾. سورة النساء الآية ٤٦.

٤ - لم يقم بالتحريف والتزوير جماعة من عامتهم - بل قام به علماؤهم وأحبارهم - قال تعالى : ﴿**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله**﴾. سورة البقرة الآية ٧٩.

هذا هو تصوير القرآن لجريمة التحريف التى ارتكبها اليهود، فغيروا كلام الله، واستحقوا لعنته، وطردوا من رحمته - فاعرف يا أخى هؤلاء الأعداء على حقيقتهم، فإن معرفة العدو هى أول الطريق إلى التغلب عليه، كتب الله النصر والعزة لعباده المسلمين.

خيال اليهود

ثم إنه يدعى بنو إسرائيل أنهم شعب الله المختار، وأن الله قد اصطفاهم، وهيأ لهم كل أسباب التفوق، ومنحهم حق السيادة على الناس، وأباح لهم أموالهم ودماءهم، وتسامح معهم فيما يرتكبون من ذنوب وآثام - ويمضى بهم الخيال فيدّعون أن الله قد حرم عليهم أن يختلطوا بأبناء الشعوب الأخرى إلا عند الضرورة، وحتى تحين الفرصة للغدر بهم، ونقض العهود معهم، والاستيلاء بعد ذلك على ممتلكاتهم، وجعلهم عبيدا فى ديار لهم فيها وحدهم حق السيادة.

هكذا يؤمن كل يهودى فى العالم اليوم، وقبل اليوم، وتحت سلطان هذه الفكرة يعيشون بين الناس، إنهم ينتظرون يوما تتم لهم فيه الغلبة، ويتحقق الوعد الإلهى على زعمهم، ويصبحون ملوك الأرض كلها والناس عندهم عبيد.

فكرة رهيبة سيطرت على المجتمع اليهودى منذ وجد إلى اليوم، ودفعت اليهود إلى ارتكاب كل ما حرمته القوانين السماوية والوضعية من جرائم ورذائل فى سبيل السيطرة والسيادة - وبهذا تحللوا من التمسك بالمبادئ أو التقيد بالقوانين وخرجوا على كل عرف

وخربوا كل شريعة، ودمروا كل فضيلة، معتقدين أن الله أباح لهم كل ذلك، وهذه هى ذروة الجرائم عند اليهود.

قوم يؤمنون بأنهم السادة والناس عبيد، وبأن الله أباح لهم ما حرمه على غيرهم - مع أنهم فى حقيقة أمرهم أذل العبيد، وأحقر الكائنات - إن التعالى من الوضيع عجيبة - وإن اليهود حين يؤمنون بهذه الفكرة يضعون أنفسهم فى جانب، ويضعون كل الشعوب الأخرى فى جانب آخر. فهى عصبية الجنس والدم والعقيدة، وهي العنصرية المختلفة الأسباب والدوافع وهى الشر الأسود الذى عميت عنه البشرية كلها، ولم يتعرض له بالبيان والتوضيح إلا الإسلام الذى فضح أسرارهم، وكشف زيفهم، وعرّاهم أمام الناس من كل ثياب الخديعة والضلال.

وفكرة (الشعب المختار) تنبع من جذور تاريخية واجتماعية ونفسية - أهمها أنها أثر من آثار الكبت والحقد اللذين يبحثان دائما عن وسيلة للانفجار والتدمير، وعن منطلق للتعويض وإرضاء الذات - والمنبوذ إذا طارده المجتمع لرجس فيه أو شر أو مرض حقد على المجتمع، وانطوى على نفسه يشرب ضغينته سما من الكراهية، ثم يحاول التبرير والتعليل لنفسه المريضة، فيمضى ليقنع هذه النفس بأنه خير من هؤلاء الذين يطاردونه، ولو واتته الفرصة بعد ذلك لكان انتقامه من الناس رهيبا.

لقد عاش اليهود مطرودين فى كل مجتمع، منبوذين فى كل بيئة، عاملهم الناس على أنهم وباء خطير، وكانوا فى بعض مجتمعات أوروبا - التى تساندهم اليوم - أحقر من الكلاب - لهم أماكنهم الخاصة ، فتكونت عندهم عقدة الضغينة والحقد، ثم انبثقت عنها روح الانعزال عن المجتمعات، وفكرة التعالى والسيادة، ثم عمد أحبارهم إلى تثبيت هذه الفكرة بأسانيد من الدين، وكان هذا سببا من أسباب التحريف فى التوراة - والباحث فى أسفار التوراة المحرفة يجد الكثير من التعاليم التى توحى لليهود بأنهم من طبيعة الله وجوهره، وبأن لهم الحق فى تملك العالم والسيطرة عليه - جاء فى توراتهم المزيفة: «سيقوم الرب، ويقيس الأرض، ويجعل عبدة الأصنام تحت يد إسرائيل» وفيها ما أنقله بأخطائه «إن الله سيرى وصايا أبناء نوح السبع، وبما أنهم لم يسيروا بموجبها

- سيغضب عليهم، ويسلم جميع ممتلكاتهم إلى اليهود» - ويوضح التلمود أن أبناء نوح هم شعوب الأرض وأما الإسرائيليون فهم وحدهم أبناء إبراهيم.

وتعاليم التلمود تبيح لهم السرقة والقتل والغش والخداع وارتكاب كل منكر فى حق غير اليهودى - وقد لخص زعيم من قادتهم اسمه (دكتور أوسكار ليفى) كل هذه المعانى فى جملة واضحة صريحة فقال : «نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومفسديه، ومحركى الفتن فيه وجلاديه».

والشعب اليهودى يتخذ له شعارا فيه منتهى القسوة والخبث - ونحن نظن أن شعارهم نجمة سداسية فقط، لكن الشعار الحقيقى هو نجمة سداسية تحيط بها أفعى، ويرمزون بالأفعى إلى قوة اليهود وأسلوبهم الناعم الخبيث فى الإحاطة بالعالم كما تحيط الأفعى بالنجمة السداسية.

والبروتوكول الثالث لحكماء صهيون فيه شرح لهذه الفكرة، قال صاحب البرتوكول : «أستطيع اليوم أن أؤكد لكم أننا على مدى خطوات قليلة من هدفنا، ولم يبق إلا مسافة قصيرة كى تتم، الأفعى الرمزية - شعار شعبنا - دورته . وحينما تغلق هذه الدائرة ستكون كل دول أوروبا محصورة فيها بأغلال لا تكسر».

وفى نفس البروتوكول جاءت هذه العبارة الرهيبة التى توضح فكرة «الشعب المختار» وأسلوبه : «إن كلمة الحرية تزج بالمجتمع فى نزاع مع كل القوى حتى قوة الطبيعة وقوة الله، وذلك هو السبب فى أنه، يجب علينا - حتى نستحوذ على السلطة - أن تمحق كلمة الحرية من معجم الإنسانية، لأنها رمز القوة الوحشية التى تمسخ الشعب حيوانات متعطشة إلى الدماء، ويجب أن نركز فى عقولنا أن هذه الحيوانات تستغرق فى النوم حين تشبع من الدم - وحينئذ يصبح يسيراً علينا أن نستعبدها»

فالشعوب فى نظر اليهود حيوانات يجب أن تستعبد.

يا أخى المسلم :

هذه هى فكرة اليهود فى السيطرة على العالم، وقد أرادلنا الله أن نقف نحن المسلمين على طريق اليهود لأنهم بدأوا بأرضنا نحن، ومسؤليتنا فى اللقاء معهم خطيرة، وكتابنا الكريم لم يغفل الحديث عن هذه الفكرة - بل صورها ووضعها فى موضعها الصحيح.

التصوير القرآنى لفكرة الشعب المختار : -

والحقيقة التى لا شك فيها هى أن القرآن تعرض لهذه الفكرة، وتحدث عنها بصراحة حين تحدث عن نعم الله التى أنعم بها على اليهود - والقارئ للقرآن الكريم يجد الكثير من الآيات التى تتناول هذا الموضوع، لكنى أحب أن أقف عند ثلاث آيات لأن بعض المفكرين من اليهود استشهدوا بها على دعواهم الكاذبة.

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة البقرة : ﴿ **يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم، وأنى فضلتكم على العالمين** ﴾. سورة البقرة آية ٤٧ .

ويقول فى سورة الجاثية : ﴿ **ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على العالمين، وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم، إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾. سورة الجاثية آيات ١٦ , ١٧ ويقول فى سورة الدخان : ﴿ **ولقد اخترناهم على علم على العالمين** ﴾. سورة الدخان آية ٣٢.

فهذه الآيات وأمثالها تتحدث عن تفضيل لبنى إسرائيل فى أثناء الحديث عن نعم أنعم الله بها عليهم - هذه حقيقة، ولكن المتأمل للآيات، والباحث عن أسباب نزولها وعن أهدافها يجد أنها ذكرت فى مجال التوبيخ والوعيد - فقد خرجوا على طاعة الله، وأفسدوا فى الأرض، واعتدوا على الحرمات والمقدسات، ولم يعملوا بما فى كتابهم المقدس مع أن الله أعطاهم من النعم الكثير مما لم يعطه لأحد من أهل زمانهم - ففيهم كثير من الأنبياء وكثير من الملوك والرؤساء، ولم يكن فى الأمم السابقة من الأنبياء

والملوك مثل ما كان عند بني إسرائيل، ولقد نجاهم الله من فرعون، ومن الذل الذى عانوا منه فى مصر بسبب أعمالهم الخبيثة، ثم أنقذهم من التيه بعد أربعين سنة من الضياع والتشرد - فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة عصيانا وفسادا وطغياناً فى الأرض. وتكبرا على العباد، وتغييراً لكلام الله.

فالقرآن فى هذه الآيات يصورهم وهم يمرون بحالات ثلاث :

حالة العطاء والخير والتفضيل - ثم حالة الجحود والعصيان والخروج على تعاليم الله، ثم **حالة الانتقام الإلهى العادل** - والقرآن يعمد إلى المرور بهذه الحالات الثلاث ليكون فى قصصهم عبرة لأولى الألباب، وليتعظ المؤمنون بما حدث لليهود وليقابلوا النعمة بالحمد والشكر حتى لا تكون نهايتهم هى ما حدث لبنى إسرائيل.

لم يذكر القرآن التفضيل على أنه هدف فى ذاته، أو حقيقة تذكر وحدها للتسجيل، وإنما ذكره فى مقام التوبيخ والوعيد لقوم لم يعملوا بموجب النعمة.

والأمر هنا كحال السيد مع عبده الخائن - فالسيد حين يقول له لقد أعطيتك من خيرى الكثير وأغدقت عليك المنح والأفضال وفضلتك على غيرك من عبيدى ، لكنك خالفت أمرى، وجحدت فضلى، وقابلت المعروف بالنكران، ولهذا حلت عليك نقمتى. ونزل بك غضبى - السيد حين يقول لعبده العاصى هذا - لا يقصد أبدا أن يبين فضله، ولا أن يثبت له مزية على غيره من الناس.

ولعل الأقرب إلى المنطق والعقل أن الآيات ذكرت لبيان الخسة والنذالة، ولتوضيح ما طبع عليه اليهود من جحود للنعمة، وأن ذكر النعمة والتفضيل كان تمهيداً لبيان درجة الجحود. إن الآيات تتحدث عن العقوق والعصيان لا عن التفضيل والتمييز.

وفى قوله تعالى : ﴿**وأنى فضلتكم على العالمين**﴾. سورة البقرة آية ٤٧.

أما المراد (بالعالمين) فهم الذين كانوا يعيشون فى أيامهم كعاد وثمود وقوم نوح وغيرهم ممن خرجوا على أوامر الله فعاقبهم الله بالهلاك، وسلط عليهم العواصف

والزوابع والطوفان، والله سبحانه وتعالى يروى ذلك كله للنبى صلى الله عليه وسلم وللأمة الإسلامية للعبرة والعظة.

قال الإمام الرازى فى تفسير هذه الآيات.

فإن قيل إن تفضيلهم على العالمين يقتضى تفضيلهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم - وهذا باطل - فكيف الجواب ؟ قلنا : الجواب أن المراد فضلتكم على أهل زمانكم، لأن أمة محمد لم تكن موجودة فى ذلك الزمان - فلم يكن التفضيل عليها.

إن رأى القرآن فى اليهود واضح وصريح، إنهم شعب ملعون مطرود من رحمة الله واقرأ معى هذه الآيات من سورة الأحزاب .

﴿ **لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا - ملعونين - أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا** ﴾. سورة الأحزاب آيات ٦٠، ٦١.

فهل يتفق هذا مع التفضيل والاختيار؟

إن القرآن لا يعطيهم فضلا ولا كرامة بل يحكم عليهم بالطرد من رحمة الله، وبأنهم أينما حلوا أخذوا لذلتهم وجبنهم، ونقضهم للعهود وقتلوا تقتيلا شديداً.

ذلك هو حكم الله، وذلك هو تصوير القرآن.

وما أعدل حكم الله، وما أبلغ تصوير القرآن.

ونمضى مع القرآن الكريم فى تصويره الدقيق لأخلاق اليهود وطباعهم، وفى حديثه عن نزعاتهم العدوانية، وعن جذورها النفسية والتاريخية.

ونقف عند الآيات من سورة الإسراء، التى تسمى أيضا سورة بنى إسرائيل.

جانب من حياة اليهود : -

من بلاغة القرآن الكريم أنه ينوع فى أساليب العرض والتوضيح، وأنه يقصد إلى المثل فى أحيان كثيرة لتصبح الصورة المعنوية صورة حسية يعرفها كل الناس مهما كانت درجة فهمهم وإدراكهم.

ونقدم مثلا عجيبا ضربه الله لليهود فصور به جانبا من حياتهم، وأسوبا سلكوه فى فهمهم لكتابهم المقدس وهو التوراة - قال تعالى فى سورة الجمعة : ﴿ **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ سورة الجمعة آية ٥ .

والذين حملوا التوراة هم بنو إسرائيل، فأصبحوا مكلفين بها، مطالبين بالعمل بما فيها، لكن اليهود وقفوا منها موقفا غريبا، فقد اكتفوا بحفظ ألفاظها، ولم يحاولوا أن يستفيدوا منها، بل عمدوا إليها فحرفوها وبدلوا ما فيها مما يخالف أهواءهم وشهواتهم - وضرب القرآن لهم المثل فى هذه الحالة فقال : إن مثلهم كمثل الحمار يضع صاحبه على ظهره الكتب المفيدة النافعة فلا يعرف ما فيها، ولا يستطيع الانتفاع بها .

وهذا طبعا تحقير لليهود، وليس من العجيب أن يحقرهم القرآن الكريم، وأن يجعلهم مثل هذا الحيوان الذى عرف بين الناس بالغباء والبلادة - لأنهم فى الواقع أسوأ حالاً من الحمار فى أمور كثيرة

- فالحمار لا يفهم، وهم يفهمون ويدركون لأن الله أعطاهم نعمة العقل والإدراك.

- والحمار لهذا غير مكلف. أما هم فمكلفون، ومطالبون باتباع ما فى التوراة من تعاليم.

- والحمار لا يفعل فى الكتب التى على ظهره شيئا - بل يقف منها موقفا سلبيا - أما هم فيعمدون إلى الكتب المقدسة فيغيرون فيها ويبدلون فى سبيل هدف دنيوى.

لكل هذا كانوا فى مرتبة أدنى من مرتبة الحمار، وبهذا صرح القرآن الكريم حين قال : ﴿ **أولئك كالأنعام - بل هم أضل - أولئك هم الغافلون** ﴾ سورة الأعراف آية ١٧٩ .

- والآية نص فى توضيح طبع يهودى، ولكنها - مع ذلك - تنطبق على كل غافل يهمل الاستفادة من الخير حين يعرض له الخير، أو يعجز عن الانتفاع بالعلم والمعرفة، أو يعرض عن الحق حين يقدم له.

إنها تتناول العالم الذى لا ينتفع بعلمه - والغنى الذى لا ينتفع بماله.

والقوى الذى لا يستفيد من قوته - تتناول كل من أعرض عن الحق أو الخير أو المعرفة ولقد يقول قائل : إن اليهود اليوم قوة كبرى فى العلم، ولهم نفوذ واسع فى مجالات الحياة العلمية والاقتصادية والثقافية - والمجتمع اليهودى يبدو على صورة من التماسك تناسب العصر الحديث.

ونقول : هذه صورة حسية خادعة، وصورة موقوتة غير دائمة - إن القوة المادية ليست كل شئ فى الحياة، وإن مجتمعهم الحديث لم يتعرض لمحنة ولا لتجربة قاسية كالتى تعرض لها المجتمع الإسلامى على مدى الزمن الطويل ، وإن الظروف التى تعيشها دولتهم تحملهم على الترابط والتساند، وإن قوى أخرى تسندهم لأسباب مختلفة - وربما كانت تسندهم كرها فينا نحن المسلمين قبل أن يكون ذلك حبا فى اليهود - أو قد تسندهم خوفا من شرهم وفسادهم، وعندما تتخلى عنهم هذه القوى، وعندما يتعرض المجتمع اليهودى لمحنة شديدة، أو لاختبار مادى أو نفسى سيظهر على حقيقته، وينهار هذا المجتمع الزائف، وتتضح الصورة الصادقة التى رسمها القرآن فى مثله العجيب.

وفى الآية الكريمة نقاط أخرى نذكرها زيادة فى توضيح الصورة :

- فيها زيادة فى الذم، وتأكيد للإهانة والتحقير - قال تعالى ﴿ **بئس مثل القوم** ﴾.

- وفيها بيان لأسباب أخرى دعت لذكر المثل هى أنهم يلجأون دائما إلى الكذب - وإلى الظلم قال تعالى : ﴿ **بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ سورة الجمعة آية ٥.

أبدا - لم يظلم القرآن اليهود بهذا التصوير - بل كان صادقا كل الصدق لأنهم

يعرفون الحق من الباطل، والخير من الشر، والنور من الظلام - ولكنهم يقصدون دائما إلى الباطل والشر، ويلجأون إلى الظلام كخفافيش الليل وبومه.

والنقطة الأساسية فى التصوير هنا هى عدم الانتفاع بالعقل والمعرفة - وليست عدم المعرفة، والذى لا يعرف قد يكون له عذره - أما الذى يعرف ولا يعمل بما يعرف فهو الغبى الجاهل أو هو الحقود الباحث عن الشر.

نعم - عند اليهود معرفة وعلم - لكنهم يحولون العلم إلى ضرر، ويتنكرون لكل القوانين الدولية، فلا يؤمنون بعهود، ولا يحترمون مواثيق، ولا يتقيدون بشرف أو ضمير - بل لعلهم يصلون إلى أبعد من ذلك فيستحلون ما حرم الله، ويجعلون كل مبدأ خاضعا للمصلحة.

ومن هنا دمغهم القرآن الكريم بهذا المثل، وكان صادقا معهم ومع الحقيقة ﴿ **بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ سورة الجمعة آية٥.

جرأتهم وتطاولهم على الله : -

بلغت الجرأة باليهود أنهم تطاولوا على الله سبحانه، وأساءوا الأدب معه، وقالوا فى ذاته المقدسة ما لا يليق أن يصدر من عبيد فى حق خالقهم ۰ وإنها لجريمة كبرى أن يتطاول العبد على ربه، وأن يسئ الأدب مع خالقه ورازقه ۰ ولكنها طبيعة اليهود الفاسدة، ونفوسهم المريضة ۰ والله فوق الكلام والإساءة تنزه فى عليائه، وتقدس فى ذاته وصفاته.

ومن أراد أن يعرف رأى اليهود فى الله فليقرأ (التلمود) فإن فيه كلاما كثيرا لا أبيح لنفسى مجرد نقله، لأنه رجس من عمل الشيطان، وتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

ولهذا سأبقى - فى ضوء القرآن الكريم - أنقل عنه، وأحاول توضيح الصور التى عرضها عن اليهود، وسوء أدبهم مع الله - وأكتفى من ذلك بموضعين :

أمــا الموضع الأول : فهو قول الله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا، وقتلهم الأنبياء بغير حق، ونقول ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم، وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ سورة آل عمران آية ١٨١.

يروى ابن اسحق فى سبب نزول هاتين الآيتين عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أبا بكر دخل على واحد من أحبار اليهود يسمى فنحاص وهو يتحدث إلى جماعة من اليهود، فقال أبو بكر : ويحك يافنحاص - اتق الله وأسلم - فو الله إنك لتعلم أن محمداً لرسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل - فقال فنحاص - يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير - وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغنى ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم - ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا (يشير بذلك إلى قول الله تعالى: ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا - فيضاعفه له أضعافا كثيرة** ﴾ سورة البقرة آية ٢٤٥ - فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك آيا عدو الله - فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : ما حملك على ما صنعت؟ فقال أبوبكر : يا رسول الله - إن عدو الله قال قولا عظيما - زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، وضربت وجهه - فأنكر فنحاص وقال : ما قلت ذلك - فنزل قول الله تعالى : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير، ونحن أغنياء - سنكتب ما قالوا** ﴾.. سورة آل عمران الآية ١٨١، ١٨٢ - إلى آخر الآيتين.

وفى الآيتين تصديق لأبى بكر، وبيان بأن الله مطلع على ما يقول اليهود ، وقد علم ما قالوا وسجله وكتبه عليهم، وعقابهم عليه ما ذكرته الآيتان : ﴿ **ونقول ذوقوا عذاب الحريق، ذلك بما قدمت أيديكم، وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ سورة آل عمران آيات ١٨١، ١٨٢.

وأما الموضع الثانى : الذى صور به القرآن سوء أدب اليهود مع الله فهو ما روى عن سعيد ابن جبير قال : أتى رهط من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد هذا الله خلق الخلق . فمن خلق الله؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه . (أى تغير) - ثم ساورهم - (أى واثبهم وباطشهم) غضبا لربه - قال

فجاء جبريل : عليه السلام فسكّنه - فقال : خفض عليك يا محمد، وجاءه من الله بجواب ما سألوه : ﴿ **قل هو الله أحد - الله الصمد - لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد** ﴾سورة الإخلاص.

فلما تلاها عليهم قالوا فصف لنا يا محمد ، كيف خَلْقه؟ كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول وساورهم - فأتاه جبريل عليه السلام فقال له مثل ما قال له أول مرة - وجاءه من الله تعالى بجواب ما سألوه، يقول الله تعالى : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾سورة الزمر آية ٦٧.

وبعد - فليست هناك جريمة تفوق جريمة التطاول على الله، ومع ذلك فقد حدثنا القرآن الكريم عنها حديث السمو والرفعة، لم يخف الحقائق، ولم يستر الأقوال، ولم يترك السائل بدون جواب، والمخطئ بدون عقاب - فإذا ما عرفنا هذا الموقف من اليهود سهل علينا أن نفهم موقفهم من البشر، وأن نعرف الكثير عن هذه النفوس المريضة.

ويبقى جلال الله وكماله فوق ما تدركه البصائر والأفهام - ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾ و﴿ **سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ سورة الزمر آية ٦٧.

جرائم اليهود : -

اليهود قتلة الأنبياء - وهذه حقيقة ثابتة، وجريمة انفردوا بها فى التاريخ بين الشعوب - ورذيلة تضاف إلى صحائف أعمالهم فتزيدها قبحا وسوادا، وتلطخ جبين كل يهودى بعار بالغ فى شناعته وقسوته، وجبنه ونذالته.

وحين نرجع إلى القرآن الكريم نجد تصويرا دقيقا لهذه الجريمة، فيه إشارة للأسباب، وفيه توضيح موضوعى للعمل الخسيس الذى ارتكبوه، وفيه تبيين للعقاب الذى ينتظرهم عند الله.

- فى سورة البقرة، يقول الكبير المتعالى: ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله - ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق** ﴾ سورة البقرة آية ٦١.

- ويقول : ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا، ويكفرون بما وراءه، وهو الحق مصدقا لما معهم، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين** ﴾ سورة البقرة آية ٩١.

- وفى سورة آل عمران يقول سبحانه : ﴿ **إن الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس،فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ سورة آل عمران آية ٢١.

هذه الآيات تثبت الجريمة، وتثبت إصرارهم عليها - والتاريخ يروى أنهم قتلوا كثيرا من الأنبياء، وكرروا هذه الرذيلة القاسية فى عصور مختلفة، فهى طبيعة فهم، وغريزة سوداء امتزجت بدمائهم، وأصبحت عنصرا من عناصر تكوينهم المادى والنفسى، ومؤثرا فعالا فى تفكيرهم ومشاعرهم :

لقد قتلوا (أشعيا) فى منتصف القرن الثامن قبل ميلاد المسيح.

وقتلوا (أرميا) رمياً بالحجارة حين أكثر من لومهم، وبالغ فى نهيهم عن المنكرات والمفاسد.

وقتلوا (يحيى) لأن ملكهم غضب عليه، وسبب الغضب أن يحيى لم يتح له أن يتزوج من ابنة أخته، وكانت بينهما غواية.

وقتلوا (زكريا) حين حاول الدفاع عن ابنه (يحيى) عليهما السلام.

وقتلوا (حزقيال) النبى - قتله أحد قضاتهم حين نهاه عن المفاسد والمظالم.

ثم زعموا أنهم قتلوا (عيسى) عليه السلام، وافتخروا بذلك، وكذبهم القرآن الكريم، لكنهم حين زعموا ، وحين افتخروا أثبتوا على أنفسهم نوع الجريمة، وهى ثابتة بالعزم والإصرار، ثم بالادعاء والافتخار، ولا يخفف منها أن الله نجاه منهم على الرغم من العزيمة والتصميم.

وأخيرا حاولوا قتل خاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم فنجاه الله من كيدهم، وأعزه ودينه وصحبه وكتابه، وأعطاه القدرة عليهم فطردهم من جزيرة العرب، وتركهم للضياع والهوان.

- صورة من الجرائم لم تقع من شعب آخر، ولم يتقبلها ضمير بشرى غير ضمير اليهود إن كان لهم ضمير - ولقد أشار القرآن إلى تكرر الجريمة منهم حين قال : ﴿ **أفكلما جاءكم رسول بمالا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون** ﴾ سورة البقرة آية ٨٧ - والآية جاءت فى صيغة سؤال يحمل معنى التوبيخ والاستنكار لهذه الجريمة البشعة.

والمتأمل فى الآيات السابقة يرى أن القرآن يتحدث عن كفر اليهود قبل حديثه عن قتلهم الأنبياء ﴿ **ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق** ﴾ سورة البقرة آية ٦١. ﴿ **إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، فبشرهم بعذاب أليم** ﴾سورة آل عمران آية ٢١.

فأساس القضية هو الكفر، الكفر الذى طمس بصيرتهم، وحجب نور الحق عنهم، وأراهم الخير شرا والشر خيرا، فجاز لهم - بعد ذلك - فى شرعهم المقلوب، أن يقتلوا الهداة، ودعاة الخير والإصلاح.

والقرآن يقول : إنهم يقتلون النبيين بغير الحق، وقتل الأنبياء لا يكون بحق أبدا - فلماذا جاء هذا التعبير؟ جاء هذا التعبير ليبين أن قتل الأنبياء بعيد عن الحق الثابت فى الشرائع، وبعيد عن الحق المزعوم عند اليهود، أى أنهم لم يزعموا حتى حين قتلوا الأنبياء أنهم قتلوهم بحق - فقد كانوا يعلمون أنهم على الباطل، وأن عملهم فيه استهانة بكل المبادئ والحقوق.

ولما كان عملهم هذا عدوانا على مقام النبوة، ومخالفة لكل المبادئ والقوانين نسب الله إليهم قتل الأنبياء جميعا - لأن من قتل عددا من الأنبياء فكأنما قتل كل الأنبياء مادام مستهينا بالشرائع، وهذا كقوله تعالى : ﴿ **من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من**

قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ﴾ سورة المائدة آية ٣٢ - عملهم هذا عدوان على فكرة النبوة نفسها، وعدوان على مبدأ الإصلاح والدعوة إلى الله، ولهذا قتلوا المصلحين من غير الأنبياء.

﴿ **ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس** ﴾ سورة آل عمران آية ٢١ - فهو تصوير لما طبعت عليه النفس اليهودية من الانحراف والسوء،والضيق بفكرة الخير والنور، والبعيد عن السلام والأمان والصلاح والإصلاح للمجتمعات البشرية.

وبعد - فلن أطيل فى الحديث عن الجزاء - واكتفى بما قاله الصادق الأمين «أشد الناس عذابا يوم القيامة - رجل قتله نبى، أو قتل نبياً».

وبما قاله الله تعالى فى ختام الآيات التى قرأناها من سورة آل عمران : ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم ، أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة، ومالهم من ناصرين** ﴾ سورة آل عمران آيات ٢١، ٢٢.

حبهم للحياة : -

ونعود إلى القرآن الكريم باحثين عن صور أخرى للطبيعة اليهودية فنجد العجب الغريب، هؤلاء قوم يحبون الحياة أشد الحب، ويحرصون عليها كل الحرص، يتمسكون بها ولو كانت ذليلة ضائعة، ويتمرغون فى ترابها ولو كانت حقيرة تائهة، وحبهم للحياة يدعوهم للتمسك بها مهما كانت بعيدة عن الكرامة والشرف، ومهما لا قوا فى سبيلها من مهانة، وأراقوا من أجلها دم الوجوه.

﴿ **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة، ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر، والله بصير بما يعملون** ﴾ سورة البقرة آية ٩٦.

هكذا صور القرآن حبهم للحياة، وهكذا رسم لوحة الذلة والجبن، واللهفة على البقاء فى الدنيا مهما كان فيها من هوان وحرمان وضعة.

وتأمل يا أخى فى أسرار التعبير القرآنى :

لتجدنهم - فعل مؤكد، ومفهومه أنك حتما ستجد هؤلاء القوم على هذه الصفة القبيحة فى أى مكان بحثت عنهم، وفى أى زمان كان هذا البحث.

ثم هم أشد الناس حرصا على الحياة - هكذا - حرصهم على الحياة فاق حرص الناس جميعاً فى كل زمان ومكان.

ثم إن حرصهم هذا ليس حرصاً على الحياة الكريمة العزيزة، وإنما هو حرص على مجرد حياة أى (حياة) - بأى لون - وبأى شكل - وبأى صورة، فليس المهم هو نوع الحياة، وإنما المهم هو مجرد البقاء.

وإذا سرت مع ألفاظ الآية الكريمة وجدت تأكيدا للصورة فى قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ **يود أحدهم لو يعمر ألف سنة** ﴾ سورة البقرة آية ٩٦ - فكل واحد من اليهود يتمنى بكل ما يملك من مشاعر وأحاسيس أن يعيش أطول زمن ممكن، ألف سنة، عشرة آلاف سنة، لا نهاية للعد - وما ذكر القرآن هذا الرقم إلا لأنه نهاية لعدد كبير يتخيله الناس خيالا بعيد المنال، ولا يتصورون الوصول إليه حتى فى الأحلام والأوهام.

وفى الآية بعد ذلك - إشارة إلى سبب من أسباب حبهم للحياة - وهو خوفهم من المصير، إنهم يعرفون سوء العاقبة، لقد تعدوا على مقام الألوهية، وقتلوا الأنبياء، وأفسدوا فى الأرض، وفعلوا كل ذلك عامدين، والنهاية معروفة لهم، فهم يفرون منها، ويتمسكون بأى لون من ألوان الحياة.

لكن القرآن يردهم إلى صوابهم إن كان عندهم صواب فيقول :

﴿ **قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ سورة الجمعة آية ٨ - وقد وردت هذه الآية تعقيبا على زعمهم أنهم أحباب الله وأولياؤه، قال تعالى : ﴿ **قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين - ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم** ﴾ سورة الجمعة آية ٦، ٧ - أى بسبب ما قدمت أيديهم من جرائم - ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾.

وحب اليهود للحياة كان سببا فى صفة حقيرة أخرى أصبحت عالقة بهم، وهى صفة الجبن. والهروب من القتال. وهى صفة طبيعية لمن يحب الحياة - إنه يفر من الموت، ولا يقاتل إلا عند الضرورة، ولهذا تمسك اليهود فى حروبهم بأن يقاتلوا من خلال الحصون والقلاع - هكذا كانوا قديما، وهكذا هم حديثا.

أما فى القديم فقد قال الله تعالى عنهم : ﴿ **لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة، أو من وراء جدر، بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ سورة الحشر آية ١٤ - ولقد قاتلوا النبى من وراء الحصون والجدران، فلم تنفعهم هذه الحصون والجدران، ونصره الله عليهم.

وأما فى العصر الحديث فقد رأيناهم يقيمون القلاع والجدران على شاطئ القناة، وفوق صخور الجولان، ولكنها حين آن الأوان لم تغن عنهم شيئا، ثم رأيناهم يربطون جنودهم إلى الطائرات والدبابات بسلاسل الحديد حتى لا يفروا من الميدان، وصدق الله : ﴿ **تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى** ﴾ سورة الحشر آية ١٤.

إن تصوير القرآن تصوير حسى - فيه الدقة والأمانة والصدق، وها هى ذى الأحداث تثبت بعد آلاف من الأعوام أنهم أحرص الناس على حياة، وأنهم مهما فروا من الموت فإن الموت ملاقيهم، ولن يكون النصر حليفهم مهما طال الزمن.

﴿ **لن يضروكم إلا أذى، وإن يقاتلوكم، يولوكم الأدبار، ثم لا ينصرون** ﴾ سورة آل عمران آية ١١١.

تحايلهم على الشريعة وتلاعبهم بالدين :

إن المتأمل فى القرآن الكريم يرى تصويره لليهود ممتدا واسعا، يصور الماضى والحاضر والمستقبل، ويتناول طباعهم، وعاداتهم الفردية والاجتماعية، ويرسم أبعادا مختلفة للصورة، وظلالا متباينة تلوح فى جوانبها، وتتصل بالحرب والسلم، بالخير والشر، بالفكر والعمل، بالرأى والهوى. بكل الصفات البشرية على تنوعها وتباينها.

ونريد أن نعرض لصفة أخرى من صفات اليهود، هى «التحايل على الشريعة والتلاعب بالدين، والالتفاف حول حدود الله». وتظهر هذه الصفة الذميمة فى قصة أصحاب السبت التى ذكرها القرآن الكريم فى سور كثيرة، وخلاصتها أن الله تعالى أمرهم بأن يكون هذا اليوم يوم عبادة وطاعة، وحرم عليهم فيه الصيد وكل أنواع العمل، ثم أراد اختبارهم فأكثر من ظهور السمك فى البحر فى هذا اليوم، فكانوا ينظرون إلى الحيتان يوم السبت وهى تملأ البحر بجوار الشاطئ فتصيبهم بالحسرة والألم لأنهم لا يستطيعون صيدها، أما فى بقية أيام الأسبوع فإن الحيتان تختفى، ولا يجدون شيئا يصيدونه، وفكروا فى حيلة يخرجون بها على التعاليم فقالوا : نحفر أحواضا كثيرة على الشاطئ، فإذا كان يوم السبت وكثرت الحيتان فتحنا الأحواض فاندفع إليها الماء ومعه السمك فنحبسه إلى يوم الأحد ثم نصطادها، وقال جماعة منهم : هذا تحايل على الشرع، وعدوان على التعاليم، فلم يستمعوا إليهم ونفذوا ما عزموا عليه فكان جزاؤهم أن غضب الله عليهم، ومسخهم قردة، وصاروا مثلا يحكى على الأيام، وعبرة تروى على الزمان - وفى تصوير هذه القصة جاءت آيات كريمة من سورة الأعراف . قال تعالى : ﴿**واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ، إذ يعدون فى السبت - إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون - وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم ، أو معذبهم عذابا شديدا ، قالوا معذرة إلى ربكم ، ولعلهم يتقون ، فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء . وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ، فلما عتوا عما نهوا عنه ، قلنا لهم كونوا قردة خاسئين**﴾ . سورة الأعراف آيات ١٦٣ , ١٦٦ .

والخطاب فى الآية لمحمد صلى الله عليه وسلم، فالله تعالى يقول له : يا محمد اسأل اليهود من أهل زمانك عن أهل هذه القرية الذين يتحايلون على تعاليم الله، فإنهم يعرفون قصتهم، ويعرفون عاقبة أمرهم - وهو سؤال فيه معنى اللوم والتوبيخ لليهود - والقرية هى قرية أيلة على شاطئ البحر الأحمر، وتأمل يا أخى المسلم كلمة يعدون لترى كيف عبر القرآن عن عملهم بأنه عدوان، ثم تأمل كلمة (عتوا) فى قوله (فلما عتوا عما

نهوا عنه) لترى كيف صور القرآن فعلهم بأنه عتو أى مجاوزة للحدود المعقولة فى الاستكبار مع التجبر، والمبالغة فى ركوب المعاصى، والتمرد على أوامر الله سبحانه.

أما قوله تعالى : ﴿**فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين**﴾ سورة البقرة آية ٦٥ - فقد يكون المعنى على ظاهره، ومعناه حينئذ أن الله مسخهم فعلاً قردة، وقد يكون المعنى أن الله مسخ خلقهم، ومسخ نفسياتهم فأصبحت صورهم قبيحة مثل القردة، وصارت أفعالهم ونفوسهم شريرة، قال الإمام الألوسى : الأمر هنا أمر تكوينى لا تكليفى - فالله تعالى لم يكلفهم بذلك، وإنما أراد لهم أن يصبحوا قردة فكان ما أراد - فهو كقوله :﴿**إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون**﴾ سورة النحل آية ٤٠.

وما كانت قصة السبت فى ذاتها لتستحق أن تروى لولا ما فيها من عبر، ومن إرادة لتصوير الأخلاق اليهودية، والطباع القائمة على التحايل والتلاعب بالشرائع السماوية - وفى ضوء هذا نستطيع أن نفهم لماذا قصها القرآن الكريم، ولماذا كرر الحديث عنها فى آيات أخرى :

قال الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿**ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين، فجعلناها نكالا لما بين يديها، وما خلفها، وموعظة للمتقين**﴾ سورة البقرة آيات ٦٥، ٦٦ - فهى إذن الموعظة والعبرة للذين عبدوا الله واتقوه.

وفى سورة النحل بين القرآن أن العقوبة التى حلت باليهود كانت بسبب تعديهم على حدود الله وتعاليمه : ﴿**إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه، وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ سورة النحل آية ١٢٤ - ويؤكد هذا قوله تعالى فى سورة النساء : ﴿**يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت، وكان أمر الله مفعولا**﴾. سورة النساء آية ٤٧.

- ونحن يا أخى المسلم مطالبون بأن نأخذ العظة والعبرة من هذه الآيات، وبأن نتقبل أوامر الله، ونقف عند حدوده، ﴿**ومن يعص الله ورسوله، ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها، وله عذاب مهين**﴾ سورة النساء آية ١٤.

وبهذا نصحنا النبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه حين قال : **(لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل)**.

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه :

«قاتل الله اليهود - حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها».

حفظ الله علينا نعمة الدين، ومكن لتعاليمه فى قلوبنا، وهدانا بفضله إلى الصراط المستقيم.

اليهود هم اليهود : -

قد يظن بعض الناس أن الفكر اليهودى فكر معاصر، وأن المجتمع اليهودى تحكمه الآن روح الزمن الذى نعيش فى ظلاله، وأن طباع الغدر والتلون، ونقض العهود والمواثيق التى ظهرت مع أحداث الحياة اليوم إنما هى وليدة سياسة عصرية، أو رؤية للأوضاع السائدة فى العالم، أو فلسفة جديدة دعتهم إليها ظروف الحياة فى القرن العشرين ، قد يظن بعض الناس هذا، لكن الحقيقة أن يهود اليوم هم أبناء يهود الأمس، وأن العرق دساس، وأن أسلوب حياتهم الذى نراه إنما هو ميراث تناقلوه عن الآباء والأجداد - والقرآن الكريم يحدثنا أصدق الحديث عن هؤلاء اليهود، والآيات الكريمة التى نزلت على محمد صلوات الله وسلامه عليه منذ ألف وأربعمائة عام تقريبا شاهد صدق على أمرين - أولهما أن يهود اليوم هم أبناء الأمس، وثانيهما أن القرآن وحى من السماء - يقول فلا يقول إلا صدقا، ويتحدث فلا يروى إلا حقا، وينطق فلا ينطق إلا الحكمة، ولا يهدى إلا إلى الخير.

يقول اليهود اليوم إنهم عنصر ممتاز، وإنهم خلاصة لجماعة بشرية نقية، فضلها الله، وجعلها خاصة به - وهو قول تظهر فيه الأنانية القبيحة، والعنصرية البغيضة، وما كان الله ليخلق عبيده أصنافا، ثم يختار صنفا من بينهم يميزه بالحب والرعاية - إن مقياس التفضيل عند الله هو التقوى والطاعة.

تأمل يا أخى المسلم قول الله : ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه – قل : فلم يعذبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشر ممن خلق – يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما، وإليه المصير** ﴾ سورة المائدة آية ١٨.

هى دعوى التمييز – ينفيها القرآن بحجة منطقية قوية – إذا كنتم تدعون أنكم أحباب الله ، وأن الله قد جعلكم أبناءه من دون الناس – فلماذا إذن يعذبكم بسبب الذنوب والمعاصى؟

إن المحب لا يعذب أحبابه، بل يلتمس لهم الأعذار – وإن الأب لهو الراحم لأبنائه يدفع عنهم المكاره، وإن الله حين ينزل بكم العذاب لا يفعل إلا العدل. ولا يضعكم إلا حيث يجب أن تكونوا – بشرا ممن خلق – لاميزة لكم على أحد، بل لعل فى التعبير ما يشير إلى شئ من تحقير. فمن أحسن منكم فله جزاء إحسانه، ومن أساء فعليه إثم الإساءة والملك لله وحده، يتصرف فيه بعدله، وإليه مصير الخلق أجمعين، وإليه ترجع الأمور .

– فما يدعيه اليهود اليوم هو ميراث قديم، وما يطبع سلوكهم من تلون ونفاق، ومن غدر وخديعة، ومن نقض للعهود وخروج على المواثيق، وبُعد عن الشرف – إنما هو نتاج تاريخ طويل طويل. وكيف لا؟ وقد نقضوا المواثيق مع الله : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم، ورفعنا فوقكم الطور، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا – قالوا سمعنا وعصينا، وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم – قل بئسما يأمركم به إيمانكم – إن كنتم مؤمنين** ﴾ سورة البقرة آية ٩٣ – نعوذ بالله من سوء الضمير، ومن سوء التعبير، ومن سوء المصير – ﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا – قالوا سمعنا وعصينا** ﴾. فهل بعد هذا عصيان وجهل وكفران؟

وقد أستطيع أن أدلل لك يا أخى المسلم على عمق هذه الطباع الفاسدة الظالمة فى نفوس اليهود وتاريخهم – حين أرجع بك إلى كتابهم المقدس – إلى التوراة التى حرفوها، وإلى سفر التكوين فيها لترى صدق ما أقول :

فى سفر التكوين قصة عجيبة وقعت بين (عيسو ويعقوب) – وَلَدَىْ اسحق بن ابراهيم – وفيها إثبات لفكرة الأنانية، والرغبة فى التميز، وحب الذات، والاعتماد على الخديعة والحيلة فى الوصول إلى الغاية.

وعيسو فى رواية التوراة هو بكر اسحق، وقد نشأ صيادا يعيش فى البرية، ونشأ أخوه يعقوب فى الحضر - وكان يعقوب هو المحبوب عند الأم لأن عيسو تزوج على غير رغبتها. وكانت بينها وبين زوجة ابنها عداوة وجفوة.

ويروى سفر التكوين هذا أن يعقوب طبخ طبيخا، وقدم عيسو من البرية تعبا جائعا، وطلب من أخيه أن يطعمه، فأبى يعقوب إلا بمقابل - وطلب منه أن يتنازل عن حقوقه باعتباره بكر أبيه - وقال عيسو : إنه صائر إلى الموت ولا حاجة له فى هذه الحقوق، وتنازل ليعقوب عنها، وحلف له على ذلك حتى أطعمه.

ليست هذه أسطورة من أساطير التاريخ القديم، لكنها حكاية ترويها توراة اليهود، وهى تعلمهم مبادئ فى غاية الخطورة.

تعلمهم أن صلة الأخوة لا قيمة لها، وأن الغاية تبرر الوسيلة، وأن الدين يبيح للناس كل الأساليب فى سبيل الذات والأهواء.

فأين هذا من تعاليم كتابنا؟ أين هذا من الأخوة الشاملة بين المؤمنين؟ - أين هذا من صلة الرحم التى نادى بها ديننا؟ - أين هذا من رسالة السماحة والتعاون والمحبة التى جاء بها محمد؟ - إن الفرق لكبير - وهو فرق بين السماء والأرض - بين رسالة من عند الله ، ورسالة من صنع البشر.

يارب أسألك أن تنصر الإسلام وتعز المسلمين وأن تعلى بفضلك كلمتى الحق والدين وانصرنا على القوم الكافرين

وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد.

والحمد لله رب العالمين

ثمار العلم

الحمد لله العليم الخبير

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وبعد..

علمتنا التجربة أن قيمة الشىء تظهر فى آثاره ونتائجه، ولقد يملك أحدنا مصدرا للثروة ويجهل طريقة استغلاله حتى إذا وقع فى يد غيره اكتشف أسراره، وأخذ ثماره، وحقق به كل ما يريد - وقد يمنح الله إنسانا ما عقلا ذكيا، وذهنا متوقدا لكن ظروف الحياة تحرمه نعمة التعليم فيبقى فى ظلمات الجهل على الرغم من هذا العقل الذكى والذهن المتوقد - وكم من رجل يعيش على هامش الحياة لو أتيحت له فرصة التعلم لكان مصدر نفع لنفسه وللبشرية - والحياة حظوظ.

لكن العلم وحده لا يخلق مجموعة متساوية فى الفهم والنفع والوقوف على حقائق الخير والرشاد قد تبذل النصح لغيرك، وتتيح المعرفة لألوان من الناس : أما بعضهم فينتفع وينفع، وأما الآخرون فيبقون كما كانوا كأنك لم تقل وكأنهم لم يسمعوا - وكم من زميلين التقيا على مقعد الدراسة، وتجاورا فى الاستماع إلى الأستاذ، أما أحدهما فيعى ويعرف، ويخرج إلى الدنيا فيملأ الأسماع والأذهان والقلوب، ويؤثر فى مجرى التاريخ - وأما الثانى فيضيع فى الزحام - وصدق الرسول العظيم «إنما أنا قاسم والله معطى» وصدق الله ﴿**فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض**﴾ سورة الرعد آية ١٧ - المعرفة المجردة لا تكفى، والعلم وحده لا ينفع، وإنما يجرى العلم ويثمر أطيب الثمار إذا لقى أرضا خصبة وعقولا واعية، وقلوبا متفتحة - ولقد وضح لنا الرسول ﷺ هذه الحقيقة فى حديثه الجامع : قال : «مَثَلُ ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً - فكان منها نقيةُ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير - وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس : فشربوا وسقَوا وزرعوا - وأصاب

منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تُمسك ماء، ولا تنبت كلأ - فذلك مثَلُ من فقُه فى دين الله، ونفعه ما بعثنى الله به فعلمَ وعلّم، ومثَلُ من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبلْ هدى الله الذى أُرسلت به».

فى هذا التصوير الفنىّ الرائع يقدم الرسول ثلاثة أصناف من الناس أشرق عليها نور الرسالة الإسلامية، وجاءها غيث التعاليم المحمدية، فاختلفت الحظوظ وتنوعت :

أمــا الصنف الأول : فأهل الحق والنفع، وأقرب الأصناف إلى الله - أولئك الذين علموا - فعملوا ثم عَلَّمُوا . استنارت عقولهم بنور الله، وارتوت قلوبهم بغيث المعرفة المحمدية - فأقبلوا على نفوسهم الخصيبة يزرعون الخير، ويغرسون بذور المنفعة، فلما أثمرت - بعد تعب ورعاية - كان ثمرها شهيا جنيا فأقبل الناس عليه يقطفون ويأكلون - هؤلاء هم العلماء العاملون الناصحون : يهذبون أنفسهم، ويربون ضمائرهم، ثم يُقبلون على الناس بالنصح والتعليم والتوجيه - لا يضنون برأى، ولا يمنعون الناس نصيحة، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فهم كالشجر الطيب، أصله ثابت، وفرعه فى السماء، يؤتى أكُلَهَ كل حين بإذن الله.

وأما الصنف الثانى فجماعة من الناس يقبلون على العلم دراسة وفهما وتحصيلا، وتتسع جوانب معرفتهم، ويتسامع الناس بهم فيقبلون عليهم لينتفعوا بهذاالعلم - ولكنهم ينسون أنفسهم فلا يقدمون لها منفعة - وما أشبههم بالبحيرة التى يتجمع فيها الماء، وتصبح مثابة لكل ظامئ يردها فيشرب ويرتوى، وقد يحمل من مائها ما يريد إلى أرض بعيدة عاطلة من الزرع والثمر، فإذا هى بعد حين جنة من جنان الأرض، حاليةُ بالأزهار والبساتين وصدق الرسول الكريم «رب مبلغ أوعى من سامع».

وهؤلاء الناس أقل قيمة فى ميزان الخير والمنفعة - إن الذى ينقل العلم دون أن يفيد نفسه، أو يُهذب وجدانه، ودون أن يعمل بما علم يكون أقرب إلى الجهل - لكنه لا يصل إلى مرتبة الجاهل التى صورها القرآن المعجز فى حديثه عن اليهود الذين أنكروا تعاليم التوراة، وانفصلوا عنها بعد أن عرفوها فكانوا كما قال القرآن ﴿ **كمثل الحمار يحمل أسفارا** ﴾ سورة الجمعة آية ٥ - أما الذين صورهم الرسول فى حديثه فإنهم لا يفسدون الماء، بل يحتفظون به نقيا، ويقدمونه لغيرهم، فهم لا يغيرون الحقائق، ولا يبدلون المعارف.

أما الصنف الثالث فهم الذين انصرفوا عن دعوة الحق، وأنكروا الخير - رأوا النور فعميت عنه قلوبهم وأبصارهم - ونزل عليهم الغيث فتركوه يذهب فى جوانب الأرض، لم ينتفعوا هم، ولا نفعوا غيرهم - فهم كالأرض القيعان : لا تحفظ ماء، ولا تنبت ثمرا.

وقد نسأل أنفسنا :

ولماذا لم يذكر الرسول ﷺ فى تصويره الناطق هذا بقية ما يقتضيه التقسيم العقلى لأصناف الناس؟ ألا يوجد بعض الناس الذين يعبدون الله ويخشونه دون معرفة؟ أعمالهم كلها صالحة، وصلتهم بالله نقية - لكنهم يعبدون الله على غير معرفة، وليس عندهم علم ينقلونه لغيرهم.

وإجابة عن هذا السؤال أقول : لقد قصد الرسول البليغ إلى ذلك، وأهمل هذا الصنف من الناس عمدا، ليوضح لنا الحقيقة الكبرى : «لا تقوى بدون معرفة، ولا دين مع جهل، ولا يليق بالمسلم أن يعبد الله على غير أساس».

الجهل جريمة كبرى لا تقبل من المؤمن حتى ولو كان تقيا صالحا.

الرسول يريد منا أن نعرف - وأن نعمل بما نعرف، وأن نُقدم إلى غيرنا ثمار معرفتنا، ونتائج علمنا أما ما وراء ذلك من علم بعيد عن العمل - أو عمل يناقض العلم - أو عمل بدون علم فأمور يجدر بالمؤمن أن يبتعد عنها.

يأيها المسلم الكريم : كن كما أراد لك دينك - عالما عاملا نافعا.

كن مصباحا يستمد زيته من نور الحق، فينير، ويمتد ضوؤه إلى كل مكان.

﴿ **نور على نور - يهدى الله لنوره من يشاء** ﴾ سورة النور آية ٣٥.

فاللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

دعوة إلى المعرفة

أحمدك ربنا حمد الشاكرين وصلاة وسلاماً على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا ومولانا محمد وأشهد أن لا إله إلا الله دعانا فى القرآن إلى التأمل والتفكر والتدبر والمعرفة وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وبعد..

فياأيها الناس..

إن القرآن يدعو إلى المعرفة - آيات ونماذج من هذه الدعوة - **دعوة شاملة للكون كله** - سقراط يدعو إلى معرفة النفس فقط دعوة إلى استخدام العقل - الأدلة الكونية ملموسة ولكنها متنوعة، هل توجد أدلة عقلية - الغاية من المعرفة .

لماذا ران علينا الجهل إلى الآن مع هذه الدعوة الصريحة؟

حظيت المعرفة بكل تقدير فى الدين الإسلامى الحنيف - فهى فيه الأصل والغاية - عليها تبنى العقيدة، وإليها تنتهى كل آمال بعيدة المدى لا ترضى بشىء يقل عن شهود الحق تبارك وتعالى.

أول آيات الكتاب الكريم فيها دعوة واضحة إلى القراءة والعلم، وهما من أهم مصادر المعرفة ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق - خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم - علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ سورة العلق آيات ١ : ٥ .

وكثير من آياته تجعل الكون كتابا مفتوحا، وتدعو إلى التأمل فيه، والبحث عن أسراره وعجائبه حتى تنتهى النفس المتشوقة إلى غاية تبنى عليها العقيدة، وتقيم دعائم الإيمان، والقرآن الخالد يوضح فى جلاء أن العالم لم يخلق عبثا ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين - ما خلقناهما إلا بالحق** ﴾ سورة الدخان آية ٣٩ - واقرأوا معى هذه الآيات البينات على أنها نماذج من دعوة القرآن إلى التأمل فى الكون :

١ - ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾ سورة آل عمران آية ١٩٠.

٢ - ﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة - إن الله على كل شيء قدير** ﴾ سورة العنكبوت آية ٢٠.

٣ - ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾ سورة الروم آية ٢٢.

٤ - ﴿ **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾ سورة يونس آية ١٠١.

بل إن الخالق جلا وعلا ليدعو الناس إلى البحث فى أجزاء معينة من هذا الكون :

كالنجوم وأسرارها ﴿ **وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر** ﴾ سورة الأنعام آيه ٩٧ - والظل وحركة الشمس ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مدَ الظل، ولو شاء لجعله ساكنا - ثم جعلنا الشمس عليه دليلا** ﴾ سورة الفرقان آية ٤٥ - والنفس البشرية وما فيها ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ سورة الذاريات آية ٢١.

دعوة وراء دعوة يسوقها كتابنا المقدس داعيا إلى المعرفة بكل وضوح وجلاء.

وأحب أن ألقى ضوءا خفيفا على (المعرفة) فى الإسلام لنرى مقدار ما فيها من الكمال إذا وازنا بينها وبين غيرها من ألوان المعرفة التى عرفها المفكرون والفلاسفة.

١ - لقد دعا سقراط أبو الفلسفة اليونانية إلى المعرفة فقال (اعرف نفسك) - وكان يرى أن معرفة النفس تكفى - وهذا رأى تظهر ضآلته أمام (المعرفة) فى الإسلام - فهى معرفة عامة شاملة كاملة - معرفة تتناول النفس، والسماء والأرض، وحركة الفلك، وأسرار الرياح، معرفة تمتد إلى آفاق أبعد من أن يدركها مفكر إنسانى مهما اعتز به قومه.

٢ - والمعرفة شيء أكبر من الاعتقاد - ذلك لأن الاعتقاد إلهام شعورى ناشئ عن علل بعيدة عن إرادتنا تتكون من الوراثة والبيئة وعوامل كثيرة - أما المعرفة فاقتباس عقلى قائم على الاختبار والبحث والتأمل والتجربة - وإيمان العوام قد ينشأ عن (الاعتقاد) أما إيمان المؤمن الكامل الباحث فينشأ عن (المعرفة) - وقد تكتفى الأديان الأخرى بمجرد الاعتقاد - أما الإسلام فيريد معرفة حقيقية قائمة على النظر، وإعمال الفكر، واستخدام العقل - وبهذا تتكون أرقى أنواع الإيمان، أو أعلى درجات العقيدة.

٣ - اعتقاد الأمى إلهام أو بداهة أو فطرة - أما اعتقاد العالم الباحث فنظر وفكر - والفكر والبداهة لا يتعارضان - بل ينبعان من أصل واحد - ويكمل كل منهما الآخر - والمهم أن نعرف أن الدين الإسلامى لا يريد عقيدة الفطرة أو البداهة أو ما نسميه نحن اليوم (التقليد) - وإنما يريد عقيدة الفكر والبحث والمعرفة الصحيحة.

٤ - نَصيب الإنسان فى الوجود شاق ﴿**لقد خلقنا الإنسان فى كبد**﴾ سورة البلد آية ٤ - إنه يقاوم ما فى الكون من قوى تحيط به - فإذا انتصر عليها وصل إلى درجة أعلى من المعرفة - أما إذا قهرته فإنه يجد ينبوع السعادة فى أعماق نفسه هو - فى روحه - لأنه لا مثيل لهذه الروح الإنسانية فى قوتها - وفى إلهامها وفى جمالها - والإنسان كما صوره القرآن الكريم (قوة - مبدعة - متسامية - دائما تترقى من درجة فى الكمال إلى درجة أعلى :

﴿**فلا أقسم بالشفق - والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق - لتركبن طبقا عن طبق**﴾ سورة الانشقاق آيات ١٦ : ١٩ - درجة بعد درجة من الرفعة، والسمو الروحى، والكمال الوجدانى - ووسيلتنا إلى ذلك كله إنما هى (المعرفة) .

أيها المسلمون - هذا هو ديننا - وهذه هى المعرفة التى يدعو إليها. فأين موقفنا منها؟ أين نحن من البحث والإدراك والتأمل؟

أين نحن من الكمال والتسامى وصعود الدرجات؟

ليتنا نعرف حقائق ديننا - ليتنا نؤمن بالبحث والتأمل - ليتنا نكون أهلا لما يدعونا إليه ديننا من العلم والمعرفة.

اَلْقَـمَـرُ - الْقلم - الْعلم - الْوَلد - الْبستان - الْوَالد - اَلشَّمّسُ - النورُ - الذَّهب - النّيل - اللَّيْل - النجوم.

فاللهم بصرنا بأمور ديننا ووفقنا لما فيه الخير والصلاح.

من آيات الله

(١) الليل والنهار

الحمد لله : نحمده ونستعينه ونستهديه ونسترضيه ونستغفره.

ونشهد أن لا إله إلا الله له فى كل شىء آية تدل على أنه هو الواحد وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور وأخذ بأيديهم إلى طريق الله المستقيم فصلاة وسلاماً دائمين متلازمين عليه إلى يوم الدين.

أما بعد : -

فالكوُن : كتاب مفتوح - سطورُه من نور وحكمة، وحروفه من علم ورحمة، وكلماته وحىٌ يتجدد، وحق مؤكد، ونبعُ يفيض بالخير والمعرفة.

الكون صفحات : تطالع العيون والآذان، وتخاطب العقول والوجدان، وتتركُ العبد خاشعا أمام عظمة المعبود، قد لان منه الجماد، وتطامن منه الغرور، واعترف لله فاطرِ السموات والأرض بما يليق بجلاله من تقديس وتمجيد.

هكذا أراد الله من كونه، وهكذا أراد الله لخلقه، فعرض عليهم هذا الكتاب، صفحة بعد صفحة، وآيةً تتلو آية، وبيّنةً. تتبع بينة والعاقل من تأمّل وفكر ﴿**قل انظروا ماذا فى السموات والأرض، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون**﴾ سورة يونس آية ١٠١ - الكون آيات بعد آيات، وعلامات وراء علامات، ودلائل خلف دلائل، وبراهين تؤكد براهين :

وفى كل شىء له آيةٌ تدل على أنه الواحد

وعهدنا بالكتاب - أىِّ كتاب - ألا يقرأه إلا من تعلّم - أما كتاب الكون فمفتوح أمام كل عين، مقروء من كل إنسان، حتى ولو كان أميا، أو لا يكاد يُبين - وعهُدنا بالكتاب - أىّ كتاب - أن يسعى إليه القارئ، وأن يبحث عنه الراغب، أما كتاب الكون فيسعى هو إلى الناس حيث كانوا ، ويعرض نفسه عليك، رغبتَ فيه أو رغبت عنه، بحثت عنه أو لم تبحث - وسبحانك يارب ، دعوت الناس إلى طاعتك، ودللتهم على طريقك، وأقمت عليهم الحجة، وجعلت البرهان القاطع قائماً فى كل نفس، واضحا فى كل عين، ثاقبا فى كل أذن، مدويا فى كل قلب، خفيرًا على كل طريق - فأمّا من آمن واتقى، وصدق بالحسنى، فقد

يسّرتَه لليسرى - وأما من ضلّ وغوى، وكذّب بالحسنى، فقد عمى عن الهدى - حتى إذا ما جاءك يوم القيامة أعمى، وقال : يارب لم حشرتنى أعمى وقد كنتُ بصيرا؟ قلتَ (وقولُك الحق) : ﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى** ﴾ سورة طه آية ١٢٦.

أيها المسلمون : من رحمة الله بعباده أنه يعرض عليهم آياته فى صور متكررة دائمة، ليمنحهم فرصة بعد فرصة، وتمضى معهم الآية : تطالعهم كلما أشرق عليهم صباح، وتنبههم كلما نزل بهم مساء.

وما أعظم آيته الكبرى حين جعل الزمان قسمة بين ليل ونهار، وخلفة بين صباح ومساء، وتردداً بين ظلام ونور، ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة، لتبتغوا فضلا من ربكم، ولتعلموا عدد السنين والحساب، وكلَّ شىء فصلناه تفصيلا** ﴾ سورة الإسراء آية ١٢.

فالليل آية، والنهار آية ، واختلافهما آية.

وآية الليل مظلمة، وآية النهار مبصرة - وبضدها تتميز الأشياء

تطلع الشمس فتبدأ آية النهار : مشرقةً وضّاءة، مبصرة مثيرة، فيها الحياة والحركة، وموكب من جلال وبهاء وروعة، ودنيا تموج بالعمل والنشاط . وفى كلٍّ آية.

وتغرب الشمس فتبدأ آية الليل، مظلمةً ساكنة، داجية هامدة، فيها هدوء وسكون وراحة، ودنيا من الرهبة والخشية - وفى كلٍّ آية.

وبين الليل والنهار يتجدد الإنسان : فى نفسه وغذائه - فى عقله ويقينه - فى معرفته وعلمه - ويعرفُ من أسرار الكون ما يريده له الله. ولهذا قال سبحانه ﴿ **ولتبتغوا من فضله** ﴾ سورة الإسراء آية ١٢ وقال سبحانه ﴿ **ولتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ سورة الإسراء آية ١٢.

وهذه الآية الكبرى موضع اهتمام خاص فى القرآن الكريم، وحسبنا أن نذكر هنا بعض ما يشير إليه فى توضيح وبيان :

أ - الليلُ والنهارُ نظام فيه الرحمة، وفيه تتحقق مصالح العباد فى معاشهم، وفى معادهم، وفى أبدانهم وأحوالهم : يقول الله تعالى : ﴿ **ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون** ﴾ سورة القصص آية ٧٣ - وهذه الآية تعقيب على قوله سبحانه ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة - من إله**

غير الله يأتيكم بضياء - أفلا تسمعون - قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة - من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه - أفلا تبصرون ﴾سورة القصص آية ٧١، ٧٢.

ب - وكل ما يتم فى عملية الليل والنهار وتعاقبهما على نظام محكم وقدر معلوم إنما هو دليل القدرة والعظمة:

﴿ **يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل** ﴾ سورة الزمر آية ٥.

﴿ **فالق الإصباح، وجعل الليل سكنا - والشمس والقمر حسبانا، ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾سورة الأنعام آية ٩٦.

﴿ **يولج الليل فى النهار، ويولج النهار فى الليل** ﴾ سورة فاطر آية ١٣.

﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ سورة يس آيات ٣٧, ٣٨.

﴿ **يقلب الله الليل والنهار - إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** ﴾سورة النور آية ٤٤.

وليس من الغريب أن تنال هذه الآية الكبرى عناية القرآن، وأن تتردد فى هذا النسق المحكم، وأن تُعرضَ فى هذه الصور الغريبة البليغة، ولكن هل نحن سامعون؟ - وهل نحن مبصرون؟

ما أحوجنا إلى أن نقف أمام آيات الله فى كونه، فنتأمل ونبصر، ونفكر ونعقلَ ونستجيبَ لدعوة الله ، ونرجعَ إليه قائلين كلما طلع صباح : (الله أكبر) - وقائلين كلما حلّ مساء (الله أكبر)، وقائلين كلما اختلف ليلُ ونهار : (الله أكبر).

(٢) خلق السموات والأرض

وآياتُ الله فى كونه لاتنتهى، يعرضُها - سبحانه - علينا فى الآفاق، ويعرضها - سبحانه - فى أنفسنا ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق، وفى أنفسهم - حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾سورة فصلت آية ٥٣.

وتأملوا (أيها المسلمون) معى آيتين من آيات الله فى كونه، يحدثنا القرآن الكريم عنهما فيقول : ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض - واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾ سورة الروم آية ٢٢.

أما الآية الأولى فهى «خلق السموات والأرض» - والمراد بالسموات والأرض هذا الكون بما فيه من آفاق واسعة، وأسرار متعددة، وكائنات متباينة، أو متشابهة، وأفلاك

سـيـارة، ونجـوم دوارة ، سـمـاء ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذاتُ وهاد وفـجـاج - ونجـوم تشـرق وتغـرب، وعَـوالمُ سـابحـة فـى الفضـاء الرحـيب، لكل منهـا مـدار مـعلوم، وخط مـرسـوم - عرفنا منها القليل ، وجهلنا منها الكثير ﴿ **لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون** ﴾سورة يس ٤٠

سمـاءُ محكمـة، لا حدود لأبعادها، ولا نهـاية لامتـدادها، ولا أعمـدة لحفظهـا، ولا شقوق تعيـبهُـا . ﴿ **ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه** ﴾ سـورة الحج آية ٦٥ - وكل ذلك تصـوير لهذا الفضـاء العميق البعيد يُرينا مـا فيه مـن إبداع وإحكام. وأرضُ تراها العين مبسوطة، وقد خلقها البارئ مستديرة مدحوة ﴿ **والأرض بعد ذلك دحاها - أخرج منها ماءها ومرعاها** ﴾ سورة النازعات آيات ٣٠، ٣١ - وجعلها مـأوى للإنسان، منها بدأ، وإليها يعـود - ﴿ **منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ سـورة طه آية ٥٥ - وصـدق الـلـه ﴿ **إن فى خلق السمـوات والأرض، واختـلاف الليل والنهـار لآيات لأولى الألباب** ﴾سورة آل عمران آية ١٩٠.

ولقد عـبرّ التنزيل الحكيم عن خلق السموات والأرض فى تفصيل عجيب غريب حين قال سبحانه من قائل فى سورة فصلت : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين، وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين - وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين، فقضاهن سبع سموات فى يومين، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا - ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ سورة فصلت آيات ٩ : ١٢.

والمقصود من هذا التصوير الغريب، أن يرينا عجيب صنع الله فى حدود قدرتنا على الفـهم والإدراك، وأن يرْدَعَ المنكرين الذين يجـعلون لله أندادا وهـو الخـالق لكل شىء سبحانه (ذلك رب العالمين).

وليس المرادُ تحديد أيام مـعينة كمـا يوحى بذلك ظاهـر التـعبـير، إنمـا هو تصـوير لطريقـة الخلق والتكوين فى حدود يدركها العقل البشرى - وإنمـا هو هداية للناس حين يعملون - وإلا فالخـالق القـدير لا يحتـاج إلى أيام أو سـاعات أو لحظات تقل أو تكثر - إنمـا أمـره إذا أراد شيـئـا أن يقـول له كن فيكون، فهـو فـوق الزمـان والمكان، وقبل الزمـان والمكان، وبعد الزمان والمكان - سبحانه هو الذى خلق الأيام والزمان والمكان.

والله حين خلق الأرض - أحكم صنعها، وجعل فيها رواسى وأنهارا وسبلا، وأدارها فى الفضاء متزنة ثابتة، لا خلل يعتريها، ولا اضطراب يصيبها، وقدر فيها الأرزاق، وجعلها مصدر البركة والنماء، وسبحان الله، ملايين من الناس، وملايين من الكائنات، تأتى وتمضى، وكلها تطعم من خيرات الأرض ولانهاية ولا نقصان.

والله حين خلق السماء قال لها وللأرض قول إرادة كونا فكانتا طائعتين خاضعتين، وجعل فضاء السماء طبقات بعضها فوق بعض بلا حدود أو عدد - ووضع فى كل طبقة وحيَه وأمره، وزيّن سماء الدنيا بكواكب مزهرة ونجوم مضيئة ﴿ **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين** ﴾سورة الملك آية ٥.

والعلم الحديث يقف بنا اليوم على عتبات آفاق جديدة تحيط بهذا الكون، وتكشف عن عجيب صنع الله، وعظيم إبداعه، إن الكون المعروف لنا بكل ما فيه من كواكب ونجوم وأجرام لا يعدو أن يكون ذرَّةً واحدة فى كون أكبر تملأه ملايين الذرات الأخرى، كل ذرة فيه عالم يماثل عالمنا هذا - وتمتد الصورة إلى حدّ يفوق تصور البشر، ويقف خيال الإنسان عند غايات تصوره موقف العجز والقصور.

ولا عجب ولا دهشة - فكّل ما عرفناه عن الكون حتى اليوم، وكل ما سنعرفه بعد اليوم يؤكد ما وراء هذه الآية الكبرى من إعجاز وإحكام - نعم لاعجب ولا دهشة - فإنه من صنع الله الذى أتقن كل شىء .

(٣) اختلاف الألسنة والألوان

ونقف عند النصف الثانى من القول الحكيم لنجد فيه علامة ثانية من علامات القدرة، ودليلا على وَحدانية الله، وتفردهِ والإبداع - نقف عند قوله ﴿ **واختلاف ألسنتكم وألوانكم** ﴾سورة الروم آية ٢٢.

أما اختلاف الألسنة : ففيه ما فيه من أسرار الحكمة الإلهية - ذلك أن (اللسان) له فى اللغة كثير من المعانى، يستقيم منها فى هذه الآية ثلاثة معان.

المعنى الأول : (اللسان) هو اللغة : قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه** ﴾ سورة إبراهيم آية ٤ - أى إلا وهو يتحدث بلغتهم، فهو يفهمهم، ويفهمونه، وإلاّ لا نتفت حكمة الرسالة، وبخاصة رسالة محمد التى تعتمد على كتاب فيه من أسرار اللغة وبلاغتها كلُّ معجز - وقال تعالى : ﴿ **فإنما يسرناه بلسانك** ﴾ سورة الدخان آية ٥٨ - أى جعلنا القرآن باللغة العربية فيسرنا على العرب قراءَتَه ومعرفةَ بعضِ ما فيه من حجج

ودلائل - وفى حدود هذا المعنى نجد لغات لا حصرلها تمتد الآن على رقعة الأرض حتى ليكاد الحصر يعجز عنها - فإذا ما أدخلنا (اللهجات) فى إطار هذا المعنى وجدنا تنوعا يزداد حتى نجدَ فى اللغة الواحدة آلافا من اللهجات تكاد تجعل لكل قرية، أوحّى من قرية لهجةً متميزة - واختلاف اللهجات غير محصور فى لغة من اللغات - ولا فى زمان من الأزمنة، ولا فى مكان من الأمكنة، وبهذا يدخل فى التقدير مامضى وما سيأتى من لغات ولهجات.

المعنى الثانى لكلمة (اللسان) الحجة - يقال فلان ينطق بلسان الله أى بحجته - وعلى هذا المعنى يكون اختلاف الناس فى القدرة على التعبير، وسوق الأدلة والبراهين آيةً من آيات الله حين يجعل الشقيقين على طرفى نقيض - أحدهما يملك ناصية البيان، والثانى أبكمُ لا يكاد يُبين وقد رضَعَا من ثدى واحد، وسبحان مقسم الحظوظ.

وثالث المعانى لكلمة (اللسان) هو خصائص الصوت، ودرجات الحدَّة ، واختلاف الطبقات والنبرات فيه - فإن قيل إن كلَّ ذلك ينتُج من عدة أجهزة فى الفم والحلق. قلنا ولكن (اللسان) هو المعبر الحقيقى عن هذا الصوت، ولهذا جاز أن يراد من كلمة (اللسان) كلُّ هذه المعانى على وجهٍ من الحقيقة أو المجاز فى اللغة.

والمعجز فى هذه الناحية - أن العلم الحديث يثبت بالأدلة المادية، أن لكّل صوت نبرةً خاصةً به، وهذه النبرةُ لا تتكرر لشخصين فى العالم، فلكل إنسان طريقته الخاصةُ التى يستخدم بها جهازه الصوتى - ولذلك فإن النغمة التى تصدر عنه - والرنين الذى يحدثه عندما ينطق كلمةً معينة لا يمكن أن يصدُر عن نفس الكلمة حين ينطق بها شخص آخر. وبهذا تبرز القدرة الإلهية فيما يسمى اليوم (بصمات الصوت) إلى جانب ما كان معروفا من قبل باسم (بصمات الأصابع) التى تختلف من إنسان إلى إنسان حتى تصبح أمرا خارقا للمعقول، وهل فى استطاعة العقل أن يدرك حدود هذا الإعجاز الإلهى فى بصمات الأصابع وبصمات الأصوات؟.

إنما يهمنا فى هذا المجال أن القرآن الكريم حدثنا عنها قبل مئات السنين من معرفة العلم الحديث فقال : (واختلاف ألسنتكم) - وقال ﴿ **بلى قادرين على أن نسوى بنانه** ﴾ سورة القيامة آية ٤ - وصدق الله، وصدق كتابه الكريم.

وأما اختلاف الألوان : فآية أخرى من آيات الله فى كونه - يقف الناسُ فيها عند حدود فيقولون : هذا أبيض، وهذا أسود - وهذا أحمر وهذا أصفر - ونريد أن نمضى فيها إلى أبعد الحدود فنقول :

إن الاختلاف فى (الألوان) لا يقف عن الحمرة والصفرة ولا السواد والبياض، وإنما يمتد إلى كل تفصيل فى خلقة الإنسان، لأن (اللون) في اللغة كما يطلق على صفة الجسم من السواد والبياض وغيرها - يطلق أيضا على النوع - وفى حدود هذا المعنى نجد الناس ألوانا وأنواعا.

وتأملوا - أيها الموحدون - هذه الرقعة الصغيرة التى نعرفها فى كل إنسان باسم «الوجه» - هل ترون وجها فى الكون يشبه وجها آخر إلى حدّ المطابقة التامة؟ حتى التوأم وقد نبتا من خلية واحدة يخرج وجه أحدهما وفيه بصمة اختلاف عن وجه قسيمه - ومهما امتد الزمان بالناس، ومهما كثرت وجوه الملايين من خلق الله فلن تجدَ وجهين يحملان صورة واحدة، على ضيق المساحة وقلة التفاصيل أو كثرتها.

وأدق من ذلك دلالة على عظمة الخالق أن هذا الاختلاف يمتد إلى كل عضو من أعضاء هذا الوجه - إلى العينين والشفتين - إلى الأنف والوجنتين - وكثيرا ما يستدل الناس على شخصية إنسان من صورة محدودة للشفتين أو العينين - وسبحان من خلق فأبدع - وصوّر فأحسن.

وصدق الله العظيم : ﴿ **يأيها الإنسان - ما غرك بربك الكريم الذى خلقك، فسواك، فعدلك - فى أى صورة ما شاء ركبك** ﴾سورة الانفطار آيات ٦ : ٨.

(٤) الأرض الميتة تحيا

ما أروع القرآن وهو يُحدثنا عن آيات الله، وما أعظم الحكمة التى يسوقها حين يضربُ الأمثال، ويوضحُ الدلائل ويقدّم البراهين - اقرأ معى قول الله تعالى : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم، وآية لهم الأرض الميتة أحييناها، وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب، وفجرنا فيها من العيون، ليأكلوا من ثمره - وما عملته أيديهم - أفلا يشكرون** ﴾سورة يس آيات ٣٣ : ٣٥.

هذه آية من آيات الله فى كونه ترينا كيف تكون الأرض ميتة لا زرع فيها ولا ضرع - قد همدت عناصر الحياة فى ترابها، وبدت غبراء جرداء، قاحلةً موحشة، ثم يأتيها الماء منحةً من واهب الحياة - فإذا هى تتحرك، وتنبض، وتهتز، وتزدان بالنبات، وتتلون بالأزهار والثمار - قد غذّاها الخير، فنمت وربَتْ، وأصبحت متعةً للعين، وبهجةً للنظر، ومصدراً للرزق الوفير ﴿ **وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج** ﴾سورة الحج آية ٥ - ﴿ **سبحان الذى خلق الأزواج كلها - مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون** ﴾سورة يس آية ٣٦.

والقرآن الكريم يعرض هذا المعنى فى كثير من الصور التعبيرية ليُنَبّه الأذهان إلى كمال القدرة الإلهية، وإلى عمق الدلالة المختفية وراء هذا المظهر على الرغم من أن العيون قد ألفته فى كثير من مظاهر الكون.

أ - قال الله تعالى : ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا، وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها - إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾سورة الروم آية ٢٤ - فماء السماء يحيى الأرض الميتة - وهو بذلك آية لمن أراد أن يتأمل أو يعقل.

ب - وقال سبحانه من قائل : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت، فأنزلنا به الماء، فأخرجنا به من كل الثمرات - كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾ سورة الأعراف آية ٥٧ - فالرياح تسير بقدرة القدير، وهى بشير برحمته فتسوق السحاب الثقيل إلى الأرض الميتة فتمنحها الحياة - وتمنح أهلها ألوانا من الثمرات - وهذا فى جوهره نموذج لكيفية عودة الحياة إلى الموتى فى قبورهم يعيها من يتعظ، ويفهمها من يتدبر - ولن ننسى أن نشير إلى جمال التعبير الذى جعل الرياح تقل السحاب على الرغم من ثقله، وجعلها بشيرا برحمة الرحيم - ودليلُ البشارة والرحمة أنها تتجاوز بلادا وبلادا ثم تقف حيث تريد الرحمة - وحيث يحتاج الميت إلى الحياة، وحيث تكون كل الثمرات دليلا على الرحمة، وتحقيقا للبشارة.

جـ - وقال عزّ من قائل : ﴿ **أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم- أفلا يبصرون** ﴾ سورة السجدة آية ٢٧ - والأرض الجرز هى الأرض التى لا يصلح لها ماء المطر - بل قد يضُرّ بها - ولهذا يأتيها الماء سائلا جاريا على وجه التربة من مكان بعيد - هذه أرض مصر لا يصلح لها ماء المطر، وإنما تحتاج إلى الماء سيلا جاريا، ولهذا حملته لها عناية الرحمن من جبال الحبشة فجعلتها جنة وارفة الظلال، دانية الثمار.

ونحن إذا تأملنا الفرق بين طريقة وصول الماء فى الآيتين وجدنا - رحمة الله حقا وراء كل شىء - فالآية الأولى تتكلم عن الماء ينزل بنفسه على الأرض فيحييها، ولهذا كان التعبير ﴿ **حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء** ﴾ سورة الأعراف ٥٧ - فالسوق هنا للسحاب - سقناه - أى سقنا السحاب حتى إذا أصبح فوق الأرض المقصودة نزل به الماء - أما فى الآية الثانية فالله يسوق الماء نفسه، أى يجريه على وجه الأرض بعد أن نزل من السماء بعيدا عن الأرض المقصودة - يقول سبحانه - ﴿ **نسوق**

الماء إلى الأرض الجرز﴾ سورة السجدة آية ٢٧- وقد قلنا : إن الأرض الجرز فى اللغة هى التى لا يصلح لها ماء المطر - فهل كنا ندرك هذا الفرق المقصود فى التعبير القرآنى المعجز؟

وإن المتأمل فى هذه الصور التعبيرية يراها تهدفُ إلى غاية سامية هى تذكير العباد بنعمة الله، وهى دعوتهم إلى التأمل والتفكر فى آلائه - ومع ذلك ففى كل صورة دلالة جانبية على لون مختلف من ألوان القدرة، أو ناحية مغايرة من نواحى الدلالة.

والحقيقة الكبرى التى تطلع من وراء هذه الآية الكونية تظهر حين نتأمل البذرةَ الصغيرة تُوضع فى الأرض جنينا، صامتا، ضئيلا، فاقد الدلالة على أسراره - ثم ينزل عليه الماء فإذا هو بعد حين حياة تتحرك وتنمو، وتتفلق عن سّر الوجود ﴿**إن الله فالق الحب والنوى - يخرج الحى من الميت، ومخرج الميت من الحى**﴾سورة الأنعام آية ٩٥ - ثم تتكشف هذه البْذرة الصغيرة عن سرّ جديد حين تشق طريقها فى الصخر بقوة جبّارة ساحقة لا تناسب هذا العود الغض الطريّ - وكأنى بالسّر كله يتجمع فى هذا العود الأخضر اللين يفلق الصخر الأصم، وينبثق بقوة الحياة فى جماد الموت والعدم، ويخرج إلى الدنيا يُغالب الحرّ والبرد، ويجُالد الأعاصير وعوامل الفناء لأن من ورائه إرادةً غالبةً، وقُوةً قاهرة تقول للشىء كن فيكون.

وتزيد الدلالة، وتبرز العظمةُ الباهرةُ حين نرى تُربةً واحدة يسقيها ماء واحد ، ويُشعُّ عليها ضوء واحد، ويلقحها هواء واحد - ومع ذلك تَنْبتُ فيها زروع مختلفة الأشكال والألوان، مُتباينة الطعوم والروائح، متعددة الأحجام والأنواع - وجلّت قدرة الله، وصدق كتابه الكريم : ﴿**وفى الأرض قطع متجاورات، وجنات من أعناب، وزرع ونخيل صنوان، وغير صنوان، يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل - إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾سورة الرعد آية ٤ .

نعم - إنها آياتُ وآياتُ - ولكن : لقوم يعقلون.

والحمد لله رب العالمين.

حديث القمر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه

وبعد..

شغل الناس فى هذا العصر بالقمر، فهو اليوم يمثل فكرة التطور العلمى، ويرتبط فى الأذهان بعظمة العقل البشرى، وبإنجازات العلماء والمفكرين.

ومن قبل شغل الناس بالقمر، أثار خيال الشعراء والأدباء، وارتبط فى الأذهان بليالى الهوى، وأحاديث السمر، يرعاه السامرون، ويناجيه الساهرون.

كان للقمر دائما حديث - كان فى الخيال حُلما ومتعة، وتصوره الشعراء زورقا من فضة يسبح فى بحر من لازورد، قد أثقلته حمولة من عنبر. ثم أصبح فى حقيقة العلم أرضا من صخر وطين، وُفوّهات وبراكين، ورمالٍ وجبال تداعب خيال العلماء فى أن يصير مصدر ثروة للإنسان. هذا هو حديث القمر بين القديم والحديث - بين الفن والعلم - بين الخيال والحقيقة - فهل للقمر حديث فى الدين ؟ وهل له من ذكر فى كتابنا الكريم؟

يا أخى الكريم .

تحدث القرآن الكريم عن القمر فى كثير من الآيات، وفى حديثه عنه عِبَرٌ وعظات.

قال الله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الأهلة. قل هى مواقيت للناس والحج.** ﴾ سورة البقرة آية ١٨٩ - وسبب نزول هذه الآية أن الناس سألوا النبى ﷺ عن الأهلة، وكيف تتغير مواقعها وأحجامها وأشكالها فى السماء فنزلت هذه الآية. وفيها فائدتان عظيمتان.

الأولى : إجابة عن السؤال فى حدود القدرة العقلية فى هذا الزمان، ولهذا لم توضح الآية السبب العلمى لهذه الظاهرة، وإنما بّينت الفوائد التى تعود على الإنسان من هذا التغيير - فالله قد جعل للقمر مراحل، ورسم له خطا تراه العيون حين يسير فى الفضاء حتى يعرف الناس المواقيت، ويقيسون الزمن - واكتشافُ الإنسان للزمن وأبعاده شىءٌ

عظيم له أكبر الأثر فى تاريخ البشر. عن ابن عمر قال : قال رسول ﷺ : «جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غُمّ عليكم فعدُّوا ثلاثين يوما».

وقال العلى القدير : ﴿ **والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل فى فلك يسبحون** ﴾ سورة يس آيات ٣٩ : ٤٠ - قال : ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء، والقمر نورا، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ سورة يونس آية ٥ - فللشمس ضياء، وللقمر نور، ولها طريق معلوم، وله خط مرسوم، ولكل منهما وقت محدود فى ظهوره وغروبه، ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية الليل، وجعلنا آية النهار مبصرة، لتبتغوا فضلا من ربكم، ولتعلموا عدد السنين والحساب، وكل شىء فصلناه تفصيلا** ﴾سورة الإسراء آية ١٢.

فالقمر على هذا هدية من الله لعباده، ومنحة يعرفون بها الزمان، ويقدّرون الأوقات، ويخُططون للأعمال ﴿ **ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾سورة يونس آية ٥

هذه إحدى الفائدتين اللتين عرفناهما من قوله سبحانه : ﴿ **يسألونك عن الأهلة، قل هى مواقيت للناس والحج** ﴾ سورة البقرة آية ١٨٩.

أمّا الفائدة الثانية : فهى أن الله سبحانه يعلمنا أن للمعرفة حدودا، وأن للعقل البشرى قدرةً، وأنَّ على الإنسان أن يسأل عما يستطيع فهمه وإدراكه - أما ما لا يستطيع الإحاطة به فلا داعى للسؤال عنه قبل أوانه. لقد سأل الناسُ عن الأهّلة نفسها - كيف تتغير ؟ وكيف تتكون؟ وما السرّ فى هذه المراحل؟ وأجاب القرآن، فبيّن الفوائد، وعلَّم الناسَ كيف يسألون.

ومن حديث القمر فى القرآن أنه آيةُ من آيات الله، وعلامةٌ على قدرته وعظمته، وهو قرين الشمس. يُذكرُ معها حين تُذكر، ويُعرف فضلُه حين تعرف فوائدها، وهما معا جزء من هذا الكون الكبير، والملكوت الذى لا نهاية له - ليل داج، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج، وشمس تشرق كل صباح، وتمضى فى موكب من بهاء وجلال حتى تختفى وراء الأفُق البعيد - وقمرُ يلوح فضيًّا لامعا، يهدى السائر، ويرشد الحائر، ويعوض الناس من ضوء الشمس قليلا أو كثيرا، ولكل منهما طريق مرسوم : ﴿ **وهو الذى خلق الليل والنهار، والشمس والقمر - كل فى فلك يسبحون** ﴾سورة الأنبياء آية ٣٣.

فهو النظام المحكم، والتدبير المتقن، والقدرة الباهرة، والصنعة البديعة البالغة، يمضى الزمان ما يمضى، ويُشرق صَباح، ويأتى بعده مساء، وكل شىء فى إطاره، كما أراد له الله ﴿ **لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل فى فلك يسبحون** ﴾سورة يس آية ٤٠ - فسبحان العلى القدير.

كان للقمر دائما حديث - كان حديثَ الشعراء والأدباء - ثم كان حديث العلماء - ومن قبل كان حديث القرآن الكريم.

تحدث القرآن عن القمر فبين قيمته فى معرفة الزمان، وحساب السنين : ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء، والقمر نورا، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾سورة يونس آية ٥ - وتحدث القرآن عن القمر، فصوره آية من آيات القدرة الإلهية، له أوقات معلومة، ومراحل مرسومة، وأنه مع غيره من الكواكب والنجوم ﴿ **وكل فى فلك يسبحون** ﴾ سورة يس آية ٤٠ - وتحدث القرآن عن القمر فى سورة النحل فقال : ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره - إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾سورة النحل آية ١٢.

وبهذه الآية وضح القرآن وضعا جديدا للقمر، ووَجّهنا وجهة جديدةً فى معرفته، فالقمر مسخّر لخدمة الإنسان، ومخلوق لفائدته ومنفعته - وعلى الإنسان أن يستغل هذا القمر كما يستغل غيره من مخلوقات الله التى أعَدها وسخّرها لخدمة الإنسان، وهذا هو مدلول قوله تعالى ﴿ **سخر** ﴾.

وتسخير القمر لخدمة الإنسان يحمل معنيين كبيرين:

أولهما : تكريمُ الإنسان : ووضعُه فى مكان السيادة والسيطرة فى هذا العالم، وعلى المسلم أن يكون حيث أراد الله له : سيادةً وعزةً، وسيطرةً على الكون - ويكفى فى حدود هذا المعنى أن الله جعل الإنسان خليفة فى الأرض.

وثانيهما : الدعوة إلى البحث، والدعوةُ إلى معرفة هذا الكون - معرفة ما فيه من قمر وشمس، ومن نجوم وكواكب، ومن بحار ورمال - ومن فضاء له حدود أو ليس له حدود - إنك لا تستطيع أن تسيطر على شىء إلا إذا عرفته، ولا تستطيع أن تنتفع بشىء إلا إذا أدركت كل ما يحيط به - ومن هنا لا تستطيع أن تنتفع بالقمر إلا إذا عرفت القمر، ولن تعرف القمر إلا إذا ذهبت إليه، وكشفت عن أسراره - وكأن القرآن

بهذا يدعونا إلى البحث عن أسرار الكون - عن الليل والنهار - عن الشمس والقمر - عن البحار والأنهار - عن الفضاء وما وراء الفضاء أليس ذلك كلهُ مسخرًا لنا ؟ أليس مخلوقا لمنفعتنا وفائدتنا؟.

فهل فعلنا ما أمرنا به ربنا؟ وهل استجبنا لتوجيه القرآن، فركبنا الفضاء وذهبنا إلى الكواكب، ووضعنا القمر وغيره فى خدمتنا؟

الواقع المؤلم أننا تخلفنا وتقدم غيرنا - تراجعنا وتخاذلنا وتركنا غيرنا يسعى بالعلم وبالعمل - ومن العجيب أن يكون بيننا اليومَ من ينكر حقيقة وصول الإنسان إلى القمر - ودينا هو أول دين يأمر بالسعى فى الكون، والبحث عن الأسرار، وحتى لا نتركَ فى النفوس شكا - نقرأ هذه الآيات من كتاب الله ففيها الحديث الواضح عن القمر، وعن تسخيره لخدمة الإنسان : قال تعالى فى سورة إبراهيم : ﴿**وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار**﴾سورة إبراهيم آية ٣٣.

- وقال تعالى فى سورة لقمان : ﴿**ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار، ويولج النهار فى الليل، وسخر الشمس والقمر - كل يجرى إلى أجل مسمى - وأن الله بما تعملون خبير**﴾سورة لقمان آية ٢٩.

- وقال تعالى فى سورة فاطر : ﴿**وسخر الشمس والقمر - كل يجرى لأجل مسمى - ذلكم الله ربكم له الملك**﴾سورة فاطر آية ١٣.

وجملة القول : أن الحديث عن تسخير القمر هو دعوة واضحة للبحث عن أسراره، والانتفاع به، ولا يتم ذلك التسخير إلا بالوصول إليه عن طريق العلم والعمل.

يا أخى المسلم:

بعد هذا أقول :

تحدث القرآن عن القمر فى سورة أخرى سميت باسمه - فهى سورة القمر : ﴿**اقتربت الساعة، وانشق القمر**﴾ سورة القمر آية ١.

والمعنى : أن الدنيا آذنت بفراق، وأنه لم يبق من حياة الكون إلا القليل - وعلينا أن نعمل قبل أن تنتهى الحياة.

﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ سورة القمر آية ١. ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ سورة الأنبياء آية ١ - ﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه** ﴾سورة النحل آية ١.

وروى الإمام أحمد أن النبى ﷺ خطب الناس - قال: فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد - فإن الدنيا قد آذنت بصرم، وولت حذاء (أى مسرعة) ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الماء «أى بقية قليلة من الماء» يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم».

فهى دعوة إلى العمل - فهل من مُدّكر؟

ولله الحمد فى الأولى والآخرة وهو الحكيم الخبير

ونسأله تعالى أن يوفقنا لما فيه خير العباد وصالح البلاد

أمين

مفاتح الغيب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وأشهد أن لا إله إلا الله (عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو)

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ﷺ.

وبعد ..

أيها الأخ المسلم :

هذا كتاب الله - يقف بك عند حدود العلم البشرى، ويريك الغاية التى ينتهى إليها العقل الإنسانى.

لقد فتن الغربيون اليوم بمظاهر العلم المادى، ورأوا منجَزَات العلم تطير فى الفضاء، وتصل إلى الكواكب باحثةً عن معرفة جديدة / فظنوا أن مفاتيح أسرار الكون قد استجابت لذهن الإنسان.

وليس فى ذلك كله ما يناقض حقائق الإسلام - بل فيه ما يدعم مبادئه، ويقوى أصوله. للإنسان أن يبحث، وله أن يفكر - بل عليه أن يبحث ويفكر حتى يصل إلى ما أرادته له السماء. ومهما عرف - ومهما غرته مظاهر المعرفة فإن علمه شىء يسير فى كون الله ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾سورة الإسراء آية ٨٥ - ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾سورة البقرة آية ٢٣٢.

وجدير بالعلماء، وبالمعجبين بالعلم والعلماء - أن يتخذوا من العلم دليل هداية، فإنه حين يكشف عن جديد إنما يدلل على قدرة الخالق المبدع - وهذا دليل يضاف إلى رصيد الدعوات الدينية، ولا يقف أمامها أبدا. والحقيقة التى اهتدى إليها كثير من العلماء تتلخص فى جملة واحدة «العلم يدعو للإيمان».

ولنعد إلى كتاب الله ، ولنقرأ معا قول الله: ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾سورة الأنعام آية ٥٩ - فهذه آية قاطعة الدلالة على أن بعض الأمور/ فوق مستوى العقل

الإنسانى، وهى من خصائص القدرة الإلهية - فإذا أردت أيها الأخ الكريم أن تعرف هذه المفاتح فاقرأ قول الله : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة - وينزل الغيث - ويعلم ما فى الأرحام - وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا - وما تدرى نفس بأى أرض تموت - إن الله عليم خبير** ﴾ســورة لقمان آية ٣٤.

أما خبرُ الساعة فعلمه عند الله - ﴿ **لا يجليها لوقتها إلا هو** ﴾ سورة الأعراف آية ١٨٧ - ﴿ **يسألونك عن الساعة - أيان مرساها - فيم أنت من ذكراها - إلى ربك منتهاها** ﴾ ســورة النازعات آيات ٤٢، ٤٥ - أما أنت يا محمد فليس لك من أمرها إلا الإنذار ﴿ **إنما أنت منذر من يخشاها** ﴾ - وهكذا كل عالم أو رسول .

وأما الغيث فحقيقة أمره راجعة إلى الله وحده - وما يعرفه العلم اليوم لا يخرج عن كونه تنبؤًا بظواهر قد تحدث، وقد تتخلّف - والعلماء لا يعرفون خبر المطر إلا إذا ظهرت بوادره، ولاحت علاماته، فأما ما قبل ذلك فإنما هو غيب مخبوء، وسرّ مكنون، ومجهول إلا على الله.

إن قدرة الله لا تكتفى بالعلم. بل تقدر وتدبر وتخلق وتحّرك فهى من وراء العلم والإدراك.

وأما الأرحام وما فيها فسّر مغلق وقف العلم على بابه - وما يقال عن معرفة الذكر من الأنثى إنما هو أمر يحدث بعد الخلقة، وبعد تكون الجنين - أما قبل ذلك فالعلم لله وحده، وسبحانه ﴿ **يهب لمن يشاء إناثا، ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا، ويجعل من يشاء عقيما - إنه عليم قدير** ﴾سورة الشورى آيات ٤٩، ٥٠.

وأما الغد المجهول بما فيه من حياة أو موت، سعادة أو شقاء، فعلمه عند الله، والعالم الذى يقف أمام مختبره وتجاربه لا يدرى من أمر التجربة شيئا، ولا يمتد علمه بالمجهول إلى شىء من الزمن الآتى صغر هذا الزمن أو طال - والتعبير بكلمة (غدا) فيه تسامح مع العقل الإنسانى، لأن العقل لا يدرى ماذا يكون بعد برهة، أو لحظة خاطفة من زمن.

وكم من عالم دانت له الأسرار، وبهرت خبرتُه الأذهان والأفكار - ثم كانت نهايته فى زمان أو مكان لم يخطر بباله، ولم يراود ذهن مخلوق من الناس - والعلم لله - والقدرة

لله، وليس الأمر مقارنة بين علم الله وعلم الناس - فالفرق بعيد - والمقارنة غير واردة - ولكنها تبصرة لمن خدعته منجزات العلم.

روى البخارى أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشى فسأله عن أمور - والرسول يجيب حتى سأله الرجل قال :

(يا رسول الله - متى الساعة؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها - إذا ولدت الأمةُ ربتَها فذاك من أشراطها - وإذا كان الحفاةُ العراة رءوس الناس فذاك من أشراطها - فى خمس لا يعلمهن إلا الله.

﴿ **إن الله عنده علم الساعة - وينزل الغيث - ويعلم ما فى الأرحام - وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا - وما تدرى نفس بأى أرض تموت - إن الله عليم خبير** ﴾ سورة لقمان آية ٣٤.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد.

العطاء والحرمان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المتقين وقدوة الناس أجمعين وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد..

فإنه يظن كثير من الناس أن العطاء دليل الرضا، وأن الحرمان دليل الغضب - وهكذا تسير أمور الدنيا بينهم - فالذى يرضى عنه الرئيس، أو ذو الجاه ينال من رضاه عطاء متعدد الألوان والصور، وهو من هذا الرضا فى خير عميم - والذى يغضب عليه الرئيس أو ذو الجاه يحرم الترقية والراحة، ويكلف أشق الأعمال، وهو من هذا الحرمان فى عذاب مقيم.

والحقيقة الدينية التى وضحتها الشريعة الإسلامية، أن العطاء والحرمان عند الله لا يرتبطان بالرضا والغضب - والله سبحانه وتعالى يصرف أمور الرزق بحكمة لا يعلمها إلا هو، ولقد قال فى محكم التنزيل : ﴿**الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر - وفرحوا بالحياة الدنيا، وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع**﴾ سورة الرعد آية ٢٦- فى هذه الآية حقيقتان : الأولى : أن العطاء والحرمان بقدر من الله - والثانية : أن الذين ينالهم خير الدنيا ونعيمها يفرحون به، مع أنه نَعيم زائل لا قيمة له، ولا يستحق أن يقابل بالفرح. ﴿**وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾سورة آل عمران آية ١٨٥.

وتتسع فكرة الموضوع شيئا حين تقرأ قوله تعالى : ﴿**قل اللهم مالك الملك، تؤتى الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير**﴾سورة آل عمران آية ٢٦ - فالموضوع يتجاوز الرزق إلى الملك والعزة أو الذلة - ثم تتسع الفكرة شيئا آخر حين نقرأ قول الله تعالى : ﴿**يهب لمن يشاء إناثا، ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا، ويجعل من يشاء عقيما، إنه عليم قدير**﴾ سورة الشورى آيات ٤٩، ٥٠ - فموضوع الإرادة الإلهية فى العطاء والحرمان يتناول كل شىء. يتناول الرزق والأموال ، ويتناول الملك والجاه والسلطان، ويتناول الأولاد بنين وبنات - وهكذا نستطيع أن نعمم الحكمة ونقول إنه يتناول كل شىء فى حياة الإنسان.

لكن - هل العطاء دليل الرضا؟ وهل الحرمان دليل الغضب؟ الجواب لا . فالله

سبحانه وتعالى يعطى الدنيا لمن أحبّ ولمن لا يحب، ولو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء. الله سبحانه وتعالى قد يحرم عبده الطائع لذائذ الدنْيا، وأطايب العيش، ويبقيه على الشظف، وضيق العيش وهو أحب إليه ممن سواه - والله تعالى قد يعطى عبده العاصى جنات تجرى من تحتها الأنهار فى الدنيا، وثروة لا نستطيع حصرها، وهو أبغض إليه ممن سواه، وصدق الله ﴿**ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة، ومعارج عليها يظهرون - ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون - وزخرفا - وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين**﴾ سورة الزخرف آيات ٣٣ : ٣٥ - فالله قد يعطى الكافر به كل نعيم الدنيا - لكنه نعيم لا قيمة له - وهو متاع فى الحياة الدنيا - والآخر للمتقين.

وفى الحديث القدسى : «إن من عبادى من لا يصلح له إلا الفقر، ولو أغنيته لفسد حاله - وإن من عبادى من لا يصلح له إلا الغنى ولو أفقرته لفسد حاله» - ونفهم من هذا أن العطاء والحرمان قد يكونان لونا من ألوان الإصلاح - على أن للأمر جانبا آخر فالأنبياء كانوا فقراء، فى الغالب - ومحمد ﷺ هو الذى قال : «اللهم أحينى مسكينا، وأمتنى مسكينا، واحشرنى فى زمرة المساكين - قيل لماذا يارسول الله؟ قال لأن رحمة الله لا تفارقهم طرفة عين - وهل كان قارون عند الله أكرم من رسوله موسى حين جعل الرسول الأمين يعمل عند شعيب ليأكل ويستطيع الزواج، وجعل للعبد العاصى أموالا لا تحصى ولا تعد؟

أمر العطاء والحرمان أجلّ من ذلك - وهو راجع إلى الإرادة الإلهية، وهي إرادة عادلة لا يمكن أن تجمع على العبد فقرا وغضبا، أو حرمانا وطردا - غير أن للمسألة وجها آخر - فقد يحرم الله العبد مالاً أو جاها - ولكنه يعطيه الصحة أو يعطيه الحكمة والعلم والمعرفة، أو يعطيه الذرية الصالحة، أو يعطيه حسن السمعة وقبول الدعوة - فهو يحرمه شيئا قليلا، ويعوضه خيرا عميما - وقد يُعطى الله عبده المال، ويحرمه الصحة، أو الولد، أو راحة الضمير فهو يعطيه القليل ويحرمه الكثير - وخلاصة الفكرة أن نترك الأمور لحكمة الله، وأن نسير فى حياتنا على أساس أن العدل الإلهى لا يمكن أن يخطئ - وأن نعمل للدنيا والآخرة - فكلُ مُيَسَّر لما خلق له، وصدق
الرسول فى قوله : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا» ١٠

وصل اللهم وسلم على سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم.

حب الله

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد إله الأولين والآخرين

وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أما بعد ..

فمن عجيب أمر الناس أنهم يحوّلون معانى بعض الكلمات إلى مدلولات غير كريمة، ويعيشون فى ظلال هذا الوهم : منْ كان منهُم شريف القصد نَفَر من ذكر هذه الكلمات أو تحرّج - ومن كان سيئ القصد تعمّد أن يسوقها فى مواقفَ معينة، وسعى إليها فى خبث ومكر.

ومن هذه الكلمات كلمة (الحب) - ونحن نعرف معناها الذى يتبادر إلى أذهاننا اليوم - لكن ذلك لا يمنعنا من أن نجعلها عنوانا لأكرم صلة - لأنها تحمل أكرم معنى فى كتاب الله تعالى، وفى حديث رسوله الأمين.

كان صلوات الله وسلامه عليه يقول فى دعائه : «اللهم ارزقنى حبَّك، وحبَّ من أحبَّك. وحبَّ ما يقربنى من حُبِّك» ذلك لأن محمدا كان عبد الله ورسوله، لأنه كان حبيب الله وصفيه. والمسلم مطالب بأن يكون حبيبا لله، حبيبا لرسول الله - والرسول الكريم هو الذى جعل حب الله وحبَّ رسوله شرطا لكمال الإيمان فقال : «لا يؤمن أحدُكم حتّى يكون اللهُ ورسولهُ أحبَّ إليه مما سواهما».

وفى القرآن الكريم يقول الله تبارك وتعالى : ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم**﴾سورة آل عمران آية ٣١.

وفى هذه الآية أمران :

أولهما : الدعوة إلى حبّ الله بما فيه من طاعة ونجوى.

وثانيهما : أن طريق هذا الحب هو الإسلام فمن أراد الوصول إلى الله، والتمتع بحبه

ورضاه، فعليه باتباع محمد. والتمسك بدينه، ولا سبيلَ غيرَ ذلك. فمن أحبّ الله عن طريق آخر ضل سعيه، وخاب رجاؤه، وفى الصحيح عن رسول الله : «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رَدّ» ولهذا كانت الآية على هذا النسق - ﴿ **إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** ﴾سورة آل عمران آية ٣١.

ونمضى مع الآية الكريمة فنجد أن حبنا لله لا يكفى - بل لا بدّ أن نصَل إلى درجة الصفاء والنقاء نُصبح فيها جديرين بأن يحبنا الله - وكما قال بعض الحكماء : «ليس الشأن أن تحب - بل الشأن أن تُحب» - نعم - ليس مهما أن تدعى حبك لله - إنما المهم أن تصبح فى مقام تكون فيه أهلاً لأن يحبَّك الله، فإذا أحبك الله رضى عنك ورعاك - إذا أحبك الله صرت بعينه، إذا أحبك الله كان سمعك الذى تسمع به، وبصرك الذى تبصر به.

أيها الأخ الكريم : من أجل هذا كان حبُّ الله فرضا على المؤمن - والله سبحانه يقول : ﴿ **والذين آمنوا أشد حبا لله** ﴾سورة البقرة آية ١٦٥ - ويقول فى وصفه لقوم يختارهم ويرعاهم : ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾سورة المائدة آية ٥٤.

وقدم أعرابى على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال : يارسول الله - متى الساعة؟ فقال له الرسول : ما أعددتَ لها؟ فقال الأعرابى : ما أعددتُ لها كثير صلاة ولا صيام إلا أنى أحبُّ الله ورسوله : فقال له رسول الله ﷺ : المرء مع من أحبّ.

قال أنس (راوى الحديث) فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام فَرَحَهم بذلك.

ونحن نروى هنا قصة تنسب إلى عيسى بن مريم عليه السلام لا يهمنا أن تكون صحيحة بقدر ما يهمنا ما فيها من دلالة على ما نريد من فكرة أو هدف.

يُروى أن عيسى مرّ بثلاثة نفر قد نَحَلَتْ أجسامُهم، وتغيرت ألوانُهم . فقال لهم : ما الذى بلغ بكم ما أرى؟ قالوا : الخوف من النار. فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف - ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشدُّ نحولا وتغيرا فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا : الشوق إلى الجنة فقال : حقٌّ على الله أن يُعطيكم ما ترْجُون. ثم جاوزهم

إلى ثلاثة آخرين أشد نحولا وتغيرا فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى؟ قالوا : نحب الله - فقال : أنتم المقربون، أنتم المقربون، أنتم المقربون.

وهنا نقف لنقول : إذا أنت عبدتَ الله خوفا من ناره أنجاك الله من ناره - وإذا أنت عبدته شوقا إلى جنته، أدخلك الله جنته - أما إذا عبدته لذاته وحبا لذاته يرتفع فوق الخوف من النار، وفوق الشوق إلى الجنة كنت أهلا لكل شيء للنجاة من النار ولدخول الجنة ، وأهلا بعد ذلك لقرب الله وحبّ الله.

وحبُّ الله هو المنزلة التى تتميز عندها الألباب - كما قال أحد العابدين :

لا زلتُ أنزلُ من ودادك منزلا   تتحيَّرُ الألبابُ عند نزوله.

فاللهم ازرقنا حبك وحب من يحبك واجعلنا من الصالحين.

- أمين -

مسابقة

الحمد لله رب العالمين وصلاة وسلاما على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد .

وأشهد أن لا إله إلا الله هو الواحد زاد محمداً تكريما وحباه فضلا من لدنه عميما.

وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول ﷺ.

وبعد..

أيها المسلم :

هذه مسابقة : دعاك إليها الكتاب الكريم، وحثّك عليها الرسول العظيم، وتأمرك بها الفطرة الهادية.

هى مسابقة فى الخير، ومسارعة إلى الطاعة، ومنافسة محمودة تسعى إلى مغفرة الله - حدثنا القرآن الكريم عنها فى سورة الحديد فقال : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله - ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء - والله ذو الفضل العظيم.** ﴾سورة الحديد آية ٢١.

وإذا كانت المسابقات فى الدنيا تنتهى بفوز واحد أو اثنين فإن التسابق إلى مغفرة الله يَقبل فى رحابه كلَّ من سعى إليه - وإذا كانت مكافأة الفوز فى الدنيا عرضا زائلا - فإن مكافأة الفوز فى هذه المسابقة : جنةٌ عرضها كعرض السماء والأرض، وبعدها مغفرة من الله ورضوان.

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه المسابقة بالمسارعة - قال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾سورة آل عمران آية ١٣٣. وفى نفس السورة مَدَحَ بعضَ المؤمنين من أهل الكتاب فقال : ﴿ **من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون - يؤمنون بالله واليوم الآخر - ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويسارعون فى الخيرات - وأولئك من الصالحين** ﴾سورة آل عمران آيات ١١٣, ١١٤.

وفى هذه الآيات تفصيل دقيق يُوضح لنا وسائل الفوز فى هذه المسابقة، ويرسم طريق النجاح لمن أراد النجاح - لقد تحدثت الآيات عن صفات هؤلاء المتسابقين الذين أثنى عليهم ربهم، ومنحهم شرف اللقاء وشرف الثناء قبل اللقاء.

وأول هذه الصفات «القيام بأمر الله - والالتزام بشرعه، واتباعُ تعاليمه، فهم أمة مطيعة، قائمةُ، مستقيمة على الطريق الصحيح» - وهذا هو معنى قوله تعالى «أمة قائمة».

وهم بعد القيام بأمر الله، وتحقيقا لمعنى الالتزام يعكفون على كتاب الله : يتلون آياته، ويتدبرون معانيه - قد هجروا فى سبيل ذلك مضاجعهم ، وتركوا لذائذ لياليهم، وأقبلوا على ربهم يدعونه خوفا وطمعا، ويسجدون لجلاله فى استغراق وإيمان. وفضل العبادة فى الليل معروف - حدثنا أحد العارفين أنه رأى فى منامه إماما من أئمة المتصوفين فسألهُ عن أحواله فقال : «ضاعت تلك العبارات - وذهبت تلك الإشارات - ولم ينفعنا إلا ركيعاتُ كنا نركعها عند السحر» - وصدق الله ﴿**إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا**﴾سورة المزمل آية ٦.

أما صفتهم الثانية فهى الإيمان بالله وبلقائه - وهو إيمان عميق له جذور ونتائج - ولهذا يدفعهم إلى **صفة ثالثة** هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - ذلك أن صدق الإيمان لا يتحقق وفى النفس بقية من أنانية - إنما يكمل الإيمان حين يسعى المؤمن إلى الناس يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر - والمؤمن لا يرضى لنفسه الطاعة والقرب، وللناس العصيان أو البعد، ولو أنه آثر نفسه وحده بالخير، وتمنىّ أن ينفرد بمغفرة ربّه لكان بذلك أول الخارجين على تعاليم الدين. الدين سماحة وأخوة - والدين تعاون وتآلف وترابط - والدين رحمة شاملة.

ثم تأتى صفتهم الرابعة (يسارعون فى الخيرات) ومعنى المسارعة والمسابقة هو الإقبال على الطاعات بجد وإخلاص، فهو إقبال روحى يجد فيه المؤمن نفّسًا متفتحة للعمل الصالح، مشوقةً إلى الإقدام عليه - وفرق بين من يعمل الطاعات فى ظلال الرضا والرغبة، ومن يُساق إليها بسياط الخوف والرهبة - وقد وصف القرآن الكريم الفريقين، ويحدث عن الفئتين - ويهمنا هنا أن نقرأ قول الله فى وصفه للمؤمنين المتقين

- الراغبين فى الفوز حتى ولو امتزجت رغبتهم بالخشية، فإن خشيتهم دليلُ معرفة، وعلامة يقين:

﴿ **إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون - والذين هم بآيات ربهم يؤمنون - والذين هم بربهم لا يشركون - والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون - أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون** ﴾سورة المؤمنون آيات ٥٧ : ٦١.

أيها الأخ الكريم :

هذه هى المسابقة التى دعاك إليها القرآن الكريم، وهذا هوالطريق لمن أراد الفوز فيها - لقد وضحت الغاية - فسارع وسابق لتكون من الفائزين : ﴿ **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء - والله ذو الفضل العظيم** ﴾ سورة الجمعة آية ٤.

والحمد لله رب العالمين

ألوان من رحمة الله

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين.

وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمدًا رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين ورحمة الله للعالمين.

وبعد ..

أيها الأخ المسلم :

ما أوسع رحمة الله، وما أعظمَ فضلهَ على الإنسان - إننا لنرى مظاهر متعددةً لهذه الرحمة - تأتى والعبد فى غاية من الضيق، ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وضاقت عليه نفسه بما وسعت - وظن ألا منجاة له من كربه ثم تأتى الرحمة الإلهية فتمنَحُه الفرج - وتعطيه سلام النفس وراحة الضمير.

وإنى لمحدثك اليوم عن ألوان أخرى من رحمة الله تأتى حين لا رجاء ولا أمل - تأتى وقد انقطعت أسباب العمل، وتعطلت وسائل النجاة، وسدّت جميع الأبواب إلا بابَ الله.

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿**إن الله لا يظلم مثقال ذرة - وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجرا عظيما**﴾سورة النساء آية ٤٠.

فى هذه الآية الكريمة ألوان ثلاثة من رحمة الله - يشمل بها عباده يوم القيامة - يوم لا ظل إلا ظله، ولا رحمة إلا رحمته، ولا أمل إلا فى عفوه ومغفرته.

أما اللون الأول : فهو أن الله لا يظلم أحدا من عباده مثقال حبة من خردل - إنما هو العدل المطلق، والميزان المستقيم ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ سورة الأنبياء آية ٤٧- وفى وصية لقمان لابنه : «يابنى :﴿ **إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله - إن الله لطيف خبير**﴾ سورة لقمان آية ١٦.

ستعرض الحقائق على الناس - ويَعرف كلُّ امرئ ما قدمت يداه، ويُصّدر الحكم على نفسه قبل أن يعلن فى محكمة السماء ﴿ **يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾سورة الزلزلة آيات ٦ : ٨.

يروى أن هذه الآية نزلت وأبو بكر يأكل مع النبى ﷺ . فرفع أبو بكر يده وقال : يارسول الله : إنى أجزى بما عملتُ من مثقال ذرة من شر ؟ فقال : «يا أبا بكر : ما رأيتَ فى الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشرّ، ويدخّر الله لك مثاقيل ذرّ الخير حتّى تُوفاه يوم القيامة» ومعنى هذا الحديث أن الذنوب الصغيرة تكفرها متاعب الدنيا ومصائبها، وأن الحسنات الصغيرة تبقى فى سجّل المؤمن حتى تعرض وحدها يوم الحساب - وهذا من رحمة الله.

ولا شك أن العدل المطلق فى أى محكمة إنما هو لون من ألوان الرحمة - وحسبنا أن المتهم فى الدنيا لا يرجو شيئا غير محكمة عادلة تكتفى بما فعل من ذنب ولا تذكر ما قدم من حسنة، أما محكمة الله فإنها تعرض الأمرين : الحسنة والسيئة - وتقرر الناحيتين - الثواب والعقاب - وأبعد من ذلك أنها تتسامح فى صغير السيئات، ولا تنسى صغير الحسنات - بل تضعه فى ميزان الرحمة.

روى أبو سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ من حديث طويل عن الشفاعة ، «فيقول الله عزّ وجل : ارجعوا - فمن وجدتم فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه من النار» ثم يقول أبو سعيد : «اقرأوا إن شئتم : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾ سورة النساء ٤٠ - وفى صحيح البخارى مرفوعا : «اتقوا النار ولو بشق تمرة - ولو بكلمة طيبة» - فإذا كانت الكلمة الطيبة حسنةً توضع فى ميزان العبد يوم القيامة فإن هذه هى الرحمة التى لا تدانيها رحمة، وشق التمرة لا يستحق أن يذكر ويشكر - ولكنها الرحمة.

عن أبى سعيد الخدرى قال : لما أُنزلت «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» قلت : يارسول الله - إنى لراء عملى؟ قال : نعم - قلت : تلك الكبارُ الكبار؟ قال : نعم - قلت : الصغارُ الصغار؟ قال : نعم، قلت : واثكل أمى - قال : «أبشر يا أبا سعيد فإن الحسنة بعشر أمثالها - يعنى إلى سبعمائة ضعف - ويضاعف الله لمن يشاء - والسيئة بمثلها أو يعفو الله - ولن ينجو أحدٌ منكم بعمله» قلت : «ولا أنت يا رسول الله؟ قال : «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمة».

وهناك لونان آخران - نأخذ أولهما من قوله تعالى : ﴿ **وإن تك حسنة يضاعفها** ﴾سورة النساء آية ٤٠ - ذلك أن رحمة الله اقتضت أن يضاعف الحسنات لعباده، ولا حدود لفضل الله.

بعض الآيات والأخبار تجعل الحدّ ضعفين : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته** ﴾ سورة الحديد آية ٢٨ - أى نصيبين - وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بى فله أجران - وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران - ورجل أدب أَمَةً فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران».

وبعض الآيات تجعل الحدّ عشر مرات : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون** ﴾سورة الأنعام آية ١٦٠.

وبعض الآيات تصل بالأضعاف إلى سبعمائة ضعف ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم** ﴾ سورة البقرة آية ٢٦١ - بل إن خاتمة هذه الآية لا تقف بالأضعاف عند غاية، وكلُّه من فضل الله، وهذا هو المفهوم من قوله سبحانه ﴿ **وإن تك حسنة يضاعفها** ﴾ سورة النساء آية ٤٠ - إلى أى عدد ؟ وإلى أى مدى؟ لم تذكر الآية - وإنما هى مضاعفة موصولة ممدودة تليق بفضل الله وواسع رحمته ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾ سورة الأعراف آية ١٥٦.

أما اللون الثالث من رحمة الله فتقدمه بقية الآية ﴿ **ويؤت من لدنه أجرا عظيما** ﴾ سورة النساء آية ٤٠ - وهو شىء جديد فى محكمة الله - عدل مطلق - يتبعه مضاعفة للحسنات بدون حدود - يتبعهما أجر من الله - وهذه الرحمة الجديدة فيها ثلاث ميزات :

- فهى من عند الله يقدمها ابتداء وبدون مقابل بدليل قوله ﴿ **ويؤت من لدنه** ﴾سورة النساء آية ٤٠.

- وهى مع ذلك تنزل منزلة الأجر - فالله حين يمنح هذا الفضل لمن يشاء من عباده يجعله حقا وأجرا لا يمكن حجبه عنه، ولا حرمانه منه شأنَ الأجور تقدم بعد العمل.

– وهذا الأجر أجر عظيم – فقد يتوهم الناس أنه – وقد قُدّم بدون ماقبل – شيء قليل أو صغير إلا أن الآية توضح أنه أجر عظيم يناسب عظمة الله – إذا كان الله عظيما فلا بد أن يكون عطاؤه عظيما – وإذا أعطى من فضله فليعط الكثير الجليل.

قال بعض العلماء : هذا الأجر العظيم بعد الجنة بكل ما فيها – وهو رضى الله سبحانه وتعالى، ورضا الله منزلة تتقطع دونها الأعناق، فإذا قرأنا آية فى آخر سورة البيّنة رأينا ما يؤكد ذلك – فالجنة أجر وجزاء وفيها خلود وبقاء – ثم يأتى الرضا من الله :

﴿ **جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها – أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه – ذلك لمن خشى ربه** ﴾ سورة البينة آية ٨ – قال المفسرون : مقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم.

وروى الإمام أحمد عن أبى عثمان قال : قلت يا أبا هريرة : سمعت إخوانى بالبصرة يزعمون أنك تقول : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «إن الله يجزى بالحسنة ألفَ ألف حسنة»؟ فقال أبو هريرة : «والله – بل سمعتُ نبى الله ﷺ يقول : إن الله يجزى بالحسنة ألفى ألف حسنة» – ثم تلا هذه الآية : ﴿ **فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل** ﴾ سورة التوبة آية ٣٨.

أيها الأخ الكريم :

هذه ألوان من رحمة الله – إذا عرفتها فاعرف معها أن رحمة الله لا تكون إلا لمن يستحقها – وصدق الله :﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ سورة الأعراف آية ١٥٦.

ويطيب لنا فى بعض الأحيان أن نعلل النفوس بالأمانى، وأن نعيش فى جو من الأحلام، وأن ننظر إلى الأمور نظرة بشارة وتفاؤل – وقد يبالغ بعضنا ويمضى مع الأمانى والأحلام إلى غاية بعيدة، فينسى بعضَ واجباته الدينية، ويتهاونُ شيئا من تهاونٍ فى شئون شريعته السمحة، وهو يقول لنفسه – لا بأس – إن الله غفور رحيم.

والتفاؤل شىء مرغوب، ولا ضرر فيه حين يكون فى حدود المعقول، وقد يكون نتيجة لفرط الثقة بالله، والثقة بالله لون من الإيمان واليقين – لكن حين تَسحرنا الأمانى عن الواقع، وتأخذنا الأحلام عن الحقائق نكونُ قد خرجنا عن حدود العقل والشريعة معا –

والنبى ﷺ يقول : «ليس الإيمان بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلب وصدّقه العمل، وإن قوما قالوا : نحن نحسن الظن بالله وكذبوا - لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل».

والقرآن الكريم يجمع بين البشارة والإنذار، ويراوح بين الترغيب والترهيب، ويسوق مقدمات الرجاء وأسبابه إلى جانب مقدمات الخوف وأسبابه - وهذا جوهرُ بارز فى رسالات الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامُه عليهم أجمعين : ﴿ **رسلا مبشرين ومنذرين - لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ سورة النساء آية ١٦٥- ومحمد ﷺ جاء على سنن الأنبياء قبله، فهو البشير النذير ﴿ **يأيها النبى - إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه، وسراجا منيرا** ﴾ سورة الأحزاب آيات ٤٥ : ٤٦.

وقد جمع الله سبحانه وتعالى لنفسه بين الصفتين فى كثير من آيات الكتاب الكريم - فهو فى فاتحة الكتاب يقول : ﴿ **الحمد لله رب العالمين - الرحمن الرحيم - مالك يوم الدين** ﴾ سورة الفاتحة آيات ٢ :٤ - فى الأول تحدث عن الربوبية، وما يتبعها من قوة وسيطرة على العباد فى العالم كله، ثم ذكر بعدها الرحمة العامة والرحمة الخاصة فى قوله «الرحمن الرحيم» ليُطمئن القلوب التى تخاف من معنى القوة والسيطرة بما فى الرحمة من رقة ونداوة، ثم عاد فذكر باليوم الآخر، وبيَّن أنه المالك لَه وحده، المتصرّف فيه بإرادته، وهو لونُ من الإنذار والتخويف يجلّ عن الوصف والبيان.

وهكذا يعرض القرآن الكريم معنى البشارة والإنذار فى نَسق محكم، وأسلوب مُتْقن، وتعبير بليغ بالغ، قال تعالى : ﴿ **نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم، وأن عذابى هو العذاب الأليم** ﴾ سورة الحجر آيات ٤٩ : ٥٠ -وهذا تصوير للمعنى فى روعة وإبداع - فالله يقول : يا محمد - أخبر عبادى أنى أناَ وحدى الغفورُالرحيم، وأن عذابى هو وحَده العذابُ الأليم. ولقد تقابلت الآيتان فى المعنى - **الأولى** - للترغيب والبشارة والرجاء، **والثانية** - للترهيب والإنذار والخوف- ثم التقتا على نَسق تعبيرى واحد فى نَغمَه وترتيبه لتُحدثَ كلُّ منها الأثر النفسى المطلوب مع اتحاد فى الفاصلة إلى غير ذلك من أساليب التعبير القرآنى البديع- رُوى فىسببنزول هذه الآية عن ابن أبى رباح عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذى يدخل منه بنو شيْبة فقال : ألا أراكم تضحكون؟ ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى فقال : إنّى لما خرجتُ جاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد - إن الله يقول : «لم تقنط عبادى؟ ﴿ **نبئ عبادى**

أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هوالعذاب الأليم﴾ سورة الحجر آيات ٤٩ : ٥٠ - وسبب النزول يتوافق تماما مع معنى الآيتين الكريمتين- فلقد رأى النبى ﷺ أصحابه يضحكون فى الحرم، وكأنّه كره لهم هذا العمل، فأدبر عنهم منصرفا ليشعرهم بعدم الرضا - فنزل عليه جبريل بالآيتين فتعلّم وعلّم الناس،تعلم أن الاكتفاء بصورة واحدة فى أمور الحياة : الجد والصرامة - أو اللهو والفكاهة أمرُ غير محبوب - وعلى المؤمن أن يأخذ الدنيا بحلوها ومرّها - وأن يكون وسطًا فى الأمور،لا يُسرف فى اللهو ولا يبالغ فى الجد - إذا طمع المؤمن فى الجنة بدون عمل فهو الواهم الخادع لنفسه، المبالغ فى الأمانى، الماضى وراء الأوهام والأحلام. وإذا يئس العاصى من رحمة الله فهو اليائس القانط الآيس من كرم الله وعفوه. والله لا يرضى لعبده المؤمن واحدًا من الأمرين.

قال صلوات الله وسلامه عليه : لو يعلم المؤمنُ ما عند الله من العقوبة ما طمع فى جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد».

وصدق الله : ﴿**إن ربك لسريع العقاب، وإنه لغفور رحيم**﴾ سورة الأعراف آية ١٦٧.

وإنه لمن كمال الحديث عن رحمة الله أن نعود إلى القرآن، وأن نقرأ منه آيات بينات كلُّها تصور الرحمة الإلهية، وتعطى للباحث مفهومًا واضحا لحدودها وأهدافها ومواضعها. وآياتُ الرحمة فى القرآن كثيرةُ إلى درجة واضحة، ومع هذه الكثرة فإنها تُساق بأساليب مختلفة، وتعبيرات متنوعة تحمل فى دلالاتها معنى الرجاء من العبد، والعفو من الرب - لكنها لا تفتح الأبواب المغلقة بدون قيود ، ولا تترك الحبل على الغارب لكل طامع.

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿**قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم**﴾ سورة الزمر آية ٥٣ - وهذا دليل قاطع على أن رحمة الله واسعة، وأنها تشمل كل الناس، وكل الذنوب - فالله يغفر الذنوب جميعا، ولا مجال لليأس من رحمته حتى للذين أسرفوا فى المعاصى، وبالغوا فى ارتكاب الذنوب - لكننا نخالف الحقيقة العلمية إذا وقفنا عند هذه الآية، وأخذنا ما سبق من معانٍ، واكتفينا بهذا الفهم - فإن من الواجب أن نقرأ ما بعدها فإنه يوضح الطريق إلى الرحمة - إن الله يطالب بعد هذه الآية بالتوبة وبالرجوع إليه قبل أن يأتى موعد الحساب والعقاب - يقول سبحانه ﴿**وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب،**

ثم لا تنصرون﴾ سورة الزمر آية ٥٤ - قال ابن كثير فى تفسيره : «هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة - وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها، ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر - ولا يصح حمل هذه على غير توبة لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه».

ومن واجب المؤمن أن يقرن هذه الآية بغيرها من آيات القرآن حتى يصل إلى المعنى الصحيح، قال تعالى : **﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾** سورة التوبة آية ١٠٤ - وقال : **﴿ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه، ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما﴾** سورة النساء ١١٠ - فالغفران والرحمة لا يتحققان إلا لمن يستغفر الله، ويسارعُ بالتوبة الصادقة.

ومن آيات الرحمة والمغفرة فى القرآن قوله الله تعالى : **﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم، وإن ربك لشديد العقاب﴾** سورة الرعد آية ٦- وهى آية واضحة الدلالة، فالله تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يَظلمون أنفسهم، ويخطئون بالليل والنهار - ولكنه شديد العقاب - ومن الواضح أن الجزء الأول من الآية وهو الصفح والعفو لا يتحقق إلا بالتوبة وبالعمل الصالح، وبالرجوع عن المعصية، وأن الجزء الثانى لا يحلّ إلاّ بالمبالغ فى عصيانه، والمنصرف عن التوبة قال تعالى : **﴿فإن كذبوك - فقل ربكم ذو رحمة واسعة، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾** سورة الأنعام آية ١٤٧ - عن سعيد بن المسَّيب قال لما نزلت هذه الآية **﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم، وإن ربك لشديد العقاب﴾** سورة الرعد آية ٦ - قال رسول الله ﷺ «لولا عفو الله وتجاوزُه ما هنأ أحدًا العيشُ، ولولا وعيدُه وعقابه لا تّكل كل أحد».

والكثير من أحاديث النبى صلواتُ الله وسلامُه عليه تؤيد هذا المعنى - روى عنه أنه ﷺ قال : «إذا أذنب العبدُ ذنبا فاستغفر الله - يقول الله عزّ وجل لملائكته : انظروا إلى عبدى أذنب ذنبا فعلم أن له ربّا يغفر الذنوب، ويأخذُ بالذنب، أُشهدكم أنى قد غفرت له» - وسرّ المغفرة هنا هو التوبة - والتوبة تحمل معنى الطاعة، وتُصَوّر الاعتراف الكاملَ بالله، فالعبد قد عرف أنّ له ربًّا، وهذا هو سُّر المغفرة والرحمة.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «إن للّه تعالى مائة رحمة ادّخر منها عنده تسعًا وتسعين رحمة، وأظهر منها فى الدنيا رحمةً واحدة - فبها يتراحُم

الخلقُ، فتحن الوالدةُ على ولدها، وتعطف البهيمة على ولدها - فإذا كان يومُ القيامة ضَمَّ هذه الرحمة إلى التِسْع والتّسعين ثم بسطها على جميع خلقه - وكل رحمة منها طباق السموات والأرض - فلا يهلكُ على الله يومئذ إلا هالك».

هذا حديث كله رحمة وسماحة، وفيه تصوير لواسع رحمة الله، وأنها تشمل جميع الخلق يوم القيامة، ومع ذلك يجب أن نقف عند آخر جملة فى الحديث «فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك» - والهالك الذى لا تناله الرحمة هو من أبى التوبة، وبالغ فى العصيان. والأمرُ من قبلُ ومن بعدُ لله وحده. وهو مرهون بأمرين رحمته وَعَدْله.

ونعود مرة أخرى، ونقفُ عند آيتين كريمتين من سورة الأعراف، ونحاول أن نصل إلى فهم واضح لمعنى الرحمة وحدودها. قال الله تعالى : ﴿ **واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك - قال عذابى أصيب به من أشاء، ورحمتى وسعت كلَّ شىء - فسأكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون - الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم - فالذين آمنوا به، وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾ سورة الأعراف آيات ١٥٦: ١٥٧.

يا أخى المسلم :

إن القارئ لهاتين الآيتين قد يأخذه من أول الأمر المعنى الواسعُ الشاملُ للتعبير القرآنى «ورحمتى وسعت كل شىء» فهى جملة عظيمة الشمول والعموم، تفتح أبوابا من الأمل لا حدود لها فى رحمة الله، ونحن حين نقرأ هذه الجملة منفصلة عن بقية الآيتين نكاد نشعر بكثير من الرجاء والانفراج والراحة - غير أن الإيمان الكامل، والفهم السليم للتعبير يفرضان علينا أن نضع الجملة فى موضعها من الكلام، وأن نأخذها متصلةً بما قبلها وبما بعدها.

والآية الأولى تبدأ ببقية من دعاء لموسى عليه السلام طلب فيه من الله المغفرة، ثم طلب منه حسنة فى الدنيا، وحسنة فى الآخرة، وعلل هذا الطلب بأنهم تابوا إلى الله، ورجعوا إليه. وفيها جواب من الله عن سؤال موسى ودعائه - فبماذا أجاب الله ؟ لقد

قـال : ﴿عذابى أصيب به من أشاء، ورحمتى وسعت كل شىء﴾ سـورة الأعـراف آية ١٥٦ - أى أنا أفعل ما أشـاء، وأحكم بما أريد، ولى الحكمـة فى كل مـا أفعل فى حدود العدل - ولقد ذكر الله العذاب قبل الرحمة، وقال إنه قادر على أن يصيب بالعذاب من يشاء ممن يستحق العذاب - ثم ذكر الرحمـة شـاملة واسـعـة عـامـة - لكنه عـاد مـبـاشـرة فـقّـيـدهـا، وجعل لها حدودا وقال كلمته التى لا معقب عليها ﴿فسأكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة، والذين هـم بآياتنـا يـؤمنون﴾ سـورة الأعـراف آية ١٥٦ - فـلا بـد لكى ينال العـبـد هذه الرحـمـة الإلهـيـة من أن يكون من المتقين، والتقـوى هـى جمـاع الفضـائل، وغـاية الطاعـات، ولب الإيمان، وأقصى غـايات المؤمنين من العبادة والسلوك القويم، وإذا كـان القـرآن قد جعلها شرطا للرحمة الإلهية فإنها شرط يصعب تحقيقه إلا على صفوة من المؤمنين، ثم ذكـر الله إيتـاء الـزكـاة بعـد التـقـوى تنبـيهـا على عظم شـأنهـا ولبـيـان فضلهـا فى تقـوية العـلاقـات الاجـتـمـاعـيـة من المسلمين، وفى تـطهيـر النفـوس من الشـح والبـخل، وتطهـيـر الأموال من الآفات، فهى وسيلة من وسـائل التقوى تحتاج إلى مزيد من عناية - ثم عاد فـذكـر شـرطـا ثالثـا هو الإيمان بـآيات الله، والإيمانُ تصـديق وعـمل، فـهم يؤمنون أىْ يُصدقون ويعملون بمقتضى هذا الإيمان.

أرأيت يا أخى كيف ذكر الله الرحمـة فى صـورة شـاملة عامـة، ثم قـيَّد منحها للناس، فلن تكون إلا لمن يبذل الثمن، والثمن هنا تقوى وزكاة وإيمان.

ولم تكتف الآيتـان بذلك - فإن الآية الثـانية تعرض مـا يشبه الشـرط الرابع، وإن كـان فى حقيـقـتـه توضيـحـا لما قبله، وتـأكيداً لمنزلة مـحـمـد ﷺ - إن الآيـة تقـول : لا بد من الإيمان بمحمد ولم تذكره باسمه، وإنما ذكرته بهذه الصفات الدالة على جوانب الفضل والخيـر فيـه - فـهو رسـول نبّىُ أمىٌّ، مكتوب باسـمـه وصفتـه فى التوراة والإنجيل - إنه يأمـر بالمعروف، وينهى عن المنكر ويحلُّ الطيبـات، ويحـرّم الخبـائث، وشـريعتُه كلهـا يسـر وسماحـة، ورفق ولين - فمن آمن به، وعمل بشـريعته، واتّبع ملّته فـهو المفلح الناجى، وهو الذى يسـتـحق - بعـد ذلك كله - رحـمـةَ الله، - هذا المدى الطويل من الشـروط والقـيـود مـقـصـود مـن القـرآن الكريم حتى لا يظن الطامعـون أن الرحمـة الإلهـيـة يسيـرة قـريبـة، فيقعدون عن الطاعة، ويتساهلون فى أمور الدين.

إن رحمة الله واسعة، ولكنها عزيزة المنال، غالية الثمن - وصدق الله : ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة - أنه من عمل منكم سوءا بجهالة، ثم تاب من بعده وأصلح، فأنه غفور رحيم** ﴾سورة الأنعام آية ٥٤.

وصدق الله : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾سورة الأعراف آية ٥٦.

فالأمر يا أخى كما ترى يرجع كله إلى رحمة الله سبحانه وتعالى

وهو الموفق والمعين والهادى إلى سواء السبيل

صور من الظلم

نحمد الله حمد الشاكرين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ﷺ .

أما بعد..

فقد ألف الناس أن يتحدثوا عن صورة واحدة من صور الظلم - وأعنى به ما يحدث بين الأفراد والجماعات من ظلم القوى للضعيف - وأريد اليوم أن أتحدث عن صور أخرى ربما غابت عن الذهن مع أنها خطيرة الأثر فى حياة الفرد، وفى تكوين الجماعات. أريد أن أترك ما ألف الناس الحديث عنه حين يسُمرُون ، وحين يلتقون فيعظون أو يتعظون. أتركُه لأن المظلوم فى نظرى يتحمل من المسئولية ما يجعله شريكا لظالمه . ذلك لأنه يُسلّم فى حقوقه، ويتخاذل فى موقفه فيعطى الظالم فرصة يحقق بها ما يريد. يصدق هذا على الأفراد ويصدق على الدول فى كل عصر وفى كل بيئة.

ولا شك أن الإسلام دين العدالة والحق - فالعدل صفة من صفات الله، والحق اسم من أسمائه - وهو القائل فى كتابه ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ سورة النحل آية ٩٠ - ﴿ **وما الله يريد ظلما للعالمين** ﴾ سورة آل عمران آية ١٠٨ - ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾سورة فصلت آية ٤٦.

إنما أريد أن أتحدث عن صور أخرى ترجع إلى صلة العبد بربه، وصلته بنفسه ، صور تتناول العقيدة فى جوهرها، وفيما يترتب عليها من علاقات.

وأول ما أعنى من صور الظلم : الشرك بالله - ذلك لأن الشرك بالله ظلم فادح، وعدوان أثيم على مقام الألوهية - فالمشرك يسوّى بين الخالق والمخلوق، ويعدّل بين السيّد والمسود - وينسى الفروق البعيدة بين عظمة البارئ المبدع، وضآلة العبد وهوان شأنه - ولهذا بدأ لقمان وصيته لابنه بالنهى عن الشرك، ووصف الشرك بأنه ظلم عظيم : ﴿ **وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى : لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ سورة لقمان آية ١٣ - أى هو أعظم ألوان الظلم - روى البخارى : لما نزلت ﴿ **الذين آمنوا ولم**

يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ سورة الأنعام آية ٨٢ - شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا أيُّنا لم يلبس إيمانهَ بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ : «إنه ليس بذلك - ألا تسمعُ إلى قول لقمان - يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم».

وصورة ثانية من صور الظلم تتصل بالصورة الأولى وترتبط - هى صورة من يُكَذّب الوحى، ويفترى على الله، ويدّعى أن ما جاء به محمد سحر وباطل - قال تعالى : **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام، والله لا يهدى القوم الظالمين﴾** سورة الصف آية ٧ - وقال سبحانه : **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه﴾** سورة العنكبوت آية ٦٨ - وهى صوره مركبة من الظلم، أو فيها ظلم من ناحيتين - فهذا الظالم يكذّب الرسالة وينكر الوحى أولا - ثم يأتى بكلام من عنده، ويفترى شيئا غير صحيح ثانيا.

ومن صور الظلم أن تقصر عن الغاية وأنت قادر عليها، وأن تقعد عن المجد وقد مهّدت لك الحياة أسبابه - وبهذا تظلم مواهبك، وتضع نفسك موضع التخلف والهوان وقد كانت أهلا للتقدم والعزة. ومن بدائع التعبير القرآنى أن الله تعالى حين وصف الجنتين المثمرتين فى سورة الكهف نفى عنهما الظلم لأنهما أثمرتا وآتت كل واحدة ماهى أهل له، ولم تقصر فى الإنبات أو فى العطاء - قال تعالى : **﴿كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا﴾** سورة الكهف آية ٢٣ - أى لم تخف أو تدخر منه شيئا - فمن كانت عنده موهبة عقلية، أو جسمية، أو نفسية ثم أخفاها وقصّر بها عن غايتها فهو ظالم لنفسه - ومن منحه الله القدرة والكفاءة فى أمر من الأمور فبذل، وسعى، وكان أهلا لهذه المنحة كان عادلا مع نفسه، وعادلا مع ربّه.

وما أقسى أن يظلم الإنسان نفسه - إنه يظلمها فى أخطر أمورها : يظلمها فى دينها وفى عقيدتها، وفى صلتها بربها **﴿ذلك بما قدمت أيديكم، وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾**سورة آل عمران آية ١٨٢.

ومن صور الظلم أن نجحد الفضل وننكر الجميل :

بعضنا يظلم والديه، ويدير لهما ظهره، ويتركهما فى مهبّ الرياح وقد منحاه الحياة.

وبعضنا يظلم أستاذه، فينكر فضله، ويجحد خيره - ويمضى عنه كأن لم يكن بينهما سبب.

وبعضنا يظلم الصديق - يسعى إليه عند الحاجة حتى إذا ما استغنى نسى ما سعى.

وبعضنا يظلم الرحم، يقطع الأخت البائسة، وينسى اليتامى الصغار، ويترك فى القلوب جروحا دامية بالحقد والشجن والشجى.

وما أكثر الصور - وما أمرّ الحديث - وما أصدق القرآن حين صوّر عاقبة الظلم فى واحدة مما تحدثنا عنه - وحكم على الكافرين بالخلود فى النار - ونفى أن تنفعهم أموالهم ولو أنفقوها فى أوجه الخير - قال تعالى :

﴿**إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا - وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون - مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر، أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته - وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم يظلمون**﴾سورة آل عمران آيات ١١٦ : ١١٧.

ونسأل الله العفو والعافية

وإليه يرُجع الأمر كله

وله الحمد والمنة.

الحمد لله

نحمد الله على كل حال ونعوذ به من حال أهل النار

وأشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا وحبيبنا محمدا رسول الله.

وبعد :

فيا أيها المسلم :

«الحمد لله» - كلمة يقولها المسلم إذا توجه إلى ربه، ووقف بين يديه يناديه ويناجيه، ويستغفره ويدعوه، ويسأله الرحمة والقبول، يكررها العبد فى كل صلاة فهى شفيعُه إلى الله، ووسيلته حين يطرق باب مولاه.

و«الحمد لله» - كلمة جعلها الله فاتحة الفاتحة، فهى بداية القرآن الكريم - نقرأها فى أول سورة الفاتحة : ﴿**الحمد لله رب العالمين - الرحمن الرحيم - مالك يوم الدين**﴾سورة الفاتحة آيات ٢ :٤.

فهل سأل المسلم نفسه - مامعنى هذه الكلمة ؟ ولماذا يكررها فى صلاته وضراعته؟ ولماذا وردت فى القرآن الكريم بصور مختلفة، وفى مناسبات كثيرة؟

إن الحمد هو الثناء والشكر - ونحن نقولها فى دعواتنا وصلواتنا دليل عرفان بنعم الله التى لا تعد ولا تحصى، نقولها فنُثنى عليه بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، والله يحب من عبده أن يقولها فى كل مجال - قال صلىّ الله عليه وسلمّ للأسود بن سريع (أما إن ربك يحب الحمد) - وماحدثنا به الرسول الكريم هو الحق، فالله سبحانه وتعالى يحب الحمد والثناء ، ولهذا أثنى على نفسه فى القرآن الكريم أكثر من مرة.

أثنى على نفسه حين بدأ الكتاب الكريم بقوله : ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ - وحين ذكر نعمة نُزُول الكتاب على محمد فقال : ﴿**الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجا، قيما**﴾ سورة الكهف آيات ١:٢ - وأثنى على نفسه حين افتتح نعمة الخلق والتكوين ﴿**الحمد لله الذى خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور**﴾ سورة الأنعام آية ١ - وحين

فَطَر السموات والأرض، وخلق الملائكة وجعلهم رسلا، وزاد فى الخلق زيادة تساوى قدرته وعظمته ﴿ **الحمد لله فاطر السموات والأرض، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة، مثنى وثلاث ورباع - يزيد فى الخلق ما يشاء - إن الله على كل شيء قدير** ﴾ سورة فاطر آية ١.

ثم أثنى سبحانه وتعالى على نفسه بكلمة الحمد حين نزَّه ذاته عن الولد وعن الشريك، وتربّع فى عليائه إلها قويّا قادرا، واحدا صمدا : ﴿ **وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك فى الملك، ولم يكن له ولى من الذل - وكبره تكبيرا** ﴾سورة الإسراء آية ١١١.

وعندما تمضى إرادة الله إلى غايتها، وتنتهى الخليقة إلى نهايتها، تطوف ملائكة الله بعرشه، تسبحه وتشكره وتحمده، وكلمة الحمد هى خاتمة المطاف : ﴿ **وترى الملائكة حافين من حول العرش، يسبحون بحمد ربهم، وقضى بينهم بالحق، وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ سورة الزمر آية ٧٥ - تقولها الملائكة ويقولها المؤمنون، ويقولها الكافرون، وتقولها الكائنات كلها - لقد ظهر الحق، وانتهى الأمر. ولم يبق إلا وجه الله العلىِّ الكبير.

هكذا يثنى اللهُ على نفسه بكلمة الحمد فى كل مقام عظيم، - وإلى جانب هذا فإنه يطالب عباده بالحمد فى مواقف حياتهم المختلفة. ولهذا يقولها المؤمنون إذا شكروه على نعمة الهداية ﴿ **وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله** ﴾ سورة الأعراف آية ٤٣- يقولون ذلك يوم القيامة بعد أن يُذهب الله عنهم الحزَن، وينزعَ ما فى صدورهم من غل، ويجدون صدق ما وعدهم : ﴿ **وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن، إن ربنا لغفور شكور** ﴾سورة فاطر آية ٣٤ - ﴿ **وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء - فنعم أجر العاملين** ﴾سورة الزمر آية ٧٤.

وهى كلمة الأنبياء كلما منحهم الله فضلا، أو أعطاهم نعمة، قالها إبراهيم حين رزق الولد على شوق ودعاء ﴿ **الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق، إن ربى لسميع الدعاء** ﴾سورة إبراهيم آية ٣٩.

والقرآن الكريم يطالبنا بالحمد فى كل وقت - كلما طلعت الشمس أو غربت، وكلما تحرّك الفلك أو دار، وكلما تغيرت مراكز الكائنات ومصائرها فى الحياة: بين ليل ونهار - وظلام ونور، وأنس ووحشة، ولقاء وفراق، وإقامة وغربة، - كلما حزب أمر أو اشتد مكروه

- كلما زالت نقمة، أو حلّت نعمة - ﴿**وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب**﴾ سورة ق آية ٣٩ - ﴿**وسبح بحمد ربك حين تقوم، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم**﴾ سورة الطور آيات ٤٨ : ٤٩ - ﴿**فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا**﴾ سورة النصر آية ٣.

«والحمد لله»

دعوة مستجابة فى أول الحياة، وفى آخر الحياة، وفيما بعد الحياة : ﴿**له الحمد فى الأولى والآخرة، وله الحكم، وإليه ترجعون**﴾ سورة القصص آية ٧٠.

وهى آخر دعوة للمؤمنين يوم يعودون إلى رحاب ربهم فيمنحَهم رضوانه، ويُدخلَهم فسيح جناته، ﴿**دعواهم فيها سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين**﴾سورة يونس آية ١٠.

وبعد - فهذه هى كلمة «الحمد»

تقال فى كل صلاة، وتُقَال فى الأولى وفى الآخرة، يقولها العبد المؤمن، ويقولها النبى المرسل، ويقولها الربّ عزّ وعلا، فاحرص عليها يا أخى فى كل وقت، والجأ إليها فى كل نعمة، وعند كل شدة، قال صلوات الله وسلامه عليه :

«أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء - الحمد لله».

والله الهادى إلى سواء السبيل.

الفهـــرس